مجلد ٧ — عدد ٢٥
أكتوبر ١٩٤٧



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

تحت الطبع

كتاب البخــلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

تأريخ قضاة الأندلس

نشره وعلق عليه إ. ليڤى پروڤنسال

قطوف

كتاب فى جزأين يجمع عدة مقالات و بحوث

بقلم عبد العزيز البشرى

البيت السبكى

بيت علم فى دولتى المماليك

تاليف محمد الصادق حسين بك

تربية سلامه موسى

بقلم سلامه موسى

النفس فى الصحة والمرض

تأليف الدكتور محمد زكى شافعى بك



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير

طه حسين

مجلد ٧



القاهرة ١٩٤٧

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى

ذو القعدة ١٣٦٦ أكتوبر ١٩٤٧

السنة الثالثة مجلد ٧ — عدد ٢٥

فى الأدب الأمريكى

ريتشارد رايت

أما فرنسا فقد سافرت إليها وأقمت فيها أشهر الصيف ، ولكنى على ذلك لا أعد هذه الاقامة إلا إلمامة قصيرة . فقد كانت حياتى المادية أثناء هذه الأشهر فى فرنسا ، ولكن حياتى المعنوية أو العقلية بعبارة أدق ، كانت بعيدة عنها أشد البعد . وأكاد أقطع بأنى لأول مرة قد أطلت الاقامة فى فرنسا دون أن أحيا فيها حياة كاملة . فلم أقرأ من الكتب الفرنسية إلا قليلا أقل مما أقرأ فى القاهرة ، ولم أتعمق قراءة الصحف الفرنسية ، وإنما كنت أمر بها مرًّا سريعًا ، كما أمر بالصحف العربية فى القاهرة مرا سريعاً ، أجتزئ بالعنوان فى أكثر الأحيان عن قراءة ما بعده ، إلا ما كان من النظام الجديد الذى شرع للجزائر فقد أتتبعه فى عناية خاصة .

ومصدر ذلك أن الانتاج الفرنسى الأدبى فى هذا العام لم يغرنى ولم يستخفنى من جهة ، وأنى قد ذهبت إلى فرنسا هارباً من القاهرة لأخلو فيها إلى طائفة من الكتب ليس بينها وبين الحياة الفرنسية سبب ، بل ليس بينها وبين الحياة الحديثة كلها سبب ، وإنما هى كتب تتصل بالحياة العربية القديمة .

فلم أكد أبلغ فرنسا حتى خلوت إلى هذه الكتب ؛ فكنت أغرق فيها وجه النهار وآخره ، وكنت أرفه على نفسى إذا أقبل الليل بشئ من القراءة المريحة . وأرادت الظروف أن تكون هذه القراءة المريحة متصلة بأشياء لا تمس الحياة

الفرنسية من قريب ولا من بعيد ، وإنما هي قراءة تمس الآداب الأوربية غير الفرنسية ، أو تمس الآداب الأمريكية . وقد يكون من الحق أن أعترف بأني قرأت كتاباً فرنسيا كثر الكلام عنه جدا في فرنسا ، وكاد النقاد الفرنسيون يجمعون على الاعجاب به ، ولكنه لم يعجبني ، وأكاد أقول إني ضقت به أكثر مما ارتحت إليه ، وهو بعد هذا لا يمس الحياة الفرنسية في ظاهر الأمر ، وإنما يمس حياة إفريقية الشمالية ، وهو كتاب « الطاعون » للكاتب الفرنسي المشهور ألبير كامو .

وأنا أعلم أن الكاتب أراد به إلى الرمز ؛ فهو يصف الطاعون الذي تخيل أنه ضرب بجرانه على مدينة وهران ، فقطع ما بينها وبين العالم من الأسباب ، واضطرها إلى حياة محصورة كثرت فيها الفتن والمحن والخطوب ، وصرحت فيها نفوس الناس عن مكنونها ، فظهر الضعف الذي ينتهي إلى التهالك ، وظهرت القوة التي تنتهي إلى البطولة ، وظهر الاخلاص الذي ينتهي إلى الايثار ، وظهر الجبن الذي ينتهي إلى الأثرة المنكرة . وخلصت المدينة بعد لأي من هذا العناء البغيض ، واستأنفت حياة عرجاء تحاول أن تستقل وتستقيم .

وأنا أعلم أن الكاتب أراد أن يتخذ وهران وأهلها والطاعون رمزاً لفرنسا وأهلها والحرب ، أو رمزاً للأرض كلها وللحرب ، وأنه إنما أراد أن يصور الانسانية حين تلم بها الخطوب الفادحة ، فتمحص من الناس من تمحص وتمحق منهم من تمحق .

ولست أدري لِمَ لم يعجبني هذا الكتاب مع أن المعنى الذي أراد إليه الكاتب قيم خطير عظيم الشأن . وأكبر الظن أن الأداء هو الذي لم يعجبني ، وأن الحوادث التي شهدناها في الحرب الأخيرة كانت أعظم نكراً وأشد هولا ، وأصدق تصويراً لقوة الانسان وضعفه ، ولايثار الانسان وأثرته ، من هذا الكلام الذي لا يكاد يتجاوز في وصفه وتصويره أيسر ما تكتبه الصحف حين تقص الأخبار . والمهم هو أن هذا الكتاب لم يشعرني حين قرأته بأني كنت أقرأ كتاباً رائعاً يصور الحياة الأوربية الرائعة أثناء الحرب تصويراً يلائمها في الروعة ، وإنما أشعرني بأني كنت أقرأ كتاباً فاتراً يريد أن يصور أشياء لا يلائمها الفتور بحال من الأحوال .

لم أقرأ إذن كثيراً من الكتب الفرنسية أثناء إقامتي في فرنسا ، وإنما قرأت

كتباً إيطالية وأمريكية وروسية ، وأعود فأقول إنى لم أكن أعمد إلى هذه القراءة إلا وقتاً قصيراً حين يقبل الليل وبعد أن ننصرف عن العشاء ونخرج للرياضة وقتاً يقصر أو يطول ، ثم نعود فنجتمع إلى قارئ منا يعيننا على انتظار النوم الذى لا يحب أن يطول انتظاره فى القرى و إن أحب أن يطول انتظاره فى المدن وبنوع خاص فى باريس .

وقد عرفت أثناء هذه القراءة القصيرة كاتباً أمريكيا أسود كنت قد سمعت به فى باريس فى العام الماضى دون أن أقرأ له شيئاً . ثم قرأت له بعد عودتى إلى القاهرة فى مجلة «العصور الحديثة» التى يصدرها جان بول سارتر قصة قصيرة رضيت عنها كل الرضا . ثم أتيح لى أثناء هذا الصيف أن أقرأ له كتابين قد كثر عنهما الحديث فى فرنسا ، نشر أحدهما متفرقاً فى مجلة « العصور الحديثة » وعنوانه : « غلام أسود » **Black Boy** ونشر الآخر جملة وعنوانه « ابن البلد » **Native Son** . وله كتاب ثالث قد نشر فى فرنسا ولم أقرأه بعد ، وأرجو أن تتاح لى قراءته قبل أن أعود ، وعنوانه : « أبناء العم توم » . وهذا الكاتب الأمريكى الأسود هو ريتشارد رايت الذى أريد أن أجعل فنه موضوعاً لهذا الحديث .

لم يكد ريتشارد رايت يبلغ الأربعين من عمره وهو على ذلك يقرأ فى أوربا وأمريكا جميعاً . وأرجو أن يقرأ فى الشرق العربى بعد حين ؛ فما أعرف أن الشرق العربى يحتاج إلى قراءة كما يحتاج إلى قراءة آثار ريتشارد رايت . أما كتابه الأول « غلام أسود » ، فليس إلا ترجمة لحياته منذ عرف نفسه إلى أن أتم السابعة عشرة من عمره . وهو قد عرف نفسه صبياً لا يكاد يميز الأشياء ، يعيش بين أب أسود وأم سوداء ، ويعيش معه أخ أصغر منه سنا . والحياة فى هذه الأسرة ضيقة ضئيلة ذليلة ، ثم لا تلبث أن تزداد ضيقاً وضآلة وذلا . فقد هجر الأب زوجه وابنيه ، وعاش مع امرأة أخرى سوداء ، وترك هذه الأم البائسة تسعى على رزقها ورزق ابنيها ، تجد فى ذلك ما شاء البؤس والذل وفساد النظام الاجتماعى واستعلاء البيض على السود أن تجد من الجهد والمشقة والعناء . وهى حين تسعى على رزقها ورزق ابنيها تترك هذين الصبيين البائسين لأنفسهما أكثر النهار ، فهما يعيشان فى الشارع يخالطان أمثالهما من أبناء السود البائسين ويشاركانهم فى كل مايتعرضون له مما يفسد التربية وينحط بالأخلاق

إلى الدرك الأسفل ؛ فهم يعيشون عيشاً مرذولا . وهم يسرقون ويختلسون ، وهم يتعرضون لضروب من الاهانة والازدراء والتغرير والتضليل لا تطاق .

وهذا الصبى ريتشارد رايت نفسه يحدثنا عن وقوفه أمام قهوة من القهوات الوضيعة التى يختلف إليها السود ليشربوا فيها شراباً بغيضاً ، ثم عن استدراج الكبار له حتى يدخل القهوة ، وعن عبثهم به حتى يشرب ما لا يلائم سنه ولا صحته ، وحتى يضطر إلى السكر قبل أن يتجاوز السادسة من عمره ، وحتى يتعلم منهم أبشع اللفظ وأقبح الفعل ، وهم يشجعونه على ذلك ليعبثوا به وليضحكوا من سخفه فى القول والعمل حين يأخذ منه السكر مأخذه . والصبى يحب هذا النوع من الحياة لأنه وحيد ضعيف أولا ، ولأنه جائع بعد ذلك ، ولأن العابثين به يتيحون له شيئاً من طعام ويلهونه عن نفسه وعن جوعه وبؤسه بما يلقون فى جوفه من شراب . والحياة تثقل على أمه فتسلمه إلى ملجأ من ملاجئ اليتامى ، تحاول أن تضمن له شيئاً من التربية والمراقبة والتعليم . ولكن الصبى لايطيق الحياة فى هذا الملجأ ؛ لأنه لايطيق فراق أمه ، ولأنه ألف الحياة الفارغة المتسكعة فهو يفر من الملجأ ، وتضطر أمه إلى أن تمسكه فى بيتها دون أن تجد إلى ذلك سبيلا . وتعجز هذه المرأة آخر الأمر عن النهوض وحدها بهذا الثقل الثقيل فتتنقل بابنيها فى مدن القسم الجنوبى من الولايات المتحدة ساعية على رزقها ورزقهما ما وسعها السعى ، فاذا لم تجد إلى الاحتمال سبيلا لجأت بابنيها البائسين إلى أسرتها الحقيرة الفقيرة فعاشت وعاشا بين أمها وأبيها وأختها المعلمة فى مدارس السود . وتحاول أن ترسل الصبى إلى المدرسة التى تعلم فيها أختها ، ولكن الصبى لا يحب المدرسة ولا يحب خالته يضيق بالنظام ويضيق بظلم خالته له ، وما يزال يضيق بخالته وتضيق به خالته حتى يترك المدرسة ويعود إلى حياة التسكع والفراغ . ثم تلم العلة بأمه حتى تثقل ، ويرسل الفتى إلى أحد أخواله ليعيش فى ظله . ولكن الأمور لا تستقيم له فى هذا البيت الجديد ؛ لأنه حر مسرف فى الحرية لايحب أن يسمع ولا أن يطيع ، وإذا هو يعود إلى بيت الأسرة ليعيش بين أمه المريضة المثقلة ، وجدته البغيضة المتهالكة على الدين ، وجده الساخط الذى انحاز إلى نفسه ولزم حجرته فلا تراه الأسرة إلا قليلا . والصبى يثقل على نفسه ويثقل على أسرته ، والخطوب تتقاذفه والجوع يلح عليه ، وجدته تحاول أن تخضعه لشئ من النظام

فلا تستطيع ، وتحاول أن تميل به نحو الدين فلا تجد منه إلا إباء ونفوراً . وهو على ذلك خال إلى نفسه عاكف عليها ، قد استقر فى قلبه أن كل من حوله من الناس وكل ماحوله من الأشياء عدو له . وأشد ما يؤثر فى نفسه الناشئة ما يرى من استعلاء البيض على السود وظلمهم لهم واستعبادهم إياهم والاستخفاف بأمنهم وسلامتهم وحياتهم نفسها ؛ فليس أيسر على البيض من شتم الرجل الأسود ولكزه ووكزه وقتله لأيسر الأمور وأحقر الهنات . قد استقر فى قلوب البيض أن السود لهم عدو خطر ضعيف ، فيجب أن يستذلوهم وأن يمسكوهم فى الفقر والجوع والهوان والحياة الخسيسة من كل نواحيها . واستقر فى نفوس السود أن البيض لهم عدو قوى ، فيجب أن يكبروهم ويخافوهم ويرهبوا بأسهم ويتنحوا لهم عن الطريق ويخفضوا الأصوات إذا حدثوهم ، ثم لا يحدثوهم إلا بما يصور الخوف والاكبار والاجلال . ولكن الصبى يرى هذا كله ويفهمه حق الفهم ويشعر به أشد الشعور وأدقه دون أن تطمئن نفسه إلى شئ منه ؛ فهو لا يستطيع أن يؤمن بأن بينه وبين غيره من الناس فرقاً سواء أكانوا بيضاً أم سوداً . وهو من أجل ذلك يبغض الناس جميعاً ، ويعكف على نفسه حتى كأنه يعيش فى عالم مقصور عليه . يبغض البيض لظلمهم وكبريائهم ، ويبغض السود لذلهم واستخذائهم . وهو من أجل هذا يعيش عيشة منكرة حقاً : لا يطمئن إلى أهله ولا إلى رفاقه لأنهم سود مستذلون والذلة لا تجد إلى نفسه سبيلا ، ولا يطمئن إلى البيض لأنهم طغاة مستكبرون ، ولم تخضع نفسه للطغيان ولا للاستكبار . وهو من أجل ذلك ومن أجل إصراره على بغض النظام ومباعدة الدين قد فقد عطف أسرته جميعاً إلا عطف هذه الأم المريضة التى تثقل عليها العلة أحياناً وترفه عليها بين حين وحين .

وقد انتهى الأمر بالصبى إلى أن يسعى إلى المدرسة ويأخذ نفسه بنظامها فى كثير جدا من المشقة والعناء . وما أسرع ما يتفوق على رفاقه السود ويمتاز منهم ! وما أسرع مايحب الدرس ! ولكنه جائع عار وبائس يائس ، فلا بد من أن يسعى على رزقه ورزق أمه ، ولابد مع ذلك من أن يمضى فى درسه . وهو من أجل ذلك يخدم البيض أول النهار وآخره ويختلف إلى المدرسة فيما بين ذلك . وخدمته للبيض لاتستقيم ؛ فهو لا يقبل الأوضاع المألوفة بينهم وبين السود ، وهو يطرد مرة ويترك العمل من تلقاء نفسه مرة أخرى . وهو على ذلك

يسعى على رزقه وتعليمه، ويشقى بهذا السعى حتى يتم المرحلة الأولى من مراحل التعليم . والعادة أن المبرز من التلاميذ يلقى خطبة يوم توزيع الاجازات ، وهو المبرز فى سنته تلك ، فسيكون إليه إذن إلقاء الخطبة ، وهو يعد خطبته ، ولكن ناظر المدرسة يدعوه ذات يوم ويدفع إليه خطبة أعدها هو ليلقيها التلميذ الممتاز كشأنه مع التلاميذ جميعاً فى كل عام ، غير أن الغلام يرفض خطبة الناظر ويأبى إلا أن يلقى خطبته هو ، والناظر دهش لهذا الاباء ثم ضيق به ثم ساخط عليه ثم منذر للغلام لأنه معرض مستقبله للخطر إن أصر على هذا الاباء. ورفاقه يلحون عليه فى أن يفعل كما فعل المبرزون من قبله وكما سيفعل المبرزون من بعده ، وأهله يلحون عليه كذلك ، ولكنه يأبى ويستمسك بالإباء ، ولايعنيه أن يضيع مستقبله ، ولا يعنيه أن يصرف عنه منصب التعليم فى مدرسة من مدارس السود. فقد ألقى خطبته هو إذن لاخطبة الناظر ، وظفر بشئ قليل من التصفيق وصافحه نفر قليل من رفاقه ، ثم عاد إلى أهله وقد صرف عنه منصب التعليم . وليس له بد من أن يسعى على رزقه ومعونة أسرته ، وهو مع ذلك طامع فى أن يبلغ حظه من التعلم الجامعى . ولكن كيف السبيل إلى هذا التعليم ؟

هو إذن مضطر إلى أن يستأنف خدمة البيض ؛ فهو يتنقل من دار إلى دار ومن متجر إلى متجر، لايتاح له الاستقرار إلا ريثما يفرض عليه القلق والاضطراب، حتى استيقن آخر الأمر أن لامقام له فى هذه البيئة التى يعيش فيها ، وأنه مضطر إلى أن يتغرب ليحيا حياة ممكنة محتملة . ولكن كيف السبيل إلى التغرب وليس له حظ من مال ؟ فهو يعمل كثيراً ويكسب قليلا ، وينفق على نفسه وعلى أسرته ما يكسب ، ويجوع دائماً . لاسبيل له إلى أن يغترب إلا إذا سرق . وهو يرد هذا الخاطر عن نفسه رداً عنيفاً . ولكن هذا الخاطر يلح عليه إلحاحاً عنيفاً . ويزداد إلحاحه عليه كلما تعرض — وما أكثر ما كان يتعرض — للاهانة والعسف يأتيانه من البيض . وهو ينتهى آخر الأمر إلى أن يسرق : يختلس مسدساً من دار الجيران ، ويختلس نقوداً من دار السينما التى كان يعمل فيها، ثم يأخذ القطار ذات صباح أو ذات مساء فيخرج من هذه المدينة التى يعيش فيها الظلم والذل جميعاً .

ويصل إلى مدينة ممفيس ومعه شئ من مال قد أخفاه فى منطقته. وهو

يريد أن يعمل فى هذه المدينة حتى يجد من المال ما يمكنه من أن يدعو أمه وأخاه ليلحقا به ، ثم يعمل بعد ذلك حتى يجمع من المال مايمكنه من أن ينتقل معهما إلى شمال الولايات المتحدة حيث يستطيع السود أن يعيشوا دون أن يتعرضوا لما يتعرضون له فى الجنوب من الذلة والهوان .

وقد أتيح له هذا العمل الذى كان يبتغيه ، وأتيح له كسب ملائم ، ولكنه يؤدى فى سبيل ذلك العمل وهذا الكسب جهداً أى جهد ، ويلقى فى سبيلهما عناء أى عناء ؛ فهو محتقر منذ يصبح إلى أن يمسى ، وهو أقل شقاء بما يلقى من هذا الاحتقار بنه بما يرى من اطمئنان أمثاله السود إلى هذا الاحتقار واتخاذه سبيلا إلى الكسب ، يتملقون البيض ويمكنونهم من المبالغة فى إذلالهم ليكسبوا قليلا من المال . وربما كان أشد ما أمضه وثقل عليه إسراف البيض فى الاستهزاء بالسود وإغراء بعضهم ببعض حتى يقتتلوا أو يصطرعوا أبشع الاصطراع وهم ينظرون إليهم ويسخرون منهم ويلهون بهم. وقد تعرض هو لبعض ذلك ؛ فما زال سادته الذين كان يعمل عندهم يخوفونه زميلا له أسود ويخوفون منه هذا الزميل ويغرون أحدهما بصاحبه ، ولكنهما قاوما ما وسعتهما المقاومة ثم أذعنا آخر الأمر ؛ لأن زميله قبل أن يلاكمه ويأخذ على ذلك أجراً خمسة دولارات . وقد حاول ريتشارد رايت أن يرفض هذه الملاكمة ، ولكن زميله مازال به يرغبه فى الدولارات ويرهبه بأسه ويخيل إليه أن الملاكمة لن تكون إلا ظاهرة مموهة حتى استجاب له ، ثم كانت الملاكمة واجتمع السادة البيض لها كما يجتمع الذين يلعبون باختصام الديكة . ولم تكن الملاكمة خيالية مموهة ، وإنما كانت مرهقة مهلكة أشرفت بهما على الموت .

وفى المصنع الذى كان ريتشارد رايت يعمل فيه كان يعمل إرلندى كاثوليكى وكان رفيقاً بالسود وبرايت خاصة ، وبفضله استطاع رايت أن يستعير بعض القصص من مكتبة المدينة التى كانت وقفاً على البيض . فلم يكد يقرأ فى هذه القصص حتى فتحت له آفاق جديدة لم يكن يقدرها ولا يفترض لها وجوداً ، وإذا هو يصرف إلى القراءة عن كل شئ إلا عن العمل الذى يكسب منه قوته وقوت أسرته ، ويستعين به على اقتصاد مايتيح له السفر إلى الشمال. وهو يستكشف فى هذه القراءة شيئين : أحدهما هذه الآفاق الجديدة التى كان يجهلها ، آفاق تصوير الحياة ونقدها وتحليلها ، وآفاق هذه الأنواع الكثيرة

المختلفة من الحياة التى يحياها الناس فى أمريكا وفى أوربا ، والتى يصورها كتّاب كثيرون أمريكيون وأوربيون تنقل آثارهم أو يتحدث عنها فيما يقرأ من الكتب . والثانى هذه النفس التى كان يشقى بها والتى لم يستطع قط أن يذلها أو أن يخضعها للذل ، أو أن يتصور أنها أقل من نفوس البيض خطراً أو أهون منها شأناً . استكشف إذن فى قراءته هذه الناس ونفسه . ولم يكن يعدل رضاه عن هذا الاستكشاف إلا تكلفه للاقامة على حياته المألوفة حتى لا يفطن البيض إلى أن شيئاً من سيرته الظاهرة أو الخفية قد تغير ، وحتى لا يحولوا بينه وبين ما يسمو إليه من الهرب بنفسه إلى جو تستطيع أن تنمو فيه نمواً حرا ليس فيه عسف ولا اكراه . وقد أتيح له ذلك آخر الأمر ؛ فهو يختم كتابه الرائع بما كان يدور فى رأسه من الخواطر حين كان القطار يمضى به نحو الشمال . ولم تكن هذه الخواطر تصور سخطاً ولا يأساً ولا جزعاً ، وإنما كانت تصور الرضا والأمل وحب الخير الذى يشمل السود والبيض جميعاً .

وقد لخصت لك هذا الكتاب تلخيصاً لا أقول إنه دقيق ، ولا أقول إنه مقارب ، ولكنه على ذلك يصور أمرين خطيرين ، أحدهما هذا الجهاد العنيف الذى جاهده ريتشارد رايت منذ صباه الأول ليقاوم هذه المؤثرات الهائلة التى أفسدت على ملايين السود فى أمريكا حياتهم واضطرتهم إلى ألوان من الذل والهوان ، أقل ما توصف به أنها لا تلائم كرامة الانسان ، وأنها تكذب هذا الغرور الذى يحمل كثيراً من أمم الغرب على أن تزهى بما أتيح لها من الرقى والتفوق والامتياز فى حياة العقل والشعور . فليس من الحضارة فى شئ وليس من رقى العقل والشعور فى شىء أن يستعلى فريق من الناس على فريق فيستذلوهم ويعنفون بهم أكثر مما يعنفون بالحيوان الأعجمى والآلة المسخرة ، لا لشىء إلا لأنهم بيض ولأن خصومهم سود .

وهذه المؤثرات قد انتهت بالسود فى أمريكا أو بكثرتهم الساحقة إلى نتائجها الطبيعية . طال عليهم الاستذلال فهم أذلاء ، وطال عليهم الاستعباد فهم يحيون حياة العبيد ، وهم من أجل ذلك يغرقون فى الرذائل التى تقتضيها حياة الذل والخسف ؛ فهم يكذبون ويسرقون ويقارفون آثاماً لا تحصى ولا تقدر . وهم يخافون ، ويدفعهم الخوف المنكر المتصل إلى ضروب من الجبن وهوان النفس ودناءة السيرة لا تكاد تخطر لأحد منا على بال . وهم يتخذون هذه

الحياة المنكرة نظاماً يرضونه ويطمئنون إليه ويتنافسون فيه . فاذا شذ منهم شاذ فامتنع على هذا النظام أو أظهر الامتناع عليه فهم ينكرونه ويقاومونه ، كما ينكره البيض ويقاومونه .

وقد استطاع ريتشارد رايت منذ صباه الأول أن يقاوم هذه المؤثرات ويثبت لهذه المقاومة على ما لقى فى هذا الثبات من خطوب آذت نفسه وجسمه جميعاً . فهو لم يعرف الأمن ولا الرضا ولا اطمئنان القلب فى يوم من أيام صباه ، كما أنه لم يعرف الشبع ولم يأمن غائلة الحر والبرد ولم يفلت من سخر الساخرين وعبث العابثين يوماً من أيام صباه أيضاً .

أما الأمر الثانى فهو هذه الغفلة التى يعيش فيها العالم المتحضر فى الشرق والغرب بالقياس إلى هذه الدولة الضخمة الفخمة الهائلة التى تريد الآن أن تسود العالم وتوشك أن تبلغ ما تريد . فالناس فى الشرق والغرب يرونها نموذج الحضارة ويتخذونها مثالا للرقى ، وهى مع ذلك ترى ملايين من الناس يسامون أشنع ما يسام الناس من ضروب الذل والخسف والعسف والهوان ، ثم لاتنكر ذلك ولاتغيره ، بل لا تحاول إنكار ذلك ولا تغييره محاولة مجدية . والأمريكيون البيض من أهل الولايات المتحدة قد هاجر آباؤهم من أوربا فراراً بحريتهم من العسف والخسف والهوان . فالاضطهاد فى الدين والرأى هو الذى دفع كثيراً من الأوربيين إلى أن يهجروا وطنهم القديم إلى العالم الجديد ليعيشوا فيه عيشة قوامها العزة والحرية والاحتفاظ بكرامة الانسان . فانظر إليهم كيف يحرزون هذه الخصال لأنفسهم ثم يضنون بها على غيرهم من الناس . وما أنكر وما ينكر أحد أن الأمريكيين قد ألغوا الرق الفردى وجاهدوا فى سبيل إلغائه ، وبلغوا من ذلك مع أوربا ما حاولوا . ولكن من المضحك حقا ، والشر يضحك فى كثير من الأحيان وأبغض الشر ما يضحك — من المضحك حقا أن يلغى بيع الانسان وشراؤه ثم يتاح لفريق من الناس أن يسوموا فريقاً آخر من الناس خطة ليست أقل شرا ولا نكراً من تعريضهم للبيع والشراء . فالأمريكى الأبيض لا يستطيع أن يشترى الأمريكى الأسود أو يبيعه ، ولكنه يستطيع أن يعرضه للجوع والبؤس والمرض ويفرض عليه حياة تضطره إلى اقتراف الجرائم المنكرة ، ويضربه متى شاء ، ويقتله إن شاء أيضاً . وأغرب من هذا كله أن فى الأمريكيين البيض من أهل الولايات المتحدة طموحاً إلى الخير وسموا إلى المثل العليا لا يتكلفون

ذلك ولا يتصنعونه ، وإنما تدفعهم إليه نفوسهم الساذجة ، فهم يدعون إلى الخير والبر والاحسان وإلى السلم والعافية وإلى التعاون والتضامن ، وهم لايترددون فى أن يجاهدوا فى سبيل ذلك بنفوسهم وأموالهم ، ولكنهم بعد هذا كله ينامون ملء جفونهم ولا يؤرق نومهم الهانىء الهادىء علمهم بأن بضعة عشر مليوناً من السود الذين يشاركونهم فى الانسانية والوطن والدين يسامون بينهم سوء العذاب . والأمريكيون البيض هم الذين أذاعوا فى الناس أسطورة الحريات الأربع ، ولكنهم لم يستطعوا أو لم يريدوا إلى الآن أن يكفلوا بعض هذه الحريات الأربع لهؤلاء الملايين الذين يشاركونهم فى الانسانية والوطن واللغة والدين . وإنه لمن المضحك حقا أن يحاول الأمريكيون تأمين الناس فى الشرق والغرب من العوز والخوف والظلم والعدوان ، ثم لا يحاولون تأمين هؤلاء الملايين الذين يقيمون بينهم من هذه الآفات التى يصبونها عليهم صبًّا حين يسفر النهار وحين يظلم الليل .

وخصلة أخرى ليست أقل روعة مما قدمنا يصورها هذا الكتاب أبرع تصوير وأروعه ، وهى طموح هذا الصبى ، وقدرته على أن يحتفظ بهذا الطموح ، وقدرته على أن يزيد هذا الطموح ، وقدرته على أن يبلغ ما كان يطمح إليه من التفوق والامتياز ، لا بالقياس الى أمثاله السود وحدهم بل بالقياس إلى هؤلاء البيض الذين حاولوا استرقاقه فلم يستطيعوا . على أن ما أتيح لريتشارد رايت من قهر ما قهر من المصاعب وتذليل ما ذلل من العقاب والتخلص من هذه الجرائم والآثام التى كانت تدعوه دعاء ملحا ، لم يتح ولايمكن أن يتاح لكثير من السود ولا لكثير من البيض إن أحاطت بهم ظروف كالتى تحيط بملايين السود الأمريكيين . ومن هنا تظهر الصلة القوية الرائعة بين الكتابين اللذين أحللهما فى هذا الحديث . وأكاد أثق بأن الكتاب الذى فرغت من تحليله يشبه أن يكون مدخلا أو مقدمة للكتاب الآخر الذى أريد أن آخذ فى تحليله .

فالكتاب الأول يصور لنا غلاماً قهر ظروف الحياة التى تحيط بالسود فى أمريكا . والكتاب الثانى يصور لنا غلاماً قهرته هذه الظروف . فهى واحدة بالقياس إلى الغلامين ، ولكن أحدهما وهو ريتشارد رايت قد تداركته رحمة الله فأتاحت له النبوغ الذى استنقذه من الشر استنقاذاً ، على حين أن الغلام

الآخر وهو بيجر توماس لم تدركه رحمة الله ، وإنما خلت بينه وبين طبيعة الحياة المنكرة التى فرضت على السود الأمريكيين فالتهمه الشر التهاماً .
ولست أدرى أخطرت هذه الصلة لريتشارد رايت حين كتب هذين الكتابين أم لا ، ولكنى أعلم بعد التجربة أن هذه الصلة موجودة محققة ليس فى وجودها شك . فقد رأيت من قرأ الكتاب الثانى فضاق به ونبا عنه وكاد يلحقه بالقصص البوليسية ، فلما قرأ الكتاب الأول فهم الكتاب الثانى على وجهه ورده إلى مكانته الممتازة من الأدب الأمريكى الرفيع . ذلك أن حياة بيجر توماس توشك أن تكون هى الحياة التى صورها ريتشارد رايت لنفسه فى كتاب « الغلام الأسود » . فبيجر توماس فتى قد قارب العشرين من عمره ، وهو يعيش أمه السوداء البلهاء أو التى توشك أن تكون بلهاء ومع أخ له أصغر منه سنا وأخت تختلف إلى مدرسة تتعلم فيها الخياطة ، والأربعة يعيشون فى غرفة حقيرة متهالكة تروعهم فيها الجرذان ترويعاً شديداً ، وهم يعيشون فى هذه الغرفة الحقيرة مختلطين أشنع اختلاط وأبشعه ، حتى إن بعضهم ليضطر إلى أن يدير وجهه إلى الحائط أو إلى النافذة ليستطيع بعضهم الآخر أن يلبس ثيابه .
وهم يعيشون من الاحسان الذى يصيبهم من جماعة من هذه الجماعات التى توزع الخير على البائسين . وهذا الفتى قد نشأ فيما يظهر نشأة مختلطة مفرقة تشبه نشأة ريتشارد رايت ، ولكنه لم يقاوم ظروف السود التى أحاطت به ولم يقهرها ، وإنما عرفها وأحس شرها وضاق بها وخضع لها مع ذلك مع انكاره لها ؛ فهو يسرق ويكذب ويعتدى ، ويرى أن هذا كله شر ، ولكنه يرى أن هذا الشر لابد منه لأنه مظلوم ؛ فهو يسرق الظالمين ويخادعهم ويمكر بهم ويعتدى عليهم ، لايرى بذلك بأساً بشرط أن يفلت من العقاب . وهو من أجل ذلك بارع فى الحيلة ماهر فى الكيد حتى يبلغ مايريد . وهو قد جمع إلى هذه الخصال المنكرة خصالا أخرى ليست أقل منها نكراً ؛ فهو متبطل متعطل محب للكسل مغرق فى الأثرة عنيف بأمه وأخته أبغض العنف وأقبحه .
ونحن نراه فى أول القصة متردداً ، قد عرض عليه عمل يتيح له أن يكسب رزقه ورزق أسرته ، فهو لا يدرى أيقبل هذا العمل فيصبح سائقاً لرجل من أغنياء البيض أم يرفض هذا العمل فينقطع رزقه ورزق أسرته وتكف الجماعة الخيرة عن معونته بما ترزقه فى كل أسبوع . وهو فى أثناء هذا التردد ينازع

نفسه وينازع جماعة من رفاقه إلى اقتراف جريمة من هذه الجرائم التي تعودوا أن يقترفوها ، جريمة السطو على رجل من التجار المتوسطين حين يخلو الشارع من المارة وينفرد هذا الرجل فى متجره إذا كانت الساعة الثالثة بعد الظهر . وهؤلاء الفتية قد دبروا جريمتهم واستعدوا لها وكادوا يقدمون عليها ، ولكنهم مشفقون من أن يؤخذوا ، فنفوسهم تقدم لتحجم ثم تحجم لتقدم ، ثم يكون بينهم شيء من الاختلاف فلا تقترف الجريمة وينظر الفتى فاذا النهار قد تقدم ، وإذا المساء قد أقبل ، وإذا الموعد قد أزف للقاء هذا الفتى الأبيض الذى يريد أن يتخذه لسيارته سائقاً . وهو يسعى إلى دار هذا الفتى ، ولا يكاد الباب يفتح له وتلقاه الخادم وتقدمه إلى سيدها حتى تثور فى قلبه عواطف مختلفة أشد الاختلاف ؛ فهو مبغض أشد البغض لهذا الغنى الأبيض ، محتاج أشد الحاجة للعمل عنده . لو أطاع نفسه لهجم على هذا الرجل فاستلبه الحياة استلاباً ، ولكنه لا يطيع نفسه وإنما يطيع حاجته إلى العمل وفقره إلى ما يقيم أوده وأود هؤلاء الثلاثة الذين خلفهم وراءه والذين لا يجدون ماينفقون . وهو يسعى خلف هذا الرجل الذى يقوده إلى مكتبه ، ولكنه يلقى فى طريقه صورة تروعه وتقع من نفسه موقعاً غريباً : إمرأة جميلة عمياء قد لبست البياض وهى تسعى متحسسة من طريقها تصاحب الجدار حتى لا تضع رجلها فى غير موضعها . ويراها صاحب الدار فيرفق بها أشد الرفق ، فهى إذن زوجه وهى سيدة الدار .

ويبلغ الفتى مكتب هذ االرجل الغنى ويأخذ مجلسه ويسمع لسيده الجديد ، فاذا هو يتحدث إليه حديثاً رقيقاً عذباً فيه كثير من العطف ، وإذا هو يعده وعوداً مغرية فسيدفع إليه أجراً حسناً ، وسيكون عمله هيناً يسيراً ، وسينزله من داره منزلا وثيراً ، وسيعينه على أن يتم تعليمه فى مدرسة من مدارس المساء . وهو يسمع هذا كله راضياً به ساخطاً عليه فى وقت واحد : راضياً به لأنه محتاج إليه ، ساخطاً عليه لأنه يأتيه من غنى أبيض . وإنهما لفى ذلك إذ تدخل فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها رشيقة أنيقة عذبة الروح خفيفة الظل حلوة الحديث ، ولا تكاد ترى الفتى حتى تتحدث إليه فى دعابة وتسأله أمتصل هو باحدى النقابات ؟ وقد فهمنا أن هذه الفتاة الخفيفة الذكية الخرقاء مفتونة بحرية السود وبحرية الطبقة العاملة وبالمذهب الشيوعى بوجه عام . وقد انصرفت الفتاة بعد أن ضربت موعداً لهذا الغلام على أن يؤديها فى السيارة إلى الجامعة

حين يقبل الليل . وانصرف الفتى إلى المطبخ ، فلقيته الخادم فأطعمته وسقته وبينت له من أمر سادته أنهم قوم كرام أخيار لا يبطرهم الثراء الضخم ، ثم دلته على غرفته فاذا غرفة مترفة حقا . ولكن صورة الفتاة الحسناء قد ارتسمت فى نفسه وأحاطت بها هالة من البغض المنكر . وهو على كل حال قد أخرج السيارة وانتظر الفتاة حتى أقبلت . ولم يكد يخرج بها من الدار حتى وجهته وجهة غير وجهة الجامعة ، ثم أفضت إليه فى رشاقة وظرف بشئ من سرها وطلبت إليه أن يكتم عليها أمرها ؛ فهى لا تذهب إلى الجامعة وإنما تذهب للقاء صديق . وقد وقفت السيارة أمام دار ضخمة ، ونزلت الفتاة فغابت لحظة ثم عادت ومعها فتى قدمته إلى الغلام فصافحه الفتى ، وأنكر الغلام الأسود هذه المصافحة من فتى أبيض وسيم ، ثم لم يلبث أن أنكر منهما كل شئ ، فهما يتحدثان إليه حديثاً قد برئ من الكلفة . وما يمنعهما من ذلك وهما شيوعيان لا يريان الفرق بين الألوان ولا يريان الفرق بين الطبقات ؟ وهما يريدان أن يتخذا من هذا الغلام الأسود رفيقاً لهما لا يعنيهما أن يكون أسود ولا أن يكون سائقاً لسيارة ، بل هما يألفانه من أجل هاتين الخصلتين . وهما يلحان عليه فى أن يؤديهما إلى مطعم من مطاعم السود ، وأن يختار لهما من هذه المطاعم مطعما أنيقاً . والفتى يطيع ، ثم يدعوانه إلى أن يشاركهما فى عشائهما ، فيأبى فيلحان فيجيب كارهاً . وقد جلس ثلاثتهم إلى المائدة فطعموا وشربوا وتحدثوا . والغلام الأسود منكر لهذا كله ، مستحى من هذا كله ، يكره أن يراه نظراؤه السود يؤاكل قوماً من الأغنياء البيض . ثم ينصرفون عن المطعم فيمضون للنزهة ويسرف الفتيان على أنفسهما وعلى الغلام الأسود فى الشراب فيشربان ويسقيانه حتى يأخذ السكر منهم جميعاً . وقد تقدم الليل حتى كاد يبلغ ثلثيه ، وانصرف الفتى الأبيض قريباً من دار الفتاة بعد أن ودع صاحبته وساقاها شيئاً من الخمر على أنها شربة الوداع . وقد تواعد الفتيان على أن يلتقيا بعد ثلاثة أيام ؛ لأن الفتاة ستسافر من غد فى أول النهار . ويلغ الغلام الأسود بالفتاة دارها ووقفت السيارة ، ولكن الفتاة لا تستطيع حراكاً قد أخذ السكر منها مأخذاً عظيما . يعينها الغلام الأسود على أن تخرج من السيارة ، ولكنها لا تستطيع أن ترقى السلم ، فيعينها على ذلك ، ولكنها لا تستطيع أن تدخل الدار لأنها لا تستطيع أن تستقل على قدميها ، فيحملها الغلام الأسود بين ذراعيه

ويبلغ بها غرفتها بعد جهد شديد وقد وضعها على سريرها ، ولكنه ليس أقل منها سكراً ، وقد رأى بينها وبين صاحبها الأبيض ما أثار فى نفسه شيئاً من الاغراء . وهو متردد يهم وما يكاد يفعل ، والفتاة لا تعقل ولا تقاوم . ولكن باب الغرفة يفتح فى رفق وتدخل منه هذه الصورة البيضاء الشاحبة التى تتقدم متحسسة من طريقها ، وقد امتلأ قلب الغلام الأسود خوفاً وفرقاً يشفق أن تنطق الفتاة فتنبئ بمكانه فتكون الكارثة . وأى كارثة أعظم من أن يؤخذ غلام أسود مع فتاة بيضاء فى غرفة نومها ! وهنا يفقد الفتى صوابه وتستأثر به الغريزة غريزة الدفاع عن النفس ، فيأخذ وسادة ويضعها على فم الفتاة حتى لا تنطق ، وهو يضغط على الوسادة والفتاة تضغط بأظافرها على يده ، والأم تدعو ابنتها ، والغلام الأسود يلح فى الضغط ، والأظافر تتراخى شيئاً فشيئاً ، ثم تنحى الوسادة وينتقل الفتى من مكانه فى رفق ، والأم تدعو ابنتها وقد ألصق الغلام الأسود جسمه بالجدار والأم تسعى متحسسة من طريقها حتى تبلغ السرير فتمس ابنتها وتنحنى عليها ، ثم تنصرف محزونة ترى أن ابنتها نائمة ، ولكنها تشم رائحة الخمر فيحزنها أن ابنتها قد أمعنت فى السكر . وهى ترجع متحسسة من طريقها حتى تخرج وتغلق الباب من ورائها . ويدنو الفتى من السرير فلا يروعه إلا أن يرى أنه يخلو فى هذه الغرفة إلى الموت .

فهؤلاء ثلاثة قد خلا بعضهم إلى بعض : غلام أسود ، وليل حالك ، وموت لا لون له . وقد أخذ عقل الفتى يثوب إليه شيئاً فشيئاً ويثوب معه الجزع والهلع وتثوب معهما الغريزة التى تريد أن تدافع عن نفسها وتفتح للعقل أبواباً مختلفة من الحيل . فما عسى أن يصنع الفتى بهذه الفتاة الميتة ؟ أيتركها ويمضى لوجهه ويلتمس الهرب ؟ ولكن هربه سيثبت عليه الاثم ولن تلبث الشرطة أن تتعقبه وتأخذه . أيتركها ويذهب إلى غرفته لينفق بقية الليل ؟ ولكن أهلها سيجدونها ميتة إذا أصبحوا وسيبحثون ويستقصون وسيكون هو أول من يوجه إليه السؤال . فكيف يجيب ؟ وما عسى أن يقول ؟ وهنا يذكر الفتى أنه سمع الفتاة تتحدث بسفرها مع الصبى ، وتتقدم إليه فى أن يقوم مبكراً لينزل حقيبتها وليحملها هى إلى القطار . فما هى إلا أن تخطر له هذه الخاطرة حتى تتفتح له أبواب من الحيل يرى بعضها واضحاً جليا ويتراءى له بعضها الآخر فى شئ من الغموض والخفاء . وينظر فاذا الحقيبة بين يديه قد

أعدت لتضع الفتاة فيها ما تحتاج إليه من ثياب ومتاع . وما هى إلا أن يعمد إلى جثة الفتاة فيضعها فى الحقيبة ، ويحمل الحقيبة متكلفاً حملها ويسعى متلمساً طريقه مترفقاً فى سعيه حتى يبلغ أدنى الدار ، هناك حيث يقوم الموقد الضخم الذى لاتخمد ناره ليلا ولا نهاراً والذى علمته الخادم كيف يغذيه بالفحم حتى لا تخمد ناره ولا تضعف وكيف يزيل منه الرماد إذا كثر فيه الرماد . وما هى إلا أن يفتح باب الموقد ويدفع فيه بجثة الفتاة ، ولكن الموقد لايشتمل على الجسم كله فما زال الرأس خارجاً منه لا سبيل إلى رده إليه . وينظر الفتى فاذا فأس من هذه الفؤوس التى يقطع بها الخشب ،فما هى إلا أن يأخذها ويهوى بها إلى الرأس فيبينه من سائر الجسد ، ثم يضعه فى المكان الملائم له من الموقد ثم يغلق باب الموقد وقد أسلم الجثة إلى نار لاتبقى ولا تذر ، ثم يرد أحد شطرى الحقيبة إلى شطرها الآخر ، ثم ينصرف وقد أحكم رأيه إحكاماً . لقد أمرته الفتاة أن ينزل الحقيبة إلى أسفل الدار وأن يغدو مبكراً ليحملها إلى المحطة فلا عليه من أن ينفذ ما صدر إليه من أمر ، فاذا سئل عن الفتاة أجاب بأنه لا يعرف من أمرها أكثر من أنه عاد بها وبصاحبها إلى الدار وصعد معهما ومع صاحبها إلى الغرفة فحمل الحقيبة وأنزلها وأمر أن يترك السيارة أمام السلم لا يردها إلى مكانها . وقد أقبل مع الصبح فلقى الخادم وحمل الحقيبة ، وسئل فأجاب . ولم تنكر الخادم من جوابه شيئاً . فالفتاة نزقة طائشة كثيرة العبث والمجون وكل شئ منها ممكن . ويتقدم النهار حتى يوشك أن يبلغ آخره ، وإذا صاحبة الدار تسأله فيجيبها بمثل ما أجاب به الخادم ، ويسأله صاحب الدار فيعيد عليه نفس الجواب . فاذا كان الغد تلقت الدار دعاء من المحطة إلى أخذ الحقيبة التى تركت فى مستودع الودائع ، فعرفت الأسرة أن الفتاة لم تسافر ، وجعلت الظنون تذهب بها كل مذهب . وقد تبينت الأسرة أن الفتاة تركت كثيراً من الثياب التى كانت تريد أن تحملها فى سفرها . ومهما يكن من شئ فقد استأثر الخوف بالأبوين جميعاً . ودعى السائق فتشدد فى سؤاله الأب وتشدد معه بعض المتجسسين الذين يعملون له فى شركاته الضخمة . وكان هذا المتجسس يريد أن يتهم الفتى ، ولكن الأب يدافع عنه ، ويرى أنه فتى مستقيم . وإذن فلتلصق التهمة بهذا الشيوعى الشاب الذى أنفق مع الفتاة ليلته تلك . وقد أخذ هذا الشيوعى

فألقى فى السجن . واستقامت للغلام الأسود أموره حتى طمع فى أكثر مما بلغ .
ويجب أن نلاحظ أن هذا الغلام لم يكد يدفع الخوف عن نفسه ويزيل أثر الجريمة حتى رضى عن كل ما فعل ، وأحس أن الجريمة قد كشفت له عن شخصيته وردت إليه حريته وأتاحت له وجوداً لم يعرفه من قبل ؛ فهو قد قتل فتاة بيضاء وحرق جسمها فى النار ، وروع بها أبويها ، ودفع فتى أبيض بريئاً إلى السجن ، وأخذ ما كانت الفتاة تحمل فى حقيبة يدها من مال ، وهو مع هذا كله مطمئن يذهب ويجئ ويأكل ويشرب وينام . هو إذن حر ، وهو إذن سيد نفسه ، وهو إذن موجود على نحو ما يقول أصحاب الفلسفة الوجودية ، وهو إذن محتمل تبعة كل ما أتى وكل ما يأتى من الأعمال . قد كان شخصيته مغمورة ، وكانت قوته وحيلته ومهارته مغمورة مع هذه الشخصية . فالآن وقد كشفت له الجريمة عن نفسه وعن قدرته وعن حيلته فهو يستطيع أن يصنع أكثر مما صنع وأن يقدم على أكثر مما أقدم عليه . وما يمنعه أن يزوّر كتاباً إلى الأسرة ينبئها فيه بأن الفتاة مخطوفة أسيرة عند خاطفيها ، وبأن من الممكن أن ترد إلى أهلها إذا وضعوا مقداراً من المال فى مكان ما ؟ وما يمنعه إذا وضع هذا المقدار من المال فى المكان الذى اختاره أن يأخذه وينفى به نفسه من الأرض إلى حيث يعيش آمناً حرا مستمتعاً بشخصيته وقوته وذكائه وحيلته ؟ ولكنه فى حاجة إلى شريك يعينه على إتمام هذا الكيد ، وهذا الشريك قريب منه وهو خليلته السوداء التى شاركته فى بعض الجرائم ، والتى وصلت أسبابها بأسبابه فى الخير والشر جميعاً . فهو يسعى إلى هذه الفتاة السوداء ويأخذها بما تعود أن يأخذها به من الحب والعبث والسكر ثم يظهرها على بعض الأمر لا على الأمر كله ، ثم ينبئها بما دبر من حيلة ليحتاز عشرة آلاف من الدولارات . والفتاة تأبى وتلح فى الاباء ، وتخوفه العاقبة . ولكنه يرغبها ويرهبها ويلهيها ويسقيها حتى تظهر له الطاعة ، وإذا هو يكتب الكتاب ويحمله إلى الدار ويلقيه من وراء الباب ، ويسرع إلى غرفته ينتظر فيها الأحداث . وما هى إلا ساعات حتى يرى نفسه فى أدنى الدار أمام الموقد ، وقد أقبلت جماعات الصحفيين الذين يريدون أن يعرفوا تفصيل ما ذاع من أنباء هذه الفتاة . وهم يسألون ويلحون فى السؤال ، والفتى الأسود قائم أمامهم كأنه لا يعرف من الأمر أكثر من أنه رد الفتاة وصاحبها الأبيض إلى الدار حين تقدم الليل ،

وهما ثملان ، والقوم مقتنعون بأن هذه الجريمة الغامضة أثر من آثار الشيوعيين . ولكن صاحب الدار يقبل فينبئ هؤلاء الصحفيين بأنه تلقى كتاباً يحدثه بأن ابنته أسيرة ، وبأن عليه أن يفتديها بالمال ، ثم ينبئهم بأنه سيدفع هذه الفدية . ثم يتقدم إليهم فى أن يحتاطوا فيما ينشرون فى صحفهم حتى لا يفسدوا عليه الأمر ، فهو لا يريد إلا أن يجد ابنته .

وفى أثناء ذلك تقدم الخادم وقد حملت أقداح القهوة إلى الصحفيين وتطلب إلى السائق أن ينظف الموقد ، فقد تراكم فيه الرماد حتى كادت النار أن تخمد ، وكان الغلام الأسود سعيداً لما سمع من حديث صاحب الدار ، فسيوضع المال فى المكان المختار إذن ، وستأخذه خليلته السوداء ، وسيلقاها بعد ذلك ويفر معها من هذه الأرض ليس بينه وبين الثراء والحرية إلا ساعة أو بعض ساعة . ولكن هذا الأمر الذى صدر إليه بتنظيف الموقد يملأ قلبه روعاً . فما عسى أن يكون فى الموقد ؟ وكيف السبيل إلى تنظيفه بمشهد من هذه الجماعة من الصحفيين ؛ وهو يتردد ثم يتثاقل ، ولكن النار قد أخذت تخمد وأخذ الدخان يتكاثف ، ويفسد على الصحفيين قهوتهم ، فيتقدم الفتى ويفتح الموقد ويهم ، ولكن يده لا تطيعه ، وإذا هو واجم لا يصنع أو لا يكاد يصنع شيئاً . فينهض أحد الصحفيين ويأخذ المسحاة من يده ، ويحرك هذا الرماد ثم يحدق فيه ، ثم يدعو زملاءه ثم يأخذون جميعاً فى التحديق ، والغلام الأسود يسمع وكأنه لا يسمع ويرى وكأنه لا يرى ، ويرجع أدراجه فى رفق كأنما يخلى بين الصحفيين وبين الموقد ، ثم ينسل من الدار ولم يشعر به أحد وقد انهارت آماله كلها انهياراً ، وعاد الخوف إليه كهيئته حين قتل الفتاة وأسلم جثتها إلى النار . فقد استكشف الصحفيون فى رماد الموقد عظام ، واستكشفوا الفأس التى أبين به الرأس ، واستكشفوا بعض الحلى الذى كانت الفتاة تحمله . لم يبق للغلام الأسود إلا الهرب . ولكن كيف السبيل إلى الهرب ومن ورائه شريكته تلك التى ستؤخذ وتسأل وترهق حتى تشهد عليه . فليتخفف من هذه الشريكة وقد فعل ، فسعى إليها وأنبأها بأمره كله ، واقتادها من بيتها تحت الليل إلى دار من هذه الدور الخالية التى تنتظر المستأجرين ، وفى هذه الدار خوفها وألهاها وسقاها حتى نامت ، ثم عمد إلى لبنة فما زال يضرب بها رأسها حتى شدخه واستيقن أن الفتاة قد ماتت ، فألقاها من النافذة وسقط جسمها فى فناء الدار .

ووجد مع ذلك وسيلة إلى أن يخرج ويشترى صحيفة ويعلم منها أن الشرطة تبحث عنه وتدل عليه بصورته ، وتحاصر أحياء السود ، وتلقى بكثير منهم فى السجون ، وأن الطرق المؤدية إلى المدينة قد أخذت على الخارجين منها والداخلين فيها ، فلن يستطيع من المدينة خروجاً . وهو إذن يحاول أن يستخفى دون أن يخرج من المدينة ودون أن يترك هذه الدور الخالية . ولكن هذه الدور تفتش داراً بعد دار ، وقد دخلت الشرطة الدار التى يختبئ فيها ، فيصعد إلى السطح ، وما تزال الشرطة به تطارده من مكان إلى مكان وهو يطاولها ويراوغها ثم يواجهها بالمسدس ، ولكنه يؤخذ آخر الأمر بعد خطوب عرضها الكاتب أبرع عرض وأروعه . وهو على كل حال قد أخذ . والغريب أنه مشفق من الموت، ولكنه لا يحس ندماً على شئ مما قدمت يداه .

وقد ظهرت براءة الفتى الشيوعى الذى تجنى عليه هذا الغلام الأسود ، فردت إليه حريته ، وأقبل ذات يوم مع محام شيوعى على هذا الغلام فى سجنه ينبئه بأن صديقه المحامى قد تطوع بالدفاع عنه ، وبالدفاع عنه مخلصاً مؤمناً بأنه يدافع عن الحق الذى لا شك فيه .

والمدينة كلها ثائرة تريد رأس هذا المجرم . وليست الثورة مقصورة على البيض الذين وقع الاعتداء على فتاة من فتياتهم ، وإنما السود يشاركون أيضاً فى هذه الثورة ؛ لأن المجرم قد عرضهم لسخط البيض وانتقامهم وأذاهم المتصل ؛ فهم يريدون رأس هذا الفتى الذى أيقظ الشر وقد كان نائماً ، وجر عليهم عذاباً كان قد كف عنهم منذ حين .

وما أريد أن ألخص خير ما فى هذا الكتاب ، وهو تصوير حياة هذا الغلام الأسود فى سجنه ، وموقفه أمام قاضى التحقيق ثم أمام القضاة ، ولا أن ألخص موقف النيابة منه ، ومن القضاء ، ومن المحامى الذى تكلف الدفاع عنه ، ولا أن ألخص موقف الجماعات التى كانت تزدحم حول السجن لتقتل الفتى حين يخرج منه ، أو حول المحكمة لتقتل الفتى حين يصل إليها ، حتى كانت الشرطة تجد فى حمايته من هذه الجماعة أعظم المشقة وأثقل الجهد .

وإنما أكتفى بتلخيص النظرية التى اعتمد عليها المحامى فى الدفاع عن هذا المجرم ؛ فهو لم ينكر الجريمة ، ولم ينكر استحقاق المجرم للموت ، ولكنه طلب إلى القضاة أن يتعمقوا الظروف التى حملت هذا الغلام على اقتراف جريمته أو

جريمته . فهذه الظروف ليست جديدة ولا طارئة ، و إنما هى قديمة وهى متصلة أدق الاتصال وأوثقه بهذه الصلة القائمة بين حياة السود والبيض : قوم يستعلون ويستكبرون ويعسفون ويخسفون ، وقوم آخرون يخضعون لهذا الاستعلاء والاستكبار ، ويذوقون ألوان الذل والهوان ، ويحاولون أن يخرجوا من ذلك إلى شىء من الأمن والدعة ، فيرى البيض فى محاولتهم هذه جموحا وعدواناً و يردونهم إلى حياتهم البغيضة أعنف الرد وأثقله . لقد حاول هذا الفتى أن يخرج من طوره هذا المنكر ، فلم يجد إلى ذلك سبيلا : طمع فى أن يعمل فى الأسطول فعلم أنه لن يعمل فيه إلا خادماً ،وطمع فى أن يعمل فى الجيش فعلم أنه لن يعمل فيه إلا خادماً ، وفكر فى أن يعمل فى السلاح الجوى فعلم أن لا أمل للسود فى هذا السلاح ، وهمّ بأعمال أخرى فرد عنها فى عنف كما رد عن هذه الأعمال ؛ فاضطر إلى حياته تلك الفارغة إلا من الموجدة والحقد وانتهاز الفرصة لاقتراف الاثم .

هو وأمثاله من السود خائفون من البيض يتربصون بهم الدوائر وينتظرون بهم المكروه . والبيض خائفون منهم يمسكونهم فى حياتهم هذه المنكرة ويسرفون عليهم فى الإذلال ، و يرون الشر كل الشر والنكر كل النكر فى كل ما يصدر عنهم من عمل . وما دام الخوف هو أساس الحياة وقوام الصلات بين السود والبيض فلن يمتنع ارتكاب الجرائم ولا اقتراف الآثام . وموت هذا الفتى إن قضى عليه بالموت لن يمنع من أن ينشأ فتيان آخرون أمثاله يملأون قلوب البيض روعاً وجزعاً ، وينتهزون الفرص ليقتلوا ويسرقوا ويملأوا الأرض شرًّا . فاذا لم يكن بد من عقاب هذا الفتى ، فليمسك فى السجن إلى أن يموت ، مع أن عقابه لن يغير من الأمر شيئاً ، و إنما الذى يغير الأمر هو أن تصلح الحياة الأمريكية وتقام الصلات بين الأمريكيين ، مهما تختلف ألوانهم ، على نظام من العدل والمساواة .

وواضح أن القضاة قد سمعوا لهذا الكلام ، وقضوا على الفتى بالموت . وواضح كذلك أن المحامى قد التمس تخفيف العقوبة من الحاكم فلم يظفر بشىء . ولكن أوضح من هذا وذاك أن الكاتب قد استطاع بصدق لهجته من جهة ، وببراعته الفنية من جهة أخرى ، وبدقة تصويره للحقائق من جهة ثالثة ، أن يملأ نفس القارىء بغضاً لهذا المجرم فى الشطر الأول من كتابه ورحمة له ولأمثاله فى الشطر الأخير من كتابه ، وأن ينقلك فى رفق رفيق من منزلة البغض التى ليس بعدها بغض إلى منزلة الرثاء الذى ليس بعده رثاء .

وأنت بعد هذا كله تقرأ هذين الكتابين، فما أسرع ما تنغمس مع الكاتب في الحياة الأمريكية حتى كأنك تحياها مع أصحابها لا أنك تقرأ أنباءها وصورها في كتاب!

أتظنني أسرف حين أثني على هذين الكتابين، وحين أتمنى على الذين يحسنون الانجليزية، أن يتيحوا قراءتهما للذين لا يحسنون هذه اللغة من الشرقيين؟

طه حسين

فيك سور سير، ٣ سبتمبر ١٩٤٧

فى أفق السياسة العالمية

أسبانيا بعد الحرب

من الظواهر السياسية التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، أن الدول التى لزمت الحيدة فى أثناء الحرب ، قد باءت بعد انتهائها بغضب ومقت شديد من لدن الدول المنتصرة ، حتى إنها إلى الآن لتلقى من المضايقات الدولية والاقتصادية كثيراً مما تعانيه الشعوب المغلوبة نفسها . وإن فى استبعاد السويد وسويسرا وأرلندة وأسبانيا من حظيرة الدول التى اجتمعت فى سان فرنسسكو عام ١٩٤٥ لوضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة لدليلا على الوصمة التى لحقت الدول المحايدة بعد الحرب . وليس غريباً أن يكون هذا نصيب البلاد المحايدة بعد أن أصبحت الحرب ظاهرة عالمية لا يكاد شررها يندلع بين دولتين حتى تعم نارها ويستعر أوارها ، فاذا الجو والماء واليابسة جميعاً ميدان للحرب ، وإذا الحدود بين الدول خطوط وهمية ، والمعاهدات والاتفاقات الدولية قصاصات من الورق بالية . فلا عجب إذن أن تصبح الشعوب فى زمن الحرب ولا عاصم لها من إغارة المغيرين أو غزو الفاتحين سواء أحاربت فى الميدان أم لم تحارب . وما دامت الكشوف العلمية الحديثة قد حولت الحرب من حادث محلى أو قارىٍّ إلى ظاهرة كونية قد يتجاوز تأثيرها بفضل الطاقة الذرية كوكب الأرض نفسه ، فما جدوى الحيدة وما قيمتها .

ولم تصب دولة محايدة على أيدى الحلفاء بعد الحرب بمثل ما أصيبت به أسبانيا . فالحلفاء يعتبرون أن نظام الحكم القائم فيها وليد تدخل قوات المحور ، وأنه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا ما استطاع فرنكو أن يخضع الشعب الأسبانى لحكمه . ويؤكدون أن الحيدة التى لزمتها أسبانيا فى الحرب العالمية الثانية لم تكن إلا حيدة موالية للمحور بدليل الفرق الزرقاء التى قدمتها أسبانيا لمحاربة الشيوعية إلى جانب الألمان ، وبدليل ما كانت تلقاه الغواصات والطائرات الألمانية التى كانت تلوذ بالخلجان والموانى الأسبانية من عون وتستر من جانب

السلطات الأسبانية . ولا تزال حكومات الحلفاء تنشر بين آونة وأخرى مستندات مختلفة المصادر تدور كلها حول ما كان سائداً بين فرنكو وهتلر من تفاهم أدى إلى عقد اتفاق بينهما ، فحواه أن ينضم فرنكو إلى جانب المحور فيسمح للقوات الألمانية باختراق أسبانيا إلى شمال إفريقية ، وفى مقابل ذلك تستولى أسبانيا على جبل طارق من بريطانيا ومراكش من فرنسا . ولم يحل دون تنفيذ هذا الاتفاق سوى أن هتلر قد شغل بالميدان الروسى فألهاه ذلك عن متابعة التفكير فى غزو شمال إفريقية . ولو قدر للاتفاق أن ينفذ فى بداية الحرب لتعذر على أمريكا والحلفاء تسيير حملتهم الكبرى على سواحل بلاد المغرب .

لذلك كله لم يدع الحلفاء فرصة تمر دون أن يعلنوا مقتهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة فى أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج من ذلك أن بقيت أسبانيا بمعزل عن الأمم المتحدة ، وفقدت ما كان لها من مزايا فى ميناء طنجة ، وكاد الروس ينجحون فى ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمى الحرب .

أما فرنكو فيقول فى الدفاع عن خطته إنه بالتزامه الحيدة قد أسدى خدمة جلى للحلفاء ، وإنه قد تمسك إلى النهاية بحيدته رغم إلحاح المحور وضغطه . وإنه إذا كان الألمان قد أفادوا من حيدة أسبانيا فان الأحرار الفرنسيين قد وجدوا من أسبانيا فى أثناء الاحتلال الألمانى ملجأ وملاذاً لهم . ويكفى دليلا على حسن طوية الحكومة الأسبانية أنها لم تحرك ساكناً عند ما نزلت حملة إفريقية الشمالية على سواحل الأطلنطى والبحر المتوسط على مرأى من السلطات الاسبانية وقريباً من قواعدها .

على أن أمضى سلاح يذود به فرنكو عن نفسه وعن نظامه أمام العالم أنه بانتصاره على الجمهوريين فى أسبانيا قد صان غرب أوربا من طغيان العناصر الشيوعية قبيل الحرب وبعدها ، وأن أسبانيا بفضل نظامها قد أصبحت الحصن والدرع الوحيد فى أوربا الذى قاوم النفوذ الشيوعى . فبينما نرى بلدان وسط أوربا وشرقيها بل فى أجزاء من غربيها أيضاً قد اصطبغت كلها أو معظمها باللون الشيوعى إذا بأسبانيا تقف وحدها ثابتة فى موقفها بمعزل عن الشرق والغرب جميعاً ، وهى إلى ذلك مزهوة باستقلالها راضية عن جهودها فى سبيل درء الخطر الأجنبى عنها .

وأما الشعب الأسبانى نفسه فله رأيه الخاص فيما وصلت إليه حاله . ومن

العسير أن يتبين الباحث رأى الشعب فى أسبانيا أو أن يتفق هذا الشعب على رأى واحد . ذلك لأن فى أسبانيا ثلاث مناطق متباينة لكل منها لغتها وتقاليدها واقتصادياتها الخاصة . ففى الشمال الشرقى منطقة كتالونيا الغنية بتجارتها ومنتجاتها ، وقاعدتها برشلونة أهم موانىء أسبانيا . وفى الشمال منطقة الباسك الشهيرة بمعادنها ومصانعها ، وأهم مراكزها بلباو . وفى هاتين المنطقتين تكثر الحركات العمالية ، والرأى العام فيها ينتمى إلى الأحرار غالباً ، وكانت كتالونيا فى أثناء الثورة الأهلية أقوى حصون الجمهوريين . ثم منطقة السهول الزراعية والمراعى ، وفيها العاصمة مدريد . وكثرة السكان فى هذه المنطقة من المحافظين الذين يقدسون الكنيسة الكاثوليكية ولا يزالون يحسنون الظن بالملكية . وقد ساعد على اختلاف الرأى بين سكان هذه المناطق أن الدستور الأخير الذى أصدرته حكومة الجمهورية قد خول لمنطقتى كتالونيا والباسك حق الاستقلال الذاتى ، وبذلك اتسعت الهوة بين أهل البلاد الواحدة ولم تعد الوحدة السياسية ملحوظة فى أسبانيا كما كانت فى عصر شرلكان وخلفائه .

أما الأحرار فيعتقدون أن الحرب الأهلية فى أسبانيا كانت مقدمة للحرب العالمية الثانية ، وأن على الحلفاء أن يحرروا الشعب الأسبانى من النظام « الفلنجى » الذى أنشأه فرنكو كما حرروا شعوب أوربا الأخرى من النازية والفاشية . فما نشبت الحرب فى رأيهم إلا للقضاء على النظم الدكتاتورية ، وما دامت المبادئ الديمقراطية هى التى انتصرت فى النهاية فلا معنى لابقاء الحلفاء على دولة دكتاتورية قد تصبح بعد قليل عشا تبيض فيه النازية أو الفاشية وتفرخ . وأكثر الأحرار تحمساً الجمهوريون الذين هاجروا من بلادهم على أثر انتصار الوطنيين واستوطنوا فرنسا وجمهوريات أمريكا وأنشأوا لهم فى المنفى حكومة جمهورية أعلنوها فى المكسيك فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ ثم تجمع كثير منهم فى جنوبى فرنسا بعد الحرب وجعلوا يعملون سرا وعلانية لقلب حكومة فرنكو مقتفين فى ذلك أثر جماعات المقاومة من الفرنسيين المعروفين بالماكى maquis الذين كانوا يعملون تحت الأرض لمقاومة الألمان فى أثناء فترة الاحتلال . وللجمهوريين قوات مسلحة تقيم على الحدود بين فرنسا وأسبانيا فى انتظار الوقت المناسب لدخول أسبانيا طوعاً أو كرهاً .

ويبلغ عددهم نحـو خمسين ألف رجل من مجموع عدد المهاجرين ، ويقدرون بنصف مليون أسبانى .

وليس الجمهوريون جميعاً من الشيوعيين ، فبينهم كثيرون يؤمنون بالنظم النيابية الديمقراطية وينظرون إلى فرنسا و بريطانيا وأمريكا كمثل عليا يقتدون بها وينسجون على منوالها فى الحكم . ولا عيب فى هذه الجماعة إلا أن أفرادها لطول غيبتهم عن أسبانيا قد فقدوا الاتصال عن كثب بروح الشعب وآرائه وحاجاته ، وعجزوا عن تقدير ما أسداه النظام الحالى للبلاد من استقرار وتنظيم لشؤونه واقتصادياته . أما ما يؤخذ على الجمهوريين من أنهم فى سبيل تحقيق أغراضهم لا يترددون فى التماس المعونة من العناصر الشيوعية الأجنبية فقد يكون صحيحاً ، ولكننا نعتقد أن طبيعة الكبرياء الوطنى عند الأسبان تجعلهم يأبون أن تشد بلادهم إلى عجلة دولة أجنبية أيا كانت .

أما الملكيون فهم إلى نظام فرنكو أقرب منهم إلى النظام الجمهورى ، ولكن الاشتراك فى الهجرة وآلام المنفى ورغبتهم جميعاً فى القضاء على فرنكو — كل ذلك قد قرب مسافة الخلف بين الملكيين والجمهوريين بدرجة شجعت على القول بامكان تآلف الفريقين ضد فرنكو .

والمعروف أن فرنكو لا يعادى الملكية فى أسبانيا ؛ فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة أن أعاد الحقوق المدنية للملك السابق الفونسو الثالث عشر ، وأنه بعد موت الملك كاد الاتفاق يتم بين فرنكو ودون جوان المطالب بالعرش لو لم تقف هيئة الأمم المتحدة موقفها العدائى ضد فرنكو . وقد انتقل الأمير بعد الحرب من سويسرا إلى انجلترا ومنها إلى البرتغال واتخذ له ولأتباعه مقرا قريباً من لشبونة ليرقب منه الحالة عن كثب . وقد أعلن الأمير نهائيا أنه لا يقبل التاج من يد فرنكو ، وأن على فرنكو أن ينزل أولا عن سلطانه حتى يصعد الأمير على عرش آبائه الوراثى . ولكن فرنكو لم يأبه بتمنع دون جوان وهو يعلم أن تاريخ الملكية فى أسبانيا لا يشرف كثيراً ولا يثير بين الشعب من الحماسة ما تثيره انتصارات « الزعيم » . لذلك انتهز فرنكو فرصة احتفال الشعب بالذكرى الثامنة لانتصار الجيوش الوطنية فأعلن فى مارس الماضى قانون وراثة العرش الذى يقضى بأن تكون أسبانيا دولة ملكية لها مجلس ملكى مكون من ١٢ عضواً منهم رئيس الأساقفة ورئيس

أركان حرب الجيش ورئيس المحكمة العليا وممثلو النقابات المختلفة . وينص قانون الوراثة على أن فرنكو رئيس الدولة وعليه أن يستشير مجلس المملكة فى تعيين خلفه وفى إعلان الحرب والسلم وفى القوانين التى يرى ردها إلى مجلس الكورتيس أو البرلمان الذى أعاد فرنكو تأليفه منذ سنة ١٩٤٣ . فاذا مات رئيس الدولة أو أصبح غير قادر على الحكم فان مجلس الوصاية يتولى السلطة العليا . ويتكون مجلس الوصاية من رئيس الكورتيس ورئيس الأساقفة ورئيس أركان حرب الجيش . وعلى مجلس الوصاية أن يدعو الوزراء ومجلس المملكة إلى الاجتماع للاتفاق بكثرة الثلثين على مرشح للعرش . واشترط القانون أن يكون المرشح أسبانيا بالغاً من العمر ثلاثين سنة على الأقل كاثوليكيا ومن دم ملكى ، وأن يقسم يمين الولاء لقوانين البلاد ، وأن يحوز ترشيحه ثلثى أصوات مجلس الكورتيس .

ولما وصل هذا القانون إلى علم الأمير دون جوان أبدى اعتراضه وسخطه عليه لسببين : الأول أن الأمير لم يستشر قبل إصداره . والثانى أن الشعب لم يستفت فيه . ولعل أهم ما يدعو إلى اعتراض الملكيين أن القانون قد اشترط أن يقسم المرشح للعرش بيمين الولاء للقوانين التى أصدرتها حكومة فرنكو وأن الأمير لا يريد أن تكون عودته إلى العرش متوقفة على رغبة فرنكو ، أو موافقة الكورتيس أو مجلس الوصاية أو غيرها . ومع ذلك فقد وافق الكورتيس على القانون وأجرت الحكومة استفتاء بشأنه ، فكان عدد المقترعين للقانون أكثر من ١٤ مليون ضد نحو ٧٢٢٠٠٠ اقترعوا ضده ولا تزال الدوائر الملكية دائبة الاتصال بالأمير المطالب بالعرش ، وهم يزعمون أن فى قيام حكومة ملكية دستورية خير ضمان لاستقرار البلاد والحد من المنازعات الحزبية التى مزقت وحدة البلاد وعرضتها أخيراً لويلات الحرب الأهلية .

والملكيون والجمهوريون كلاهما يعلقون أهمية كبيرة على معارضة هيئة الأمم المتحدة للحكم الفرنكى ، ويعتقدون أن فرنكو لم يلجأ إلى قانونه الأخير إلا تغطية لمركزه الذى تضعضع وتحرج فى نظر العالم بسبب قرارات هيئة الأمم المتحدة ضده فى العام الماضى . فقد قررت لجنة من مجلس الأمن أن بقاء حكم فرنكو فى أسبانيا من شأنه أن يعرض السلام الدولى للخطر . وعلى ذلك وافقت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة أن تسحب الدول سفراءها ووزراءها

المفوضين من أسبانيا، ولكنها لم تقرر قطع العلاقات السياسية كما كان قد اقترح أولا . وقد وافقت على هذا القرار ٣٤ دولة ضد ٦ وامتنعت ١٣ دولة عن إعطاء صوتها ، ومن هؤلاء دول الجامعة العربية ، فلقى موقفها ارتياحاً من جانب فرنكو . ويظهر أن الدول العربية قد أرادت بخطتها هذه أن تكسب أسبانيا إلى جانبها ضد سياسة فرنسا فى شمال إفريقية. وقد نفذت الدول التى لها سفراء أو وزراء فى أسبانيا قرار الجمعية العمومية . ولكن القرار قد جرح كبرياء أسبانيا وأعده الأسبان تدخلا مهيناً من جانب الدول فى شؤون أسبانيا الداخلية . وكان رد الفعل الأول للقرار أن قامت فى البلاد مظاهرات حماسية رائعة تعضد فرنكو فى موقفه وتحتج على تدخل الأجانب . وكانت النتيجة أن فرنكو لم يكترث بمعارضة الدول ، فتحداها وسار على خطته التى رسمها لنفسه كما ذكرنا . من ذلك يتضح أن الأسبان بعد ثمان سنوات تحت نظام فرنكو قد أصبحوا يألفون نظامه ويقدرون ما فيه من مزايا الاستقرار والتنظيم الذى شمل جميع مرافق الحياة ، وأنهم صاروا الآن يفضلونه على ما عداه من النظم . فهم قد قاسوا كثيراً تحت نظام الملكية فى الماضى وتحت نظام الجمهورية أخيراً . وهم لا ينسون أن أسبانيا قد فقدت نحو نصف مليون نفس فى الحرب الأهلية الأخيرة ، وأن أى انقلاب آخر سواء أكان ملكيا أم جمهوريا سيفضى حتما إلى قيام حرب أهلية أخرى . ذلك لأنه إذا أعيدت الملكية ثار الشيوعيون وعرضوا البلاد لكارثة وطنية جديدة . وإذا عاد الجمهوريون أضرمت الكنيسة ورجال الجيش نار الثورة وأججوها فى صدور الفلاحين والشعب عامة . والأسبان يعلمون أن النظام الحالى فى بلادهم يقوم على قوة الجيش ، فأى مساس يناله من الداخل أو الخارج لابد أن يؤدى إلى إراقة الدماء . وقد يكونون مقتنعين بضرورة إحداث تغيير فى نظم الحكم ، ولكنهم يأبون أن يجئ التغيير عن طريق الثورة أو العنف فى الوقت الحاضر . ومع اعترافهم بأن الجيش فى أسبانيا هو أساس البلاء وأنه من أهم أسباب الضيق المالى ، فان موقف هيئة الأمم المتحدة من أسبانيا قد جعل الجيش أداة وطنية لا غنى عنها . وإذا أضفنا إلى ذلك أن الحكومة الفرنسية قد أعلنت إغلاق الحدود بينها وبين أسبانيا ، وأن الجمهوريين والارهابيين من الأسبان قد اتخذوا قواعدهم جنوبى فرنسا قرب الحدود ، وأن الحالة على الحدود قد بلغت من التوتر درجة باتت

تنذر بالخطر ، أدركنا معنى احتفاظ فرنكو بجيشه الكبير الذى يقدره بعضهم بثلاثة أرباع مليون رجل يكلفون الحكومة والشعب نفقات طائلة لا قبل لهم باحتمالها طويلا . ومع ذلك يؤثر الأسبان الابقاء على نظامهم الحالى مع اعترافهم بعيوبه ونقائصه . فهم إذ يقارنون حالهم بحال غيرهم من شعوب أوربا يرون أنهم أحسن حالا وأثبت موقفاً من غيرهم وقد بات الأسبان الآن زاهدين فى السياسة عامة وفى السياسة الأوربية خاصة ، وأخذت محاسن أمريكا والمحيط الأطلنطى تجتذب أنظارهم وتسترعى اهتمامهم من جديد أكثر من انجذابهم نحو فرنسا أو انجلترا أو البحر المتوسط . وأكبر الظن أنه إذا حدث انقلاب سياسى فى البلاد فلن تكون قبلة أسبانيا شرقية نحو موسكو ولاأوربية غربية نحو باريس أو لندن ، بل يغلب أن تبقى على حيدتها الحالية أو تولى وجهها شطر بنى جلدتها فى أمريكا .

وستكون مسألة أسبانيا أمام أنظار الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة فى اجتماعها القريب فى منتصف شهر سبتمبر الحالى . وكانت لجنة مجلس الأمن قد أوصت المجلس بأن يتخذ التدابير اللازمة لمعالجة الحالة فى أسبانيا إذا لم تستبدل أسبانيا بحكومة فرنكو حكومة غيرها فى خلال فترة معقولة . ومع أن المجلس لم يقر هذا الاقتراح فان روسيا وفرنسا بصفة خاصة يهمها أن تحل المسألة الأسبانية على وجه ترضاه ويوافق مصلحتها . ولا تزال فرنسا تعتبر أسبانيا امتداداً جغرافيا لبلادها ، وأن أسبانيا تعترض مواصلاتها مع مستعمراتها فى شمال إفريقية براً وبحراً وجواً ، فاذا كانت الحكومة القائمة فى أسبانيا غير موالية لفرنسا تعرضت مصالح فرنسا الاقتصادية والحربية لأعظم الأخطار . ومع أن فرنسا وروسيا تميلان إلى اتخاذ اجراءات مباشرة ضد فرنكو بوساطة هيئة الأمم المتحدة ، فان بريطانيا والولايات المتحدة ومعهما سائر الدول الديمقراطية تكتفى الآن باعلان آرائها ضد نظام فرنكو ، ولكنها لا تريد أن تتبع القول بالعمل وتفضل أن يقوم الشعب الأسبانى باختيار الحكومة التى توافق إرادته فى ظل استفتاء برلمانى صحيح . وقد أعلن مستر بيفن وزير خارجية انجلترا عند ما تولت وزارة العمال الحكم منذ سنتين : « أن نظام الحكم فى أسبانيا مسألة تخص الشعب الأسبانى ، وأن أى تعرض من جانب الدول لشؤونها الداخلية لا بد أن يثير الشعب الأسبانى ويجعله يؤيد فرنكو فى موقفه ضد هذا التدخل الأجنبى . »

ووجه الخطر فى مشكلة أسبانيا أن نظام فرنكو يقوم كما ذكرنا على قوة جيش كبير كامل الاستعداد تؤيده كثرة من الشعب الأسبانى المقيم داخل البلاد لا خارجها . وإن أى تدخل مباشر من جانب هيئة الدول المتحدة سيلقى معارضة كالتى تلقاها الهيئة من جانب روسيا من جراء تدخلها فى شؤون البلقان . وأكبر الظن أن الحالة فى شبه جزيرة ايبريا ستبقى موازنة للحالة فى شبه جزيرة البلقان فى طرف أوربا الشرقى ، وستظل الحالة فى المنطقتين على توترها حتى يستبين للعالم قدر هيئة الأمم المتحدة وأثرها فى صيانة الحريات وحفظ السلام العام : فاما أن يكون للهيئة من القوة المادية والاستقلال فى الرأى ومن النفوذ الأدبى ما يرهب القوى الطامع ويشجع الضعيف على الاستنجاد بها ، وإما تخاذل واستسلام من جانب الهيئة لرغبات الدول الكبرى واستهتارها بالأمن الدولى ومظالم الشعوب الصغيرة ، وحينئذ تعود القوة إلى مكانها القديم فوق القانون ولا تتأتى الحلول لمشاكل البلقان وأسبانيا وغيرهما إلا عن طريق السيف والبطش . ومتى أصبحت الكلمة فى العالم الحديث للسيف وللقوة الذرية فقل على المدنية العفاء وعلى الدنيا السلام .

محمد رفعت

الهند بين الوحدة والتقسيم

الهند بلاد فسيحة تناهز فى مساحتها ثلث مساحة أوربا ، وتقارب فى عدد سكانها ٣٥٠ مليون أو نحو سدس العالم كله . ثم إنها بلاد عريقة فى المدنية ، لها حضارة قديمة وتراث مخلد فى التاريخ ؛ وبدونها لاتكتمل للشرق صورته المعروفة ؛ فقد مثلت ركناً هاما من أركانه فى الأعصر القديمة والوسيطة ، نبتت فيها بعض العقائد والديانات التى انتشرت نحو الشمال ونحو الشرق ، وانتشرت بالبر والبحر ؛ كما ظهرت فيها بعض ألوان الفكر والفلسفة التى نقلها الشرقيون فى غرب آسيا وشرقها على حد سواء . وهى إلى ذلك كله لا تزال تعتبر قلب الشرق الآسيوى حتى يومنا هذا ؛ احتك عن طريقها العالم الأوربى بالعالم الآسيوى ، احتكاكا تمثل فى التجارة والسياسة ، وفى الحرب والاستعمار ، ثم فى النهضة والكفاح . . . كل ذلك فى صور وأشكال تعاقبت على الزمن منذ عهد الاستكشافات حتى يومنا الحاضر . ولا تزال تلك الصور والأشكال تتجدد أمام أعيننا فى وقت يحاول فيه الغرب أن يصوغ علاقاته بالشرق فى قالب جديد ، ويحاول فيه الشرق أن يعيد بناء بيته ، وأن يرد إلى حياته بعض ما فقدت من استقلال .

ويحاول الباحثون الآن أن يتفهموا ما يجرى فى بلاد الهند من أحداث وتطورات فى الحياة القومية العامة والحياة السياسية بنوع خاص . ويختلف أولئك الباحثون ؛ فمن قائل إن العالم يتجه نحو التكتل ، وإن من الخير للهند وللعالم الشرقى أن تبقى تلك البلاد وحدة متماسكة لتكون نواة لقوة عالمية تحفظ التوازن فى جنوب قارة آسيا ، وتكون دعامة قوية من دعائم الاستقرار والتعادل فى صلات الشرق بالغرب . ومن قائل إن الوحدة فى الهند إذا لم تقم على أساس طبيعى وبشرى مكين فانها لن تكون خيراً مما حاول الانجليز فى عهد استعمارهم أن يفرضوه على سكان تلك البلاد من وحدة ظاهرية لا تمس جوهر الحياة ،

وخير منها أن تقسم الهند إلى أكثر من دولة واحدة ، وأن تأتلف من عدد من الدول المتوسطة ، يستند كل منها إلى كيان طبيعى وبشرى سليم موحد ، ويقوم ما بينها على صلات الجوار والمصالح المادية المتعادلة والمتداخلة ؛ فمثل تلك الدول الهندية المستقلة تكون أقدر على الحياة والكفاح ، وأدنى إلى القوة والتماسك القومى والعنصرى من دولة هندية كبرى تسودها الفوضى وتنخر فى عظامها مشاحنات الطوائف والطبقات ، واختلافات المذاهب والعقائد والأديان.

على أن أغلب أصحاب الرأيين فى الوحدة والتقسيم إنما يطرقون الموضوع من ناحيته السياسية ؛ وهى ناحية لها خطرها الكبير ولا شك ؛ ويحاول بعضهم أن يربط بين ما يرمى إليه وبين ما كان للهند فى عهدها الأخير تحت حكم البريطانيين ؛ فيقول أنصار الوحدة إن الهند إذا كانت قد حققت فى عهد الاحتلال والاستعمار وحدتها العامة فى رياسة الدولة وفى سياسة الأمن الداخلى والمواصلات وفى الجيش والدفاع والتجارة الخارجية وغير ذلك فما أحراها أن تتابع ذلك فى عهد الاستقلال ، بعد أن تتلاشى سياسة فرق تسد ، وينزوى أنصارها من عملاء البريطانيين بين الهنود . ويقول أنصار التقسيم إن الهند ما كانت فى يوم من الأيام خلال تاريخها الطويل لتؤلف دولة واحدة موحدة ، وإن كانت قد قامت بها فى بعض الأعصر دول كبرى امتد سلطانها إلى معظم أرجاء شبه الجزيرة . كما يقولون أيضاً إن وجود البريطانيين لم يوحد البلاد إلا من أجل تسخيرها لصالح المستعمر فى التجارة والاستغلال وعن طريق الجيش الامبراطورى الذى تضرب به بريطانيا فى الهند نفسها إن أرادت وفى أقاصى الأرض متى بدرت حاجة إلى ذلك ؛ وما كانت تلك الوحدة التى فرضها البريطانيون على الهند لتمثل الوحدة السياسية القومية بالمعنى المعروف ؛ فالولايات متفرقة ، والامارات المستقلة كثيره ، والطوائف تشجع على أن يناحر بعضها بعضاً ، والطبقات ييسر لبعضها فى أن يطغى على بعض ، والمصالح الشخصية والفردية يساوم أصحابها على حساب المصالح العامة ، والثقافة الهندية تنحى تنحية لتقوم مكانها ثقافة بريطانية لا تتصل بحياة الهنود الأصلية ولا تغذى تراثهم الروحى والعقلى إلا بما يخلق طبقة جديدة قليلة من المتعلمين الذين يرتفع بهم تعليمهم يفرق ما بينهم وبين الحياة الهندية الصميمة . فالوحدة التى يقال إن تقسيم الهند يعتبر تراجعاً عنها إنما هى وحدة زائفة لا تمس حياة الهند

القومية إلا فى القشور . وإذا كان للزيف أن يعيش فى عهد الاحتلال والاستعمار فقد آن لنور الاستقلال الصحيح أن يكشفه ويبدده ؛ وعندئذ يبدو ما تحته من حقائق راسخة ، تستلزم كلها أن يعترف الهنود بأن التقسيم إن كان شراً لا بد منه فهو خير من وحدة تحمل فى طياتها بذور الفرقة والشقاق ، بل هو الحل العملى الوحيد لما تواجهه الهند المستقلة من مشكلات .

ومع ذلك فليس هذا مجال المفاضلة بين الرأيين من الناحية السياسية الخالصة . وخير لنا أن نتعمق الأمور ، وأن نحاول أن نرجع ببعض الظاهرات السياسية فى حياة الهند القومية إلى منابتها الطبيعية فى البيئة ، و إلى أصولها الأولى فى التاريخ ؛ فذلك أدنى إلى أن يقربنا من تفهم تلك الظاهرات فى أوضاعها الصحيحة ، ومن الحكم عليها حكما يستند إلى طبيعة الأشياء ومنطق التاريخ أكثر مما يستند إلى الرأى السياسى الخالص الذى لا يبعد أن يأتى متأثراً بنزعة أو ميل أو عاطفة .

وأول ما يسترعى النظر فى بلاد الهند أنها شبه جزيرة تحدها سلسلة شاهقة من الجبال تكاد تحجز ما بينها وبين داخلية القارة إلا فى أبواب قليلة لا سيما من الجهة الشرقية الغربية . ولذلك فقد استطاعت الهند أن تحتفظ بطابعها الخاص وشخصيتها المميزة عما جاورها وتاخمها من أقطار آسيا الداخلية . وفوق ذلك فان شبه الجزيرة الهندية تقع فى وسط آسيا الجنوبية ، ويحدها المحيط الهندى من الجنوب والشرق والغرب ، ولا يوجد فى جنوبها من اليابس غير جزيرة سيلان ؛ وهى بذلك تختلف اختلافاً ظاهراً عن شبهى الجزيرة الأخريين اللتين تمتدان من آسيا وهما شبه جزيرة الهند الصينية والملايو وشبه جزيرة العرب . فالأولى تمتد نحو الجنوب الشرقى وتنتهى إلى عدد كبير من الجزر فى اندونيزيا وما وراءها إلى استراليا وعالم الاقيانوس الهادى . والثانية تمتد نحو الجنوب الغربى وتتصل بافريقية الشمالية من جهة ، كما تكاد تلامس إفريقية الشرقية من جهة أخرى . ولذلك فان شبهى جزيرة الهند الصينية والعرب لم تمثلا منطقتين مغلقتين بالنسبة للهجرات القديمة ؛ و إنما كانتا معبراً وحلقة اتصال بين آسيا والعالم الخارجى ؛ بمعنى أن الهجرات المتتابعة التى اندفعت من آسيا إلى إحدى هاتين المنطقتين فى جنوبها الشرقى وجنوبها الغربى استطاعت أن تتابع سيرها نحو الخارج ؛ وكلما وصلت موجة جديدة من السكان دفعت ما سبقها من الموجات القديمة أمامها حتى

لايبقى منها إلا قلة ضئيلة لاتلبث أن تندمج فى الموجة الجديدة من السكان ، أو حتى تخرج الموجة القديمة برمتها من شبه الجزيرة وتخلى السبيل لما يأتى وراءها من موجات . وهكذا لاحظنا أن بعض العناصر السوداء القديمة قد هاجرت من جنوب شرق آسيا إلى الاقيانوس واستراليا أمام ضغط عناصر أحدث منها ؛ كما هاجرت بعض عناصر الملايو أمام ضغط الصينيين من الشمال فى العهد الحديث . وكذلك مرت موجات متتابعة من السلالات القديمة ثم الحامية والسامية عابرة الجزيرة العربية إلى أفريقية الشرقية والشمالية . وذلك كله بخلاف بلاد الهند التى كانت تمثل منطقة مقفلة إلى حد كبير ، « تراكمت » فيها العناصر لأنها لم تجد لنفسها مخرجاً تسير إليه إذا ما تدافعت موجات الهجرة بعضها فى إثر بعض . وقد ترتب على ذلك أن بقيت السلالات القديمة فى الهند إلى جانب السلالات الحديثة ؛ ولم تستطع تلك السلالات القديمة المستضعفة أن تغادر الهند إلى ما وراءها لأنه لا يوجد وراء الهند وسيلان غير عرض البحار ؛ وكل ما حدث أن انزوت أقدم العناصر وأضعفها فى الجهات البعيدة وغير الصالحة لا سيما عند طرف الهند الجنوبى ، أو انتقلت إلى جزيرة سيلان ، وهى عناصر بعضها أسود أو متأثر بسلالة شبه زنجية قديمة ، وتعرف بعض قبائلها بالفدا . وإلى الشمال من هؤلاء يوجد الدرافيديون ، وهم سلالة مختلطة أثرت فيها سلالة البحر الأبيض المتوسط أو أحد أفرعها القديمة التى اختلطت فى الهند بعناصر قديمة أيضاً .

ويقال إن الدرافيديين وصلوا إلى قلب الهند فى أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد وإن كانت بعض العناصر التى تشبههم قد بلغت شمال الهند قبل ذلك ، ولم تكن موجة الدرافيديين أول الموجات ولا آخراها بالطبع ؛ وإنما سبقتها وتلتها موجات أخرى ؛ وكانت أهم الموجات اللاحقة تلك الموجة الآرية ؛ وأصحابها من الشقر أو ذوى البشرة البيضاء ؛ وهم قد أتوا من سهول آسيا ، وربما كانت لهم أو لبعضهم صلة بسلالات أوربا الشمالية . وقد كان دخول الآريين الأول إلى شمال الهند الغربى حول منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ، واستقروا فى شمال الهند الغربى ، وهاجرت بعض طلائعهم نحو داخلية الهند الشمالية ، واختلطوا بغيرهم من السلالات القديمة بعض الاختلاط ، وإن كانوا قد فضلوا فى بعض الأحيان الاحتفاظ بدمائهم شبه نقية ، والترفع بأنفسهم من الناحية الاجتماعية ، فمثلوا طبقة عليا فى نظام الهند الاجتماعى . وقد تلت الآريين موجات آخرى أسيوية أيضاً

أتت على الأخص من شمال الهند الغربى ، أى من جهة أفغانستان وتركستان ؛ كما تسربت بعض عناصر المغول إلى الهند من شمالها الشرقى وأثرت فى منطقة أسام وبنغال إلى جانب تسرب بعض المغول والأتراك عن طريق وسط آسيا إلى شمال الهند الغربى ثم شمالها الأوسط إبان القرون الوسطى ، كما هو معروف .

وبالاضافة إلى كل هذه الهجرات دخلت الهند بعض العناصر بالبحر ، وعلى الخصوص بعض الملايو الذين استقروا على السواحل الجنوبية ، وبعض الفرس الذين استقروا على السواحل الغربية ، وبعض عناصر بحر العرب من التجار المختلطين الذين استقروا فى موانى الهند التجارية على السواحل الغربية وبعض السواحل الشمالية والشرقية لشبه الجزيرة .

وقد اتسعت الهند لكل هذه الموجات والهجرات ، ولم يخرج منها إلا عناصر قليلة اتجهت نحو برما أو بعض جزر المحيط الهندى وخلجانه ، أو نحو الملايو والهند الصينية ، ولكنها كانت عناصر قليلة نسبيا ، وكان بعضها من غير الهنود الأصليين أو من العناصر المختلطة التى حملت معها طابعاً من الحضارة الهندية نشرته فى أقصى شرق آسيا . فالهند فى الحقيقة قد قضى موقعها الجغرافى وبعدها عن اليابس فى خارج آسيا أن تصبح إلى حد كبير « محطة نهائية » و « طريقاً مغلقة » تجمعت فيها عناصر السكان والسلالات منذ أقدم الأعصر ، فطغى بعضها على بعض ، واستضعف بعضها بعضاً . ولم يكن أمام الضعيف فى بلاد الهند إلا أن يخضع للقوى ؛ فالهجرة سبيلها مغلقة والخضوع لا مفر منه . وكان ذلك كله فيما يبدو أساساً لما عرف فى بلاد الهند من نظام الطبقات ؛ ذلك الذى يتمثل فى صورة أكثر وضوحاً عند الأطراف الجنوبية لشبه الجزيرة ، ولو أن بعض الباحثين يرى أنه قد بدأ فى الوسط أو فى الشمال . وهو نظام قضت به طبيعة الهند وظروفها الجغرافية ، كما قضى به تتابع الهجرات وطغيان السلالات بعضها على بعض منذ بضعة آلاف من السنين . وبذلك كله صارت الهند « متحفاً » أو « مخزناً » للسلالات ، ومتحفاً أيضاً للنظم الاجتماعية التى لا يداخل بعضها بعضاً، ولا تقوم فيها العلاقة بين الطبقات على أساس رأسى ، بحيث يستطيع الفرد أو الجماعة من السكان أن ترقى من أسفل السلّم الاجتماعى إلى أعلاه ؛ وإنما هى طبقات أفقية بعضها فوق بعض ، يضغط أعلاها على أسفلها ، ولا يجد أسفلها سبيلا إلى تنسم الحياة كما يفعل من بأعلاه من الطبقات .

وهكذا انتهى العمران البشرى فى الهند بأن « تجمدت » فيه النظم ، وقام المجتمع على أساس الغالب والمغلوب ، والسيد والمسود ، والطاهر والمنبوذ . وليس هذا كله مما ييسر اختلاط السلالات وما يتبعه من اختلاط الثقافات وامتزاجها ، وتوحيد الفكر والروح بين عناصر المجتمع . فامتدت الفوضى إلى ميدان الثقافة والدين ، وتكاثرت فى الهند ألوانهما إلى حد بعيد لا يكاد يتصوره عقل ؛ فهناك من العقائد والأديان ألوان شتى ، وهناك من الآلهة التى تقدس بدرجات متفاوتة و إن لم تعبد كلها ، ما يكاد يساوى عدد الأنفس فى بلاد الهند؛ إذ يقدر بعض الباحثين تلك الآلهة بنحو ٣٣٠ مليون ، وهو رقم لا يكاد يصدق . وهناك من اللغات واللهجات نحو مائة وخمسين أو تزيد ؛ واذا كانت اللغة الأردية هى الغالبة فى شمال الهند ، فان جنوب الهند يصعب التفاهم فيه بلغة مشتركة غير اللغة الانجليزية ، التى يتعلمها من يريد أن يفهمه أكبر عدد من الناس[1] . وما اختلافات العقائد والثقافات الروحية والفكرية واللغوية والأدبية إلا صورة منعكسة من حياة الهند المعقدة ، والتى يطغى فيها التشعب على التوحيد والتفرقة على الوحدة . ولعل هذا كله أن يكون أساس ما تعانيه الهند من انقسام يمس الحياة القومية فى الصميم ، ولا يمكن إرجاعه كله إلى مجرد أن يكون الاستعمار قد سار على سياسة فرق تسد ، إلا إذا تغاضينا عن الأسس والأصول واكتفينا بالنظر إلى المظاهر والسطحيات .

ومن الطريف أن الهند تختلف من هذه الناحية اختلافاً أساسيا وخطيراً عن بلد كالصين ، حيث السكان أكثر عدداً ، ولكنهم أقوى تماسكاً فى السلالة والثقافة ؛ فكلهم من السلالة المغولية أو العناصر المتأثرة بها ، وكلهم يشاركون فى قدر مشترك من الثقافة ، فتستطيع كثرتهم مثلا أن تقرأ جريدة واحدة و إن اختلفت لهجاتهم من إقليم إلى إقليم ؛ ولا تكاد توجد بينهم طائفية دينية من ذلك

(١) تعتبر اللغة الانجليزية لغة التفاهم العام Lingua franca فى جنوب الهند . والطريف أن دخول هذه اللغة زاد من حدة التفاوت بين الطبقات فى هذا الاقليم . فليس من الميسور تعلمها وإجادتها إلا لأبناء طبقة البراهمان الذين يزيدهم التعليم مقدرة على احتكار وظائف الحكومة وأعمال التجارة وغيرها ، مما يمكن لهم من زيادة التحكم فى الطبقات الدنيا من الشعب . وهكذا زاد التعليم الحديث فى جنوب الهند مدى التفاوت بين الطبقات ، ووضع سلاحاً جديداً فى يد أبناء الطبقات العليا .

النوع الذى يمزق روح الوحدة فى الهند تمزيقاً ؛ وتاريخهم كان على الجملة تاريخ أمة واحدة منذ توحدت إمبراطوريتهم فى القرن الثالث قبل الميلاد . وإذا كانت قد حلت بعض فترات انقطع فيها حبل الوحدة وانقسمت الصين قسمين شمالى وجنوبى ، فقد انتهت تلك الفترات بعودة الوحدة من جديد (١) .

ولكن التفرقة التى تغلغلت فى حياة الهند القومية ترجع إلى عوامل أخرى قد لا تقل عمقاً وقوة عن عوامل الجنس والثقافة والتاريخ ؛ تلك عوامل البيئة الجغرافية ذاتها ، وما اصطلح الجغرافيون على أن يسموه بالتوجيه الجغرافى الاقليمى . فالهند بلاد فسيحة تناهز مساحتها مليونى ميل مربع ؛ وهى إلى ذلك مقسمة بحكم تكوينها الطبيعى إلى عدة أقاليم ، لكل منها مميزاته الطبيعية الظاهرة ، ولا يكاد يجمع بينها إلا أن مناخها من النوع الموسمى الحار ؛ ومع ذلك تتفاوت فيها أنواع ذلك المناخ ؛ فبعض جهات الهند ، كالركن الشمالى الشرقى مثلا ، يسقط بها من الأمطار مالا يسقط فى غيرها من جهات الأرض ، وبعضها الآخر ، كصحراء ثار ، شديد الجفاف قد حرمته الطبيعة نعمة الغيث وما يترتب عليه من حياة. ثم إن الهند يمكن تقسيمها إلى عدد من الأقاليم ذات التوجيه الجغرافى المستقل ، بحيث يصعب الجمع بينها وتوحيدها على أساس جغرافى طبيعى . فالسهل الشمالى مثلا قد تتفق كل أرجائه فى أنها مناطق منخفضة نسبيا ، تحدها الجبال الشاهقة من الشمال ، والجبال المتوسطة الارتفاع والبحار من الجنوب ، ولكن نهر السند يتجه بحوضه نحو بحر العرب ونحو الجنوب الغربى ، على حين يتجه الجنج بحوضه نحو الشرق وخليج بنغالة ، وتفصل بين الحوضين منطقة متوسطة الارتفاع ، اضطر البريطانيون قبل الحرب العالمية الأولى أن ينقلوا إليها عاصمة الهند ليقيموها فى دلهى بدلا من كلكتا ؛ ومع ذلك فقد بقيت دلهى الجديدة عاصمة عسكرية مصطنعة ، ولم تحل محل كلكتا كعاصمة قومية لاقليم الجنج الأدنى ، ولا محل لاهور وكراتشى كعاصمتين للسند الأعلى والأدنى . وفوق ذلك فان حوض السند يتصل فى مشكلاته وتاريخه بأفغانستان وما وراءها من داخلية آسيا

(١) من الطريف أيضاً أن نقارن هنا بين المسلمين فى كل من الصين والهند . فهم فى الصين جزء لا يتجزأ من الشعب الصينى ، رغم أنهم يتجمعون فى ولايات معينة كولاية يونان فى الجنوب الغربى . أما فى الهند فالمسلمون بقوا على الزمن يمثلون جماعة قائمة بذاتها ، لها كيانها المستقل كما هو معروف .

الرعوية بل وببعض جهات آسيا الغربية ذات الحضارة العريقة ، على حين ينزوى الجنج الأدنى فى أقصى الهند الشمالية ، ولا تهدد الأخطار حدوده الشمالية الشرقية كما تهدد حدود السند الشمالية الغربية . ولقد تطور السند وحوضه وحضارته فى احتكاك دائم مع رعاة آسيا ، واحتك فى تاريخه الطويل بمدنيات غرب القارة فى الأعصر القديمة وبعض العهد الحديث ، على حين لم يحتك الجنج الأدنى بما وراءه فى الصين إلا احتكاكاً محدوداً ، وبقى على حالته الفطرية حتى انتقلت إليه الحضارة بالتوسع والفتح من السند فى فترات متأخرة نسبيا من التاريخ . ولذلك كله فقد كان من الصعب دواماً أن نوحد بين سهلى هذين النهرين وحوضيهما ، وأن نوجههما وجهة واحدة ؛ لأن الطبيعة مهدت لأحدهما أن يتجه نحو الغرب والجنوب الغربى ، وأجرت مياه الآخر لتتجه نحو الشرق والجنوب الشرقى . وكذلك الحال فى الهند شبه الجزرية جنوب سهل الهند والجنج ، فقد قطعتها التضاريس إلى أقاليم منعزل بعضها من بعض ، فهناك أولا جبال فنديا بين سهل الجنج وهضبة الدكن ، وهى جبال تقل فيها المسالك والممرات وتقل فيها الحيضان والمناطق الصالحة للاستقرار ؛ ولذلك فقد بقيت على الدوام منطقة عزلة ، انزوت إليها بعض العناصر المستضعفة من سكان الهند ، ولم تتوغل المدنية أو المدنيات المتعاقبة إلى قلب هذه المنطقة التى كانت ولا تزال منطقة صعوبة ، ولا تزال تقطنها حتى الآن بعض القبائل التى تقرب فى معيشتها وأحوالها من الفطرة . وفى جنوب تلك الجبال تمتد هضبة الدكن ، وتحصرها من الغرب وتقطعها عن البحر جبال الغات الغربية ، كما تحدها من الشمال الشرقى مرتفعات الغات الشرقية . وتكاد الدكن تكون عالماً قائماً بذاته ، قد لا يشق فيه الاتصال الداخلى ولكن يصعب اتصاله بالخارج وبما حوله من أقاليم الهند شبه الجزرية . ثم إن ساحل الهند الغربى تقوم الجبال العالية خلفه مباشرة ، فتوجهه وتوجه سكانه ناحية البحر ، وتربط حياتهم بمياهه بدلا من أن تربطها بداخلية الهند . وكثير من سكان الساحل أتوا بالبحر كما ذكرنا واستقروا فى موانيه ؛ ومع ذلك لم ترتبط الحياة بين هؤلاء السكان على طول ذلك الساحل الذى تستقل مرافئه بعضها عن بعض ويضيق السهل الساحلى فيه جداً ويتقطع . كما أن سكان القسم الجنوبى من الساحل (الملابار) كانوا يختلفون عن سكان وسطه وشماله . أما ساحل الهند الجنوبية

الشرقية (أو ساحل كروماندل) فقد كانت له ظروف جغرافية مختلفة ؛ فأمطاره دائمة فى الصيف والشتاء ، وحياة أهله مرتبطة بخليج بنغالة وما وراءه، واتجاهه يغاير اتجاه ساحل ملابار ، ولا يكاد أهله يرتبطون بسكان الجهات الداخلية المنزوية فى أقصى أطراف الهند من الجنوب بأكثر مما ترتبط عناصر الملابار ذات النشاط البحرى العظيم بأهل الداخل من العناصر القديمة المستضعفة .

تلك أقاليم الهند أو أقسامها الكبرى من حيث التوجيه الجغرافى . وهناك أقاليم أخرى كثيرة ذات توجيه محلى خالص ، أو ترتبط بخارج الهند أكثر مما ترتبط بداخلها ، كما هى الحال فى منطقة نيبال على سفوح الهلايا وأطرافها وهى تكاد تستقل بذاتها وظروفها عن سهل الجنج الواقع إلى جنوبها ؛ وكما هى الحال عند حدود الهند الشمالية الغربية وهى تتصل بأفغانستان وبعض جهات التبت بمثل ما تتصل بالهند الشمالية . ولكننا نستطيع مما عرضنا له من التكوين الجغرافى لبلاد الهند أن نخرج بأنها بلاد قطعتها الطبيعة إلى مناطق لايكاد يربط بينها جميعاً إلا الموقع الجغرافى العام كشبه جزيرة تقع فى جنوب القارة والسلاسل الجبلية ، ولا مخرج منه لمن دخل إليه إلا أن يكون طموحاً جدا ومن سكان السواحل الذين ترتبط حياتهم بالبحار .ولذلك كله فان الطبيعة ، وقد جمعت فى الهند أشتاتاً من الخلق منذ الأعصر الأولى ، ومهدت لهذه الأشتات من الخيرات والنعم داخل شبه الجزيرة ما يقيم الحياة والحضارة والمدنية وييسر نشأة الثقافة والفكر ، لا سيما فى سهول الهند الشمالية، حيث قامت مدنيات ونشأت فلسفات قديمة قدم التاريخ ، بل تكاد تضارع فى قدمها ماهو معروف من جهات أخرى من غرب آسيا وشرقها ، فان هذه الطبيعة ذاتها لم تمهد السبيل لأن تختلط تلك الأشتات وتمتزج بالدم والروح امتزاجاً تاما كما حدث فى أقطار آسيا الشرقية والغربية ؛ وإنما بقيت لكل منها شخصيته المميزة ، كما أن الأقاليم التى استقرت فيها تلك العناصر لم يؤلف بينها توجيه جغرافى مشترك ولا متقارب ، وإنما فرقت بينها التوجيهات ، وكادت الوحدة تستحيل ولو أرادها الانسان .

من ذلك كله نستطيع أن نخرج بأن الأمر فى الهند أعمق كثيراً من أن يكون أمر « سياسة » أو فكر سياسى ، وأعقد كثيراً من أن يكتفى فيه بأن نتحدث عن الاستعمار والاحتلال وما أديا إليه من انحلال فى الحياة

السياسية وتأخير للنضج القومى وتخدير للوعى العام . . . بل إنه ليس غريباً أن يكون الفكر السياسى فى الهند صورة منعكسة من الطبيعة ؛ فالشعور الداخلى بالتنافر بين الطبقات من جهة ، والتناحر بين طوائف الأديان والعقائد من جهة ثانية ، ثم الاختلاف الظاهر بين مصالح الأمراء والحاكمين وبين اتجاهات ذوى الفكر الحديث فى الحكم والسياسة من جهة ثالثة ، كل هذه ترجع إلى أسباب أقوى كثيراً وأعمق كثيراً مما يتصور بعض من لايتعمقون الأمور ويكتفون بالنظر إلى السطحيات . والعلة فى بلاد الهند ليست داء يمكن أن يعالج بالآراء والنظريات توخذ عن تجارب بلاد أخرى فى أوربا أو حتى فى جهات آسيا الشرقية أو الغربية ، وإنما هى علة تتصل بالبيئة الجغرافية الهندية ، كما تتصل بتاريخ العمران الجنسى والتطور الثقافى والفكرى والاجتماعى العام فى بلاد الهند . ولا يجوز لنا أن نطبق هنا مانطبقه على نشأة الأمم الحديثة فى خارج الهند ؛ فنقول إن الهند مصيرها إلى الوحدة الاجتماعية والقومية كما كان مصير بعض الأمم الحديثة فى أوربا كألمانيا على سبيل المثال ، حيث تفرقت الآراء الدينية وتضاربت العقيدتان الكاثوليكية والبرتستانتية ، ثم انتهت الفرقة إلى الوحدة السياسية والقومية آخر الأمر ؛ فالقياس هنا مع الفارق الكبير ؛ إذ الهند فى مساحتها تضارع ثلث قارة أوربا برمتها كما ذكرنا فى صدر هذا المقال . ونحن إن قارناها بغيرها فينبغى أن نقارنها بمجموعة من الدول والأمم الواقعة فى قلب أوربا وفى جنوبها الشرقى لا بأمة واحدة . ثم إن الهند بسكانها تزيد على ثلاثة أرباع سكان القارة الأوربية ؛ وهى بدياناتها وعقائدها ولغاتها وألوان الثقافة والفكر فيها متحف لا نظير له فى بقاع الأرض . ولئن نظرت الهند إلى تاريخها السابق تستوحيه ما يعينها على الاتجاه نحو الوحدة فهى لن تجد فى ذلك التاريخ مثل ما وجد غيرها من أمم الشرق التى نظرت إلى الماضى فبعث فيها روح الوحدة والتماسك. وهى إن نظرت إلى أوربا تحتذيها فلن تجد ماتقيس عليه أو تنقل عنه اللهم إلا إذا رأت أن تسبق إلى ماتسبق إليه أوربا فتأتلف من عدد من « الأمم الهندية المتحدة » ، وهى خطوة صائبة وسديدة ولاشك ، ولكنها تكون أقرب إلى الطفرة منها إلى التدرج الطبيعى فى حياة بلاد تغلغلت فيها التفرقة حتى مست أسس الحياة وقواعدها الأولى .

ليس ينفع إخواننا الهنود إذن أن يندفعوا وراء الرأى السياسى الخالص، فينسبوا كل ما فى مجتمعهم من عيوب إلى فعل المستعمرين وسياستهم فى التفرقة والتشتيت ، وتشجيع التنابذ والتناحر . فعيوب المجتمع الهندى من هذه الناحية تبدو فى ضوء الدراسة الهادئة عيوباً أصيلة تتصل بالبيئة من جهة ، وبحياة السكان وحضارتهم وتاريخهم من جهة أخرى . وغاية ما هناك أن الانجليز وجدوا فى الهند مجالا واسعاً مارسوا فيه سياسة التفرقة ، ومرتعاً خصيباً استنبتوا فيه بذور الشقاق ؛ وكانوا فى ذلك مستعمرين بارعين جعلوا من الهند درة التاج البريطانى الامبراطورى ! وإذا كان هذا صحيحاً — وهو ماتهدينا إليه الدراسة التى تجتنب العاطفة والميل — فلن يكفى لتحقيق الوحدة فى الهند أن يخرج منها الانجليز وأن يجتث منها أذناب الاستعمار ، وإن كان خروج هؤلاء المستعمرين وقطع السبيل على أذنابهم أمراً ضروريا لوقف الداء عند الحد الذى وصل إليه . وخير للهنود أن يدركوا هذه الحقيقة الواقعة ، وأن يكونوا عمليين ، فلا تأخذهم العاطفة ، ولا يثنيهم الاندفاع السياسى عن دراسة بيئتهم ومجتمعهم ، ليخرجوا من هذه الدراسة بما ينير السبيل أمامهم ، ويعينهم على رسم الخطة العملية التى تناسب تلك البيئة ، وتتمشى مع تاريخ ذلك المجتمع . وهى خطة يخشى الذين يدرسون الهند دراسة هادئة أنها لن تحقق للمتحمسين للوحدة الشاملة آمالهم العريضة وغاياتهم العاجلة ؛ ولكنها مع ذلك ستمهد السبيل تدريجيا إلى نوع من الاتحاد بين مجموعة صغيرة من الأمم الهندية المتحدة . . . ومن يدرى ! فقد تكون تلك سبيل الهند الطبيعية للخروج من مأزقها الشديد الذى ساقتها إليه الأقدار . . . تلك التى جمعت إلى البيئة المعقدة ، تاريخاً قديماً حافلا بالتفرقة ، وتاريخاً وسيطاً مخضباً بالدماء ، ثم تاريخاً حديثاً قائماً على استغلال العيوب المتأصلة والضعف القائم استغلالا ما كانت الهند لتستحقه ، وهى بلد المدنية العريقة ، ولؤلؤة الشرق فى التراث الفلسفى والثقافى العام !

ولنا عود لهذا الموضوع فى مقال قادم عن دولة باكستان .

سليمان حزين

الرحلة الى ايطاليا

الليـــــلة الأولى

على البحر

وحيدٌ على ظهر السفينة ساهرُ
وقد لجَّجَتْ فى الغَمْر ، والليلُ غامرُ (١)

علىَّ ومِن حولىَّ ليلٌ مُخَيِّمٌ
وتحتى من الأمواج ليلٌ مُسَاير

وفى النفس ليلٌ ليس يُلْفَى نظيرُه
ألا شدَّ ما انثالت علىَّ الدياجر (٢)

غريقٌ حوتنى ظلمةٌ طىَّ ظلمةٍ
كأنى إلى الغيب السحيق مسافر

إلى عالم الأشباح لا أُنْس عنده
لحىٍّ ، فمالى الآن قلبىَ صابر !

لقد طاف بى ذِكرىٰ التى قد عدِمتُها
شريكةُ عيشى غيَّبَتْهـا المقابر

---

(١) لجت السفينة فى الغمر ، أى خاضت اللجة فى عرض البحر .
(٢) انثالت عليه ، انصبت عليه من كل وجه .

فطاب لنفسي عند ذلك وَهْمُها
بأني إلى حيث الحبيبة صائر

ورانت على حسِّي المعذَّب فَتْرَةٌ
وأُنسيتُ أني مُضْرَم الصدر واغر (١)

وسُكِّنْتُ حتى ما أحرِّك ساكناً
وخُدِّرتُ حتى ليس يهمس خاطر

وأُذهلتُ عن أمرى وذاتى جميعها
وأسْلَمْتُنى للكون ، والكون قادر

*

ومرّت هنيهاتٌ طوالٌ قصيرةٌ
فما لى بها علمٌ ، ولا أنا ذاكر

فلمّا أطلّ البدر وانساح نورُه
على البحر فاختالت عليه المناظر

تَنبَّهَت الأحلامُ فى النفس بَغْتَةً
وهبّت خِفافاً من كَراها الخواطر

وخُيِّلَ لى أنى عليه وزوجتى
وُقوفاً نناجى موجه ونُحاور

---

(١) رانت عليه ، غلبت عليه — فترة الحس ، فتوره .

وقوفاً كعَهْدَيْنا على النيل أرْوَعٌ
يُلألِىء فى القَمْراء ملآن زاخر

فلا غَرْوَ أن أرنو إلى البحرِ هٰهنا
وزوجىَ مسحورَيْن ، والحسنُ ساحر

نراعيه مِلْءَ الناظرَيْن وموجُه
من البدر فِضّىٌّ الحبائك باهر (١)

عليه كمثل الراقصات مُفَضَّضٌ
من الوَشْى خفّاقُ الذلاذل دائر (٢)

يضجّ حشاه راقصاً مترنّماً
كأن حشاه بالعرائس عامر

تُراقِصُ كلٌّ أختَها فى عُبابه
وقد رُفعت فى رقصهنّ العقائرُ (٣)

فيطغى على قلبى السرور مُضاعَفاً
فقلبىَ من فَرْطِ السرور مُعاقِر (٤)

و يبلغ أنسى بالحياة مَبالغاً
فؤادىَ عنها منذُ أرْملتُ قاصر

---

(١) حبائك الماء ، طرائقه والغضون على صفحته .
(٢) الذلاذل ، جمع ذلذل وهو أسفل الثوب .
(٣) رفع عقيرته ، أى صوته .
(٤) المعاقر ، المدمن شرب الخمر .

لقد غَبَّنى حتى نسيت مَذاقه
وأنكرهُ منّى على الكرْه ناكر (١)

فثُبْتُ إلى نفسى على الفُلْك مسْهَداً
وحيداً فقد طاحت بزوجى المقادر

وعاودنى وَجْدى وشدّ مُخَنَّقى
وغامت على عينى الدموعُ البوادر

وأُذهلتُ عمّا بين سمعى وناظرى
كأنْ ليس لى سمعٌ ولا لِىَ ناظر

عبد الرحمن صدقى

---

(١) غبه أى انقطع عنه زمنا .

THE 400th. BIRTHDAY OF CERVANTES

HENRY BAERLEIN

ميجويل سرفانتز*

ذكرى مرور أربعمائة سنة على مولده

[الكاتب سرفانتز من أعظم كتاب العالم بكتابه « دون كيخوت » . وقد أردنا أن يعرفه العالم العربى ويساهم فى ذكراه بنشر هذا المقال .]

فى ذات مساء فى القرن السابع عشر ، كان الملك فيليب الثالث الأسبانى يطل من نافذة قصره فى مدريد ، فرأى منظراً عجباً : رأى طالباً يسير جيئة وذهاباً إلى جانب النهر ، وهو يقرأ فى كتاب ، وبين حين وآخر يضرب رأسه بيده ، وينطلق فى قهقهة عالية . فقال الملك : — هذا الرجل إما أنه مجنون وإما أنه يقرأ « دون كيخوت » .

إن شهرة مؤلف ذلك الكتاب كانت متأخرة ، ولكن حياته كانت مليئة بالمفاجآت ؛ وتاريخ ميلاده غير معروف تماماً ، غير أنه عمد فى كنيسة قلعة هنارس فى ٩ أكتوبر سنة ١٥٤٧ ؛ ولذلك يرجح أنه ولد فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر ، حيث يقع عيد القديس ميخائيل ، وقد سمى ميخائيل أو ميجويل بالأسبانية تبركاً به . وكان أبوه بيطاراً . وفى سنة ١٥٧٠ انضم إلى الجيش الشهير الذى ألفه دون جوان النمساوى ، وفى السنة التالية ، كان على ظهر السفينة مركويزا فى موقعة ليبانتو ، وأصيب بالحمى ، ولكنه أصر على الاشتراك فى الموقعة ؛ فأصيب بثلاث قذائف اثنتان فى الصدر ، والثالثة فى اليد اليسرى ، فشلت للأبد ، ومع ذلك لم يزد فى الاشارة إلى هذا الحادث على قوله : « نعمت اليد اليمنى » .

وفى سنتى ١٥٧٢ ، ١٥٧٣ اشترك فى وقائع حربية أخرى ، فكان عند

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

احتلال تونس وقام بأعمال الحراسة فى نابولى وبالرمو ، فلما أتم عمله وعاد قاصداً بلاده فى سبتمبر سنة ١٥٧٥ ، حمل معه رسالة من دون جوان إلى فيليب الثانى ، يلتمس فيها القائد ترقية حامل الرسالة ، فكانت هذه الرسالة سبباً فى مصابه ؛ إذ أسر قرصان البربر السفينة التى كان عليها فى مياه مارسيليا ، وبيع فى سوق العبيد ، ووجدت الرسالة معه ، فظن أنه رجل كبير الشأن . ولما ذهب قسان إلى الجزائر لاستخلاص الأسرى ، وقد اشتراه رجل يونانى اعتنق الاسلام اسمه دالى مالى ، عرضا على سيده ثلاثمائة بيزيتا فدية له ؛ فأبى السيد قبول هذا المبلغ ، مع أن أخاه رودريجو عاد مع القسين . ولقد حاول ميجويل الفرار عدة مرات ، وفى إحدى هذه المرات هدده حسن باشا الوالى بالقتل ، ولكنه رأى من مظهر البطولة فيه ما جعله يعدل عن هذا الحكم . وفى سنة ١٥٧٨ حكم عليه بالجلد ألفى جلدة ؛ إذ كتب إلى حاكم وهران يلتمس مساعدته فى الفرار إلى أسبانيا ، على أن الحكم لم ينفذ. وأعيد أخيراً إلى بلاده فى سنة ١٥٨٠ ، بعد أن استطاع أهله أن يجمعوا فيما بينهم فدية كبيرة . وقد نزل إلى أرض بلاده فى بلنسية بصحبة بعض الجنود العائدين . وساروا فى موكب على قرع الطبول ونفخ المزامير ، وكانوا عارى الرءوس فى أسمال بالية ، على حين كان المنادون يبيعون للناس أوراقاً فيها وصف لقصتهم ؛ وقد قام القسوس بطبعها وبيعها لاعانة هؤلاء الجنود . ويظهر أنه لم يصب سرفانتز شئ من هذه الاعانة ؛ فقد ظل مقيما فى بلنسية لايستطيع الرحيل ، وكتب إلى أهله يطلب مالا ليتابع رحلته ، ويشكرهم شكراً جزيلا على التضحيات التى تحملوها من أجله ؛ واقترح أن يلجأوا لأحد الكتاب العموميين كى يضع التماساً يوضح ما أبلاه فى الحرب ، وما وقع له من أسر كى يمنح مكافأة على ذلك . ولكن فيليب الثانى كان فى شغل عنه ببلاد البرتغال التى تولى الكردينال هنرى عرشها لبضعة أشهر ، وكان فى السابعة والسبعين من عمره ومع ذلك التمس من البابا سستو الخامس أن يسمح له بالزواج أملا فى أن يخلف وريثاً . ولكن البابا رفض أن يمنحه حق الزواج ؛ إذ كان على علاقة وثيقة بالبلاط الأسبانى . . .

وعاد سرفانتز أخيراً إلى أهله ليرى أن آماله أصيبت بخيبة كخيبة الملك الكهل .

كان مقدراً عليه أن يعيش عيشة صعبة ؛ وكان يؤنس فى نفسه البراعة فى الكتابة ، فتعاقد على أن يكتب مسرحية أو مسرحيتين فى زمن لم تكن المسرحيات فيه تعود بفائدة مالية . ومع ذلك أقدم على الزواج . ولم يكن مهر زوجته غير حديقة صغيرة وخمس أشجار من العنب وبعض الأثاث المنزلى وأربع خلايا نحل وعشرين دجاجة وديك وبوتقة . ولقد تبين له أخيراً أنه لايستطيع العيش بالأدب ، فذهب إلى إشبيلية حيث عمل فى جمع المؤن للأسطول العظيم المسلح « الأرمادا » . ولقد التمس أن يعين فى مركز بالمستعمرات كجواتيمالا أو فى إدارة الحسابات العامة لمستعمرة غرناطة الجديدة . ومن حسن الحظ أن رفض طلبه ، واضطر للاستمرار فى حياة البؤس بأسبانيا يساعد فى تموين السفن .

لم يكن سرفانتز رجلا يحسن الأعمال ، فسبب له هذا الأمر متاعب كبيرة ؛ فلقد أودع أحد التجار مالا ؛ ووعد التاجر بتسليمه إلى الخزانة الحكومية بمدريد ، ولكنه لم يفعل بل هرب بالمال ، وسجن سرفانتز لهذا السبب . وكان عندئذ فى أشد حالات البؤس ، ولقد عرف السجن فى جهات أخرى مثل أرجاماسيللا ، وهى مدينة حقيرة فى لامانكا إلى الجنوب من مدريد ، وقد أرسل إليها رسولا من رئيس دير لجمع متأخرات الضرائب فى تلك الجهة ، فهجم عليه جماعة من الأشرار واغتصبوا المال ، فوضع سرفانتز على أثر ذلك فى السجن ؛ وهو عمل ظالم . كان ذلك على الراجح بأمر دون رودريجو باتشيكو ، عمدة أرجاماسيللا وبطلها الوحيد . وقد انتقم سرفانتز منه فخلده واتخذه علما باسم دون كيخوت ورفعه فوق جواده روزينانتى .

ولما كنت من المعجبين بسرفانتز فقد رغبت فى الحج إلى أرجاماسيللا وهى تبعد عن طريق السكة الحديدية ، والطريق إليها وعر غير ممهد ، وقد وضع بعضهم معالم للطريق من الحجر المنحوت قبل سنوات ، وهى فى شكل أهرام صغيرة ، وكان منظرها حسناً ولكن الحشائش نمت حولها حتى غطتها ، ويروى أزورين الكاتب الأسبانى أن جيران ارجاماسيللا يقولون إنها قرية موبوءة ؛ إذ أن مياه النهر تغمر أرضها وتؤلف بركاً راكدة تتصاعد منها الأبخرة التى تؤثر فى السكان . ولقد كان فى تلك القرية سنة ١٥٧٥ ستمائة بيت ، فبلغ عدد بيوتها فى سنة ١٩٠٥ سبعمائة واحد عشر بيتاً فقط . وترى

المدينة دائماً نائمة يخيم عليها الهدوء ، والأبواب مقفلة عادة ، والشمس تضرب حوائط دورها البيضاء ، والساحة مهجورة لا يقطعها إلا كلب هزيل بين حين وآخر .

ويخيم الظلام عادة على الكنيسة القابضة ، وقد غطيت النافذة التي ينفذ منها الضوء ليضيء صورة شهيرة بغطاء أسمر . وقصدت راعي الكنيسة وهو شخص عجيب في شبه غيبوبة ، وطلبت منه أن أرى صورة دون كيخوت، فقال إني لا أعرف شيئاً عن ذلك، وأنا مثقل بالأعمال مع تقدمي في السن ، ولكن هنالك الصورة التي تزار !

وكانت هنالك عجوز تمسك غطاء النافذة ، فقال الراعي : « سوف تساعدك فهي تفهم . » ثم خرج وتبعته المرأة ، ولكنها عادت بعد دقائق ومعها علبة كبريت وتسلقت المذبح وأضاءت إحدى الشموع الكبرى ، وأمسكت بها بأصابع مرتعشة ، وصاحت: هذا هو الوجه الذي تعرفه ، وجه « السيدة العذراء » .

ورأيت دون رودريجو باشيكو راكعاً في الركن اليساري من الصورة ، ووجهه عصبي ، وعيناه قلقتان ، وعظام وجنتيه بارزة ، ذو لحية مدببة ، وله منظر الفرسان بما يبدو عليه من ألم مع تكبر ، وكأنه خارج من إحدى صور المصور الجريكو .

قالت العجوز وهي تقترب بشمعتها الخطرة : « هذا باشيكو، ومن وجهه ترى ياسنيور أنه كان مجنوناً . رباه ! ليس هنالك مايعمله الانسان في جنونه غير الصلاة ! »

وسألتها الطريق إلى مكان السجن ، فصاحبتني واخترقنا عدة شوارع مرصوفة بالحجر الصلد غير المتساوي ، وكانت الدور حقيرة جدا وقد طليت بالطلاء الأبيض. ويقع السجن في ركن من أركان أحد هذه الشوارع في دار عادية، وفي فناء الدار باب قديم ظل قائماً مئات السنين يسد المدخل إلى سجن سرفانتز ، وبعد أن ينزل المرء درجتين أو ثلاثا يجد غرفة مظلمة عارية مستطيلة وأرضها تراب ، هنا كان يرقد سرفانتز ، وعلى الضوء الذي ينفذ إليه من تحت هذا الباب ، كتب الفصول الأولى من كتابه .

وكان وهو يكتب كتابه هذا يفكر بلا ريب في الماضي : في ذلك اليوم

من سنة ١٥٩٥ حين نال الجائزة الأولى فى مسابقة الشعر فى سرقسطة ، وقد أقيمت فى عيد القديس هيا كنت ؛ وكانت الجائزة عبارة عن ثلاث ملاعق من الفضة . وقبل ذلك بثلاث سنوات اتفق مع رجل اسمه روزاريو على أن يكتب ست مسرحيات نظير مبلغ ٥٠ دوقية ، على ألا يدفع روزاريو أى قسط من المبلغ قبل أن يتبين له أن هذه المسرحيات هى خير ما أخرج فى أسبانيا ! ولم يسفر هذا الاتفاق عن شئ . ولابد أنه فكر فى أيام الأسر فى الجزائر وكيف اشترك فى ثورة أثارها الأسرى الأسبانيون . . . ألم يكن مثله مثل غيره من الغزاة الأسبانيين أمثال كورتيز وبيزارو ؛ أو مثل القديس لويولا ذلك الجندى المغمور الذى تمكن بقليل من الرجال أن يفتح العالم روحيا !

أما قصة « دون كيخوت » فقد ظلت بعض الوقت يتناقلها الكتاب وهى مخطوطة ، ورآها على هذه الصورة لوبى دى يجا الكاتب الخصب الذى ظن وقتا ما أن مابها من نقد موجه إليه . وهو أول من أشار إلى « دون كيخوت » فى كتبه إذ قال : « ليس بين الشعراء من بلغا فى سوء القصد مبلغ سرفانتز وفى الجنون مبلغه ؛ إذ نوه بدون كيخوت . »

وقد نشر المؤلف كتابه العظيم لأول مرة فى سنة ١٦٠٥ ولكنه وصفه فى المقدمة بقوله : « ليس فيه من المزايا الا ما يمكن أن ينشأ فى السجن! »

ورسم المؤلف لنفسه صورة إذ يقول عن نفسه : « جسده ليس بالنحيل ولا بالممتلئ ، وهو لا بالطويل ولا بالقصير ، ينحنى قليلا عند الكتفين ، ويسير على قدميه فى غير خفة . شارباه طويلان وفمه صغير ، ولم يبق له إلا أسنان قليلة فى حالة سيئة ولا تناسب فيها . »

وجد « دون كيخوت » فى وقت قصير إقبالا منعدم النظير ، ولكن بالرغم من شهرة الكتاب ، كان سرفانتز بعد خمسة شهور من نشره فى فاقة شديدة حتى اضطر إلى اقتراض أربعمائة وخمسين ريالا من ناشره .

ولكى نعرف من هو فارس لامنكا يجب أن تكون لدينا صورة كاملة عنه ، ونتخيله منكبا على قراءة كتب البطولة ، ونسمعه يتكلم إلى الأبطال والسحرة ، ونراه يسبح فيما وراء العقل فى عالم من الخيال والمجد ؛ فهو يمتطى جواده العتيق ، وعليه درعه التى علاها الصدأ ، فيقطع الجبال والأودية

باحثاً عن المغامرات الجديرة بسيفه . ونرى كل شئ يتغير أمام خياله الخصب ؛ فالسيدات اللاتى ينقذهن من سحر السحرة إن هن إلا نساء عاديات فى طريقهن إلى أعمالهن فيدخل الرعب إلى قلوبهن . والمردة الذين يهجم عليهم فى شجاعة ليسوا إلا طواحين — والطواحين فى لامنكا صغيرة الحجم جدا — وهو يقول لتابعه : « إلزم الهدوء يا صديقى سانشو ؛ فان أمور الحرب أكثر من أى شئ آخر عرضة للتغيرات المستمرة . وفضلا عن ذلك أظن بل أعتقد أن الحكيم فريستو أحال هؤلاء المردة طواحين عامداً لكى يحرمنى مجد التغلب عليهم . » ودون كيخوت شجاع ليس له غرض وهو إنما يحارب من أجل الفضيلة . وإذا كان يبغى أن يقيم ملكاً فذلك لكى يهبه لتابعه الأمين .

قال مونتسكيو : «إن السيد يحافظ على ممتلكاته ، ولكنه لا يحافظ مطلقاً على حياته . » والصفة الكبرى والأولى فى دون كيخوت هى شجاعته التى لاشك فيها . ولقد اشتهر السادة الأسبانيون فى القرن السادس عشر بشجاعتهم حتى نوه بها عدوهم اللدود سير والتر رالى . فهو يقول فى كلامه عن المستكشفين الذين كانوا يبحثون عن أرض الذهب : « لقد مرت عليهم السنوات الطويلة وهم يبحثون فى منطقة ضيقة . ولقد أنفق بعضهم مجهوده وثروته ثم حياته فى البحث عن أرض الذهب دون أن يصل إلى نتيجة ، ولكنهم كانوا لا يعرفون اليأس . » وكان فى دون كيخوت عنصر آخر خير من الشجاعة ، هو شجاعة الرجل المزود بالايمان الروحى حين يحيط به الخطر أو تلم به الحيرة .

وتتجمع فى دون كيخوت كل أنواع الجنون التى وصفها شكسبير — جنون المعتوه والمحب والشاعر . ولقد قال يونامونو الكاتب الأسبانى : « لقد فقد عقله كى يكون لنا مثالا دائماً للسخاء الروحانى ، ولقد قدم لشعبه أكبر تضحية وهى عقله ، فصار خياله مليئاً بمضحكات جميلة . وأعتقد أنه الصدق ما كان جميلا فقط » . وقد توج نفسه بقوة ساعده إمبراطوراً على طرابيزون على الأقل ، فشكا سانشو قائلا: «إلى أية حالة سيئة بلغ عقلك يا سيدى ! » وكان يظهر له جنون سيده فى تركه المال سعيا وراء المجد . فالرجال من أمثال سانشو يعتبرون المعتوه عاقلا إذا كان عقله يحول بينه وبين الغنى !

لقد صب سرفانتز عصارة نفسه فى بطل قصته فى سيل من العطف والفكاهة

فصار رمزاً للانسانية المليئة بالخيال . ومستر بكويك الذى خلقه الكاتب ديكنز هو صورة من هذا النوع ؛ فهو نوع من دون كيخوت إلا أن به تعلقاً بشراب اللبن وجعة الزجاجات . ولقد احتذى ديكنز فى العلاقة بين هذا السيد البسيط الطيب القلب وبين سام ويلر الرجل اليقظ النبيه ما كان من علاقة بين دون كيخوت وتابعه . فبين السيد وتابعه تجد العلاقة السهلة نفسها ، مع تلك النوبات التى يثبت فيها السيد وجوده . ونجد كذلك الكاتب ثيكرى يشير إلى ما وجده فى دون كيخوت من متعة فى رسالة كتبها وهو يستعد للكتابة عن الكولونيل نيوكم ، وهو دون كيخوت آخر .

قال سلفادور دى مدرياجا : « إن دون كيخوت عظيم وهو مسلح من قمة الرأس إلى القدم . ولقد نشأ من نبات أفكار سرفانتز ، وزادت من قدره التجارب والمغامرات بمرور ثلاثمائة عام ، وهو يسير ممتطياً جواده فوق ذلك الميدان المترامى من النفس البشرية » .

وقال سرفانتز فى مقدمة كتابه الخالد : « إننى فى الظاهر والد دون كيخوت ولكنى فى الحقيقة زوج أمه » فهو بالغريزة ، التى هى تاج المواهب للعبقرية الخالقة ، عرف أن دون كيخوت هو ابن الطبيعة لا ابنه هو ؛ وتكهن أنه بمرور العصور سيبلغ عظمة أكبر مما قدرها له زوج أمه . ولقد طال الجدل العقيم فى هذه المسألة ، وهى هل كان سرفانتز يريد أن يمنح أشخاص روايته قيما رمزية ، ولو أنه أراد أن يرمز لمعنويات لأخفق فى إخراج عمل فنى ؛ ولكنه لم يهتم إلا بخلق شخصيات ، وهذا هو السبب فى أنه أبرز للعالم رموزاً دائمة . فكما أن الحجر يلقى على وجه الماء فيحدث دوائر تزداد اتساعاً ، مع أن سقوطه لم ينشأ إلا عن اتباع قوانين الجاذبية ، كذلك المؤلف الذى يستطيع لمس بحر الروح يحدث فيها دوائر أكبر من أن يدركها البصر . فدون كيخوت وسانشو ودون جوان وهاملت وفاوست هم الخمسة العظماء الذين خلقهم خيال الانسان ، وفى كل جيل كان يحاك حول أسمائهم نسيج جديد من الأساطير والآراء والتفاسير والرموز . وهذه مزية المخلوقات الفنية الحية التى تفرض شخصيتها بمجرد حيويتها على عقول الناس .

لقد ذكر الأستاذ هربرت جريرسون ، وهو يكتب فى سنة ١٩٢١ بعد الحرب العالمية الأولى ، أن الكتب التى كانت تجد إقبالا من القراء أثناء

النضال هى الكتب ذات الموضوع الانسانى الخالص لا الفلسفية ولا الدينية ، لا العاطفية ولا المجردة من العاطفة ، بل الكتب الانسانية الممزوجة بشئ من السخرية البسيطة ، وفيها حرارة الاتصال العاطفى لا العطف . وكان كتاب «دون كيخوت» فى طليعة هذه الكتب ؛ ففيه دليل على ما تقترفه الأقدار أحياناً، وفيه ذلك المزيج بين التسلية وحب الانسانية واحترامها ، مما هو خليق بتلك الفترة التى شهدت تضحيات وآلام هائلة . وأضاف الأستاذ جريرسون قائلا : إن قصة دون كيخوت تخفف النقد اللاذع للطبيعة الانسانية بأن تصب عليه نهراً من الفكاهة المستمرة العاطفة . فبطلا القصة وإن كانا مضحكين فهما محبوبان وقريبان إلى القلوب . ومن عادتنا عندما نتكلم عن سرفانتز أن ننسى مؤلفاته الأخرى . ومع ذلك فقد وصف جون ماب حين نقل « القصص المثالية » إلى اللغة الانجليزية هذه القصص فقال : « إنها تحتوى على أنواع من المتعة » . ومع ذلك يجب أن نعترف بأن المتعة مضاعفة لدى قراء «دون كيخوت» .

كان سرفانتز يكتب على مهل. ولقد وعد وعداً غامضاً بتكملة قصة « دون كيخوت » كما نشرها أولا . ولكن هذه التكملة لم تكن لتظهر لولا أن أحد الناس جرؤ على نشر تكملة مزيفة لها . فدفع هذا الأمر سرفانتز إلى الكتابة بالرغم منه ؛ إذ كان وقتئذ فى صحة سيئة ، لابسبب آلام جراحه وحياة الفاقة فحسب ، بل كذلك بسبب إصابته بنوبة من ضغط الدم شديدة ، وعلى ذلك أخرج للعالم الجزء الثانى العظيم من هذه القصة ، حيث نجد الفكاهة أدق وأعمق والأسلوب قد زاد حسناً .

فالفارس الذى كان ضحية فى الجزء الأول للاعتداء وهراوات الخصوم فى مواقف لا عداد لها ، نراه طوال الجزء الثانى لا يتعرض لما يمس كرامته ؛ فى حين أن سانشو يفقد شيئاً من مكر الفلاحين ، ولكنه يكسب كثيراً فى هزله وذكائه ومسلكه . ولقد زاد حب سرفانتز لبطليه ، وهو يكتب بتلك الثقة التى يجدها الكاتب الشهير حين يعمل للمحافظة على شهرته .

ولكنه ، على عكس شكسبير ، لم يبلغه الرخاء فى سنواته الأخيرة من حياته . ويروى دى توريز الذى رخص بنشر الجزء الثانى أنه عندما زار فرنسا فى سنة ١٦١٥ فى صحبة رئيس الأساقفة ، أن الكثيرين من الفرنسيين كانوا يريدون أن يقفوا على دقائق حياة سرفانتز ، فأخبرهم بأنه فى كهولته ، وقد كان

جنديا ، وهو من أسرة طيبة ، ولكنه فقير . فقال له أحدهم : « لماذا لا تساعد الخزانة العامة مثل هذا الرجل ؟ » فاعترض آخر قائلا : « إذا كان الفقر يرغم سرفانتز على الكتابة فأرجو ألا يعرف الرخاء مطلقاً لأن فقره يغنى العالم » .

صار سرفانتز بعد كتابته « لدون كيخوت » من عظماء الكتاب فى كل العصور : لقد قيل إن الأطفال يقلبون أوراق كتابه ، والشبان يقرءونه والرجال يفهمونه ، والشيوخ يمتدحونه — ويقرأه القراء بعدد كبير من اللغات — وقد نقل إلى اللغة الانجليزية إحدى عشرة مرة . ورأيت فى مكتبة خاصة بأفيلا مائة وخمسين طبعة بالأسبانية ، منها طبعة فاخرة طبعت لذكرى مرور ثلاثمائة سنة على ما حدث فى أرجاماسيللا وفى الغرفة نفسها التى سجن فيها وكتب الفصول الأولى من الكتاب .

سأل لويس الرابع عشر أحد رجال بلاطه : هل يعرف اللغة الأسبانية ؟ فأجاب أنه لا يعرفها ، ولكنه يعتقد أن يستطيع فهمها والتحدث بها فى مدة قصيرة جدا . وقد خيل إليه أن الملك يريد تعيينه سفيراً له فى مدريد فأكب على دراسة هذه اللغة بهمة ، فلم تمض بضعة أشهر حتى استطاع أن ينبئ الملك بنجاحه . فصاح لويس : « إنك لرجل سعيد إذ تستطيع الآن أن تقرأ كتاب « دون كيخوت » بلغته وتتذوق سحره وجماله ! . . . »

كان عقل سرفانتز أكثر نفوذاً من عقل أى كاتب آخر إلى أعماق الشعب الأسبانى ، وكان يعرف دخيلة النفس الأسبانية . ففى كتابه الخالد يرسم بوضوح الفرق البين بين العدالة الأسبانية وبين العدالة اليومية التى تتمثل فى القوانين والمحاكم : يرسم الأولى فى دون كيخوت ، ويرسم الثانية فى سانشو بانزا . فالأحكام التى تأتى فى سياق الكتاب ونراها معتدلة متزنة حكيمة هى التى تصدر عن سانشو بانزا عندما كان حاكماً لجزيرة ، أما أحكام دون كيخوت فتقام على العدالة الأولية ؛ فهو فى حماسته يميل أحياناً إلى جانب وأحياناً إلى الجانب الآخر . وهو يقدم على مغامراته للاحتفاظ بالمثل العليا للعدالة فى العالم ، فعند ما يعثر على أولئك العبيد الذين يشغلون فى السفن ويتحقق لديه أنهم مجرمون يعمل لاطلاق سراحهم !

كان سرفانتز يرى الأسبانيين على حقيقتهم ؛ فهم يضعون لأنفسهم قيمة خاصة ، فلا يرون أنفسهم . وهو يرسم بلاداً أسبانية متعلقة بمثلها العليا التى

لم يبق لها مجال ؛ ولذلك فهى فى الطريق المؤكد للخراب فى سبيل خلاص تلك المثل .

ومن المحتمل جدا أن شكسبير ، عندما اتخذ ستراتفورد مقاماً له فى آخر أيامه وعاش فيها فى رخاء ، قد قرأ ترجمة توماس شلتون لكتاب « التاريخ الممتع للفارس الذكى دون كيخوت » الذى ظهر فى سنة ١٦١٢ وقد أهديت هذه الترجمة للورد هيوارد دى والدن الذى صار ايرل أوف سفولك ، وكان يشمل شلتون بعطفه . وكان للادى سفولك راتب سنوى قدره ألف جنيه تتسلمه من النفقات السرية لملك أسبانيا . وقد يكون شلتون شريكاً لها ، وهو لمعرفته اللغة الأسبانية ذو فائدة فى هذا الباب . ولكن يجب أن نغتفر الكثير لهذا الرجل الذى نقل هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزية نقلا ممتعاً مما جعله من عيون الأدب الانجليزى .

وكان يوم ٢٣ أبريل سنة ١٦١٦ هو اليوم الذى مات فيه شكسبير الشاعر الانجليزى العظيم ، ومن المصادفات الغريبة أنه كان اليوم الذى مات فيه سرفانتز كاتب أسبانيا العظيم ، وانتهت حياته العاصفة .

ذكرنا فى سياق هذا المقال بعض آراء الكتاب الحديثين فى سرفانتز وفى مؤلفاته . ولنعرض الآن فى تفصيل لقيمة هذا الكاتب فى الفكر الحديث ، وكيف ينظر إليه النقد الحديث . لقد تعرض الناقد الفرنسى مارسيل بتايون فى كتابه « أرازم وأسبانيا » لسرفانتز وأبدى ملاحظات قيمة ، وهذا الناقد الفرنسى هو فى رأى الأستاذ ترند ، من أساتذة جامعة كامبردج ، « أكبر العلماء فى الأدب الأسبانى ممن هم على قيد الحياة ». فهو يرى أن بعض الناقدين أنفقوا وقتهم سدى إذ أرادوا أن يثبتوا أن سرفانتز هو طليعة أحرار الفكر الحدثيين ، فى حين أن مؤلفاته التى ألفت عند طغيان الموجة المضادة للاصلاح الدينى تتصل بالأدب الجدلى لعصر النهضة ، وما كان لأرازم من تأثير خفى فى هذا الأدب ، وهو ذلك التأثير الحر الحاد الذكى . ورسم أمريكو كاسترو فى كتابه « تفكير سرفانتز » صورة تجعله قريباً من الذين يغلبون العقل على الدين ، ولكنه كان عميقاً فى دراسته لسرفانتز حتى إنه لاخطر ، على قول بتايون، من اتخاذه دليلا وإن اختلف معه المرء فى مواضع قليلة . ولقد ظل سرفانتز حتى

نهاية حياته مخلصاً لآراء الشباب وللتفكير الذى ورثه عصر فيليب الثانى من عصر شارل الخامس . ومن الراجح جدا أن سرفانتز كان من تلاميذ اليسوعيين فى أشبيلية بين سنتى ١٥٦٤ ، ١٥٦٥ . ولقيت بذور الأدب التى زرعوها أرضاً خصبة . ويقول بتايون إن أسلوبه فى « دون كيخوت » هو مزيج ذو طابع شخصى قوى ، من رقة بوكاتشيو المزدهرة والترفع الملئ بالسخرية الذى نجده فى أريوستو والايجاز القوى الذى نجده فى خير تقاليد المؤلفين الأسبانيين . فهو يحب تقطيع الكلام المطول ، ونراه مع ذلك ينقل هذه العادة لدون كيخوت الرجل الكثير الأحلام والكلام ؛ ففى قصة « الأرملة المرحة » التى تختار شاباً لم يدخل فى الكهنوت ليكون صديقها بالرغم من نصح رئيسه له ، نراها تقول — وليس فى قولها ما يدل على عداوة لرجال الدين — : « كل ما أطلب أن يعرف من الفلسفة مقدار ما يعرفه أرسطو إن لم يكن أكثر » . ولقد تشرب سرفانتز عناصر الأساطير الشعبية مما يجعل لأسلوبه البساطة التى تسحر القارئ أكثر من الصنعة الكلامية . وهو أكثر من أى كاتب آخر من كتاب عصره يكتب كما لو كان يتكلم ، وينطوى مبدؤه الأخلاق على العفو والتسليم ؛ فمثلا نجد الزوج الغيور الكهل الذى خانته زوجته الشابة بالرغم من أنه أغلق بابها بثلاثة أقفال يتهم نفسه ويعفو عنها وتسوء حاله بقية حياته .

وكان سرفانتز ورعاً مستنيراً وحذراً . يذكر سرفانتز فى الطبعة الأولى من كتابه أن دون كيخوت مزق طرف قميصه وجعل منه سبحة بأن عقده عدة عقدات ليشيد بذكر العذراء مليون مرة . وفى الطبعة الثانية التى صدرت سنة ١٦٠٥ حور هذا الحادث فجعل سبحته أحسن حالا ، بأن جمع الحبوب وضمها فى سبحة ، على حين اختفت العبارة الخاصة بالعذراء من الكتاب . ويمكن أن يقال إنه لو لم تتأثر أسبانيا بارازم الذى نرى فيه مزيجاً من الحماسة والسخرية لما أخرجت لنا كتاباً مثل « دون كيخوت » .

ويقول بول هازار الفرنسى أيضاً فى رسالته المسماة « دون كيخوت » : إننا قد نجد فى هذا القرن العشرين وهو عصر السرعة مواضع من دون كيخوت مملة بعض الشئ ، ونجد تكرار المغامرات سهلا ويسيراً ، ولكن لا بد أن نعجب بما فى القصة من حياة مستمرة . ويقول فرنسيس جام : « إنى لا أضع أنشودة رولان فى مرتبة أعلى من دون كيخوت » . ولقد نقل دستويفسكى فى قصته « المعتوه »

صورة البطل الأسبانى إلى الحياة المعاصرة . فالأمير ميشكين على ما به من نقص جسدى ومرض وصرع يظل طيب الضمير عنيداً فى طيبته ، فهو لا يعرف السخرية ولا الكبر ولا الأنانية ، وهو يقطع الحياة محتفظاً بصفاء نفسه التى تشبه نفوس الأطفال ؛ ولقد وجدت روسيا فى بعض نواح من « دون كيخوت » شيئاً من نفسها ؛ لذلك تبنته فى رفق .

ومن خير ما قيل عن سرفانتز ما كتبه الأستاذ أنتوستل أستاذ الآداب الأسبانية فى أكسفورد فى كتابه عنه ؛ فهو يقول : إن كتاب « دون كيخوت » لا يختلف عن كتاب أورلندو الساخط لاريوستو إلا فى أنه كتب نثراً ؛ ففيه نفس العطف المشرب بالسخرية على مثل أعلى يستحيل تحقيقه ، وفيه نهر طاغ من الآراء المبتدعة . على أن إريوستو اعتمد على ما فى خياله من جدة وجمال فى حين عالج سرفانتز مسألة هامة هى مسألة الحقيقة ؛ فقد صور أغراضاً وأعمالا رفيعة ترتطم بعالم الحيلة والسوء ، فكشف عن الصفتين السائدتين فى عصره ، حيث نجد الحديد الصدئ تحت قبعة الفرسان . فعقله وعقل بطله يحلقان نحو الكمال الذى يبدو سهل التحقيق فى ضوء العقل والطبيعة ، ولكن بطله يصطدم بحقائق لا يمكن ردها ، وهو نفسه بدلا من أن يجد عوناً من الخزانة العامة (كما ظن الفرنسيون) وجد نفسه ، وقد بلغ الثامنة والستين ، رجلا « كهلا كان جنديا وسيداً عاش فقيراً » .

فهذا المعنى المزدوج الذى يرفع « دون كيخوت » فوق جميع مؤلفات العصر ماعدا «هاملت» ، جعل النقاد الأسبانيين يلحقونه ، بالمظهرين اللذين سيطرا على العصر الذهبى فى أسبانيا ، وهما التفاؤل والرفعة بتأثير إرازم وإنسانيته ، وذلك الانغماس الخادع فى حركة مقاومة الاصلاح الدينى ، ومن تشبيهات أمريكو كاسترو التى تنطبق على هذه النظرة التى لحمتها قيام وجهين مزدوجين للحقيقة طست الحلاق الذى ظنه دون كيخوت غطاء الرأس للفارس ؛ وهو مثال حسن وإن كان مبالغاً فيه . على أن كتاب «دون كيخوت» سيظل قصة من نسج الخيال ليس لها غرض ظاهر إلا القضاء على نوع من الأدب كان سائداً قبل عصره ، فهو إذا كان صورة من عصره فليس عظة لذلك العصر . أجل ! إن سرفانتز الشاب تأثر بتعاليم إرازم ، وكان متفائلا بعقيدته ؛ فقد كتب حتى فى وصيته الأخيرة يقول : إن هناك كتباً بديعة كان لا يزال على استعداد لتكملتها ،

ولكنه ظل مديناً طول حياته . وإذا كانت الرجعية الدينية وما أصاب بلاده من خسائر قد حدت من آماله ، فقد قابل الكوارث بشجاعة أصيلة فيه ؛ ولم يكن معلمه الحقيقى هو تغلب الرجعية الدينية أو خسارة الأسطول الأسبانى ، وإنما الذى علمه هو الأيام واضطراب حياته . يقول انتوستل: لم يأت كاتب يهتم بالايضاح مثل سرفانتز ؛ فهو دقيق فى شرح القواعد لكل شئ حتى طريقة الوقوع فى الحب . وكان الكثيرون من أكبر الكتاب بين المعلمين ولكن القليل منهم عالج موضوعات كثيرة مثل سرفانتز الذى كان يعتقد فى تعقل الطبيعة وتعليم الخير ؛ فكان فيه الفيلسوف الاجتماعى والأخلاقى وإن لم يكن له تدريبه وتعليمه .

وقال الأستاذ كير أستاذ الشعر فى جامعة أكسفورد مقارناً بين فيلدنج الكاتب الانجليزى وسرفانتز : إن الأول كان له الثانى من قبل مرشداً ، وعندما رأى فيلدنج أن مؤلفاته تنمو تحت يده إلى شئ أكثر مما كان يظن عرف مصدر هذا . وكان ينوه بفضل سرفانتز عليه . أما سرفانتز فلم يكن يتصل بأحد من قبل حين خرجت مؤلفاته من أصول عقله ، حمله نبوغه إلى أبعد من غرضه الأول وهو التشهير بقصص الفروسية ، ولكنه لم يستطع التخلص من ثقل القواعد الأدبية فى عصره والأساطير الغرامية وغيرها . ويقول كير إن سرفانتز من كتاب الفكاهة ؛ لذلك يستطيع أن يفكر فى أكثر من موضوع فى وقت واحد ؛ والكثيرون من ناقديه ليست لديهم هذه المقدرة ؛ لذلك هم يتبعون خطا واحداً من تفكيره على حين يرى الكاتب إلى عدة أغراض فى وقت واحد . ولقد رأى هيجل هذا فى سرفانتز فتبين له أن الفروسية التى كان الكاتب يسخر منها ويهزأ بها فى شخص دون كيخوت هى فى الحقيقة صفة من صفاته الثابتة ، وأن القصة التى تنطوى على المبالغات التى كان فى الظاهر يطاردها من العالم إنما خرجت إلى هذا العالم فى ثوب جديد . ونجد مثل هذا التناقض مع التناسق فى قصة من خير القصص التى أخرجت بعد « دون كيخوت » ، وهى قصة « كنيسة نورثانجر » للكاتبة الانجليزية مس أوستن ، وهى أضيق أفقاً من الكتاب الاسبانى وأقرب بلوغاً إلى الكمال ؛ فان دون كيخوت ، على قول كير ، مؤلف عظيم غير معتنى به ؛ لأنه ملئ بالمغامرات وفيه من تنوع الأساليب والأغراض الأدبية ما يجعله فوضى .

ونحن الذين نعيش اليوم —و إن كنا أقل حياة من بطلى سرفانتز الخالدين— نلخص حياته فى القول بأنه رجل سمح ودود يعرض للأحوال الاجتماعية دون أن يوجه النقد إليها . وكان يشعر كل الشعور بالماضى ، ولكنه يعيش فى الحاضر وسيعيش إلى الأبد . وقد يحسن الاختتام بعبارة دون كيخوت فى وداعه: « ليست هنالك عصافير فى هذه السنة فى عش الطيور الذى بنى فى العام الماضى . »

هنرى برلين

نقلها عن الانجليزية ز . ى . ع .

بين الخرائب والأطلال

« لكيلانسى ! . . . »

فى ميدان كرستوف كولومب بميناء برشلونة ، وعلى بعد بضعة أمتار من ساحل البحر الأبيض ، ترى بناء مهدماً من الطراز القوطى العتيق ، تكاد العين تنكر مكانه فى هذا الميدان الجميل ، لولا ما يلوح عليه من آثار مجد قديم . وليست ضخامة البناء هى التى تروعك ، وإنما يروعك منه تفرده وجلاله ، على رغم ما نال منه البلى وأخذ الزمان . . .

قيل لنا : هنا المتحف البحرى Museo Maritimo . وفتح أمامنا بابه الضخم العتيق ، فدخلنا نشق طريقنا بين خرائب وأطلال قدستها أسبانيا الجديدة فتركتها كما هى : بترابها وأنقاضها وأعشابها ، بقية من دار الصناعات القديمة Atarazanas التى كانت هناك ما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر .

ثم ما لبثنا أن رأينا وسط هذه الخرائب ، صالات من أفخم صالات العرض وأحدثها طرازاً وأجملها تنسيقاً ، تقدم لنا نماذج ولوحات وصوراً ، للسفن الأسبانية الأولى وبناتها الخالدين ، وترينا آثارهم التى تركوها ، وتتلو علينا أناشيدهم وأغانيهم .

يحسب الزائر الغريب حين يرى هذا المتحف الحديث بين الخرائب والأطلال فى المبنى العتيق ، أنها صورة واحدة ، تألفت هكذا بمحض المصادفة ، أو لاعتبار مادى من الانتفاع بالمبانى القديمة توفيراً واقتصاداً ، لكنه لا يلبث غير بعيد حتى يدرك أن ما حسبه قد قام بمحض المصادفة أو لاعتبار مادى قريب ، لم يكن سوى اتجاه مقصود مسدد ، لضم الجديد إلى القديم ، وبناء الحاضر على الماضى .

وذلك هو طابع الحضارة الأسبانية اليوم .

ترى مثل هذا الطابع المتميز فى متحف برشلونة ، إذ تسلك إليها طريقاً قديماً ضيقاً ، تقوم على يمينه الكاتدرائية العتيدة التى تبلغ من العمر ستة قرون ، ويقوم على يساره قصر محكمة التفتيش Palais de l'Inquisition وإلى جانبه متحف المخطوطات الشهير Archive de la Couronne d'Aragon الذى يعد ثانى متحف من نوعه فى العالم ، فليس يفوقه سوى متحف الفاتيكان .

وينتهى بك هذا الطريق الأثرى الذى تحف به المبانى الأثرية ، إلى مبنى جميل حديث الطراز ، تحسبه مسكناً لوجيه من سراة القوم . فى هذا المبنى الجديد ، أطلال مدينة برشلونة القديمة .

تدخل من بابه الأول ، فتستقبلك صالة حديثة للعرض ، بها كل المؤلفات التاريخية عن مدينة برشلونة ، وفيها نماذج من القطع الأثرية المتخلفة من عهودها الأولى . ويمضى بك سرداب طويل منحدر إلى ما تحت البناء ، فاذا أمامك مدينة برشلونة بمقابرها وأطلالها ومعالمها ، فى عهدها الرومانى الأول (٢ ق.م : ٣م) . وإلى جانبها مدينة برشلونة فى عهدها الثانى إلى قبيل العصور الوسطى . هناك ترى الأحجار المتخلفة من خرائب المبانى التى هدمتها غارات البربر . وترى الحمام الرومانى القديم ، كما ترى المواقد والأوانى ، والمناسج والرحى . وقد أحيطت هذه المنطقة الأثرية بجدر واقية متينة ، وأقيمت بينها أعمدة من الفولاذ والأسمنت المسلح ، ثم شيد فوقها ذلك المبنى الحديث ، حيث سجلات المتحف ومكاتب موظفيه .

ودع مدينة برشلونة بمتاحفها وخرائبها ، وامض إلى لريدا ، وسرقسطة ، ومدريد ، تر مثل هذا الطابع سمة حضارتها . وهو يتجلى فى أروع صوره ، فى دير الأسكوريال ثامن عجائب الدنيا . أقيم هذا البناء الشامخ الفخم على أنقاض كنيسة صغيرة للقديس لورنسو San Lorenzo راعى الملوك الأسبان ، وكانت الكنيسة تهدمت فى غارة عدائية ، فأقام الملك فيليب الثانى هذا الأثر الخالد فى القرن السادس عشر تحية وترضية ، وقرباناً وذكرى . وشيد فيه جناحاً ملكياً ما يزال حتى اليوم محتفظاً ببهائه القديم ، وأثاثه الأول ، ولوحاته الرائعة التى تغطى جدرانه جميعاً . بل ما يزال حتى اليوم مبقياً على الفراش الذى لفظ فيه الملك فيليب آخر أنفاسه .

ويرى الأسبان أن الاسكوريال ، يمثل الروح الاسبانية فى بساطتها وقوتها ، واستقامتها وخلودها واعتزازها بقديمها . وهم لذلك يحرصون على أن يمضوا بضيوفهم إليه . وقد استقبلوا فيه قبيل رحلتنا ، السنيورا إيفا بيرون عقيلة رئيس جمهورية الأرجنتين .

•

ثم دع الأسكوريال بعظمته وبهائه ، واقصد إلى طليطلة على بعد سبعين ميلا من العاصمة ، وهناك التمس قصرها التاريخى الخالد **Alcazar de Toledo** على الربوة العالية التى تلتف حولها المدينة وتحف بها فى تقديس وإعزاز . قف على باب القصر المهدم برهة ، وطأطىء الرأس مهابة وإجلالا ، ثم اتبع الدليل وهو ينتقل بك بين الأطلال ، حيث أقامت أسبانيا أمجد وأحدث متاحفها القومية .

شيده شارلكان فى عهده الزاهر ، ثم صار إلى أكاديمية حربية حتى قامت الحرب الأهلية المعروفة ، فرأى فيه الأسبان حصناً منيعاً ، لاذ به جمع من البيوتات الكبيرة ، وأووا إليه بأرواحهم ، صفر الأيدى من الزاد والعتاد . . .

وأحاط الأعداء الحمر بالحصن محاصرين ، ولبثوا مقيمين على الحصار اثنين وسبعين يوماً ، وأهل الحصن ثابتون صابرون ، يحتملون من سرارة الهجوم وعنف الحصار ، مثل الذى يكابدون من قسوة الجوع وحرقة الظمأ . . .

ثم حانت لحظة حاسمة : من تلك اللحظات التى يقف التاريخ فيها مترقباً ينتظر كلمة واحدة ليوجه سير الأحداث ، ويقرر مصاير الشعوب . ظفر الأعداء بفرانسوا ، ابن الجنرال موسكاردى رأس المدافعين عن الحصن . وكان فرانسوا شابا يافعاً ، مات أخ له فى الحرب من قبل .

والتمس قائد الأعداء خصمه فى « التليفون » منذراً إياه بقتل ولده إن لم يسلم الحصن فى عشر دقائق . ثم بدا له فى تلك اللحظة أن يدع فرانسوا يخاطب أباه ، تأييداً لما ادعاه من ظفره به . وإثارة لعاطفة الأبوة فى القائد الشيخ . وأصغى الزمن إلى الشاب وهو يقول لأبيه :

— أموت يا أبى ، وتعيش أسبانيا . وداعاً .

وهناك فى هذا القصر المهدم ، ترى صورة الشاب الشهيد فى قاعة القائد ، وتقرأ الحديث التاريخى مسجلا فى لوحة علقت إلى جانب « التليفون » الذى صار أثراً قوميا . فاذا تركت القاعة ، ألفيت فى صدر الممر أمامها ، تمثالا

لموسكاردى القائد ، شامخ الرأس ، بادى العزم ، مهيب السمات . وينتهى بك الممر إلى « غرفة الشهداء » حيث ينتظرك مشهد رائع رهيب لا ينسى .

« لا تبك على هؤلاء الذين ماتوا من أجل الوطن . »

هذا هو نشيد الفداء ، يلقاك حين تلج الباب ، منقوشاً على الصخر ، يتوج هامات الشهداء . . .

ثم هذه هى أسماؤهم ، محفورة فى لوحات رخامية متراصة ، جنوداً وضباطاً قد جمعهم الجهاد القومى المشترك ، وسوت بينهم الميتة المجيدة التى ختمت حياتهم جميعاً فى ميدان واحد .

وتطل هذه اللوحات على قبر يتوسط القاعة : قبر بسيط خال ، أعد لموسكاردى البطل ، بين صفوف جنوده الخالدين .

ويقودك الدليل بين خرائب القصر ليريك قاعة أخرى تحت الأرض . إنها « غرفة الحياة » حيث ترى كل ما أبقى الحصار الطويل الناهك لأهل القصر من ذخائر ومؤن ، تركتها أسبانيا فى مكانها ، تتلو على الأجيال الخالفة ، آية الشجاعة ، ونشيد البطولة ، وقصة الفداء . . .

هنا حفنة من القمح لا تزن رطلا ، وكسرات من خبز قديد لا تشبع طفلا ، وقارورتان من اليودوفورم والكحول ، وثلاث علب صغيرة فيها بقية ضئيلة من المساحيق والعقاقير . . .

وهناك . . . واجهة زجاجية ، تحفظ ما كان فى القصر يوم أنقذ ، من أسلحة وذخائر . وأخرى بها الكوز الصفيح الذى كانوا يشربون به ، والأوعية البسيطة التى اخترعتها لهم الحاجة وصنعها الاضطرار .

أما صدر القاعة ففيه الفرن الذى ألفوه مما لديهم من متاع ، و «الموتوسيكل» الذى حوروه إلى طاحونة للقمح وآلة لرفع الماء !

بهذا الأسلوب تمجد أسبانيا شهداءها ، وتقدس ذكرياتها ، وتحيى أمسها .

إنها لم ترفع أنقاض القصر القديم ولم تنسف خرائبه ، وإنما اعتزت بكل ما بقى منه ، وأقامت على أطلاله متحفها القومى الحديث ، ومدرستها الوطنية الأولى . . .

وذلك هو أسلوبها المختار : تراه هنا فى طليطلة ، كما رأيته هناك فى برشلونة وسرقسطة والاسكوريال ، وكما ستراه بعد فى غرناطة ، حيث أقيم معهد الدراسات

العربية فى قصر قديم لأحد أمراء العرب بمحلة البيازين **Albaïcin** ، وكما سوف تراه حيثما توجهت وأنى ذهبت .

إنه طابع الحضارة الأسبانية : اعتزاز مؤثر بالتراث القديم ، وإصرار عجيب على الجمع بين الحضارتين الموروثة والمكتسبة ، وقدرة نادرة على مزجهما معاً ، وصوغهما صياغة قومية فى مهارة تدعو إلى التقدير .

ولعلك لا تخطئ هذا الأسلوب هناك فى اللغة وفى الفن ، كما لم تخطئه فى المعالم الأخرى للحضارة الأسبانية . فالطابع المتميز للفن الأسبانى ، هو تلك الروح الشرقية التى تأتلف بالأسلوب الغربى فى التعبير والأداء . وقد جمع هذا الفن عناصر واضحة من الشرق والغرب ، من القديم والجديد ، من الاسلام والمسيحية ، كما احتفظت اللغة الأسبانية بكثير من مفردات العربية وأساليبها فى البناء .

ولقد دهشت لهذا أول ما رأيته ؛ إذ كنت أحسب أن الأسبان يبرءون من الشرق والعرب ، ويحاربون كل ما هو شرقى عربى ، وعذرتهم فى هذا ، فما كنا نفعل سواه لو أنا مكانهم . لكن الغريب أنهم لم يعودوا يحاولون أن يقطعوا من تاريخهم هذه القرون الثمانية التى عاشها العرب هناك سادة وملوكاً ، أو يفصلوا من دمائهم العنصر العربى الذى سيط بالدم الأسبانى الأول ، واستحال بعد ذلك أن يتزايلا .

هم لا يحاولون ذلك ، أو لعلهم قد حاولوه فلم يستطيعوه ؛ فقد دخل العرب فى تاريخهم وفى دمائهم ، وتركوا أثرهم الخالد على أرضهم ، وخلفوا طابعهم الخاص فى فنهم وحضارتهم . والأسبان يعترفون بذلك فيقررون : « أن الغزو العربى قد ترك فى الاقليم أعمق الآثار . . . ولقد كانت هناك فترات اتصل فيها المسلمون بالمسيحيين وعاشوا فى صداقة وألفة ، فامتزجت العناصر العربية بالأسبانية امتزاجاً ترك أثره الواضح فى الفن والعادات المسيحية ، بحيث أصبح اسم (أسبانى) يطلق على المزارع المسلم فى عهد خليفة قرطبة ، كما يطلق على الفارس المسيحى من قسطيلة أو ليون . (١) »

كما يقررون فى مكان آخر « أن أهم خصائص الطابع الأسبانى ، هو ذلك الجو الشرقى الذى يسوده . فروح الشرق قد تعمقت فى صميم كل ما هو أسبانى ،

---

(١) *Spain,* p. 18

والاختلاط المستمر بالعرب قروناً ، ترك على أرض أسبانيا ، كما ترك فى روحها ، آثاره الواضحة الصريحة ؛ وهذا هو مايميز أسبانيا ويجعلها ذات طابع فريد بين بقية الأمم الأوربية الأخرى .

« One of the most typical peculiarities of Spain is its eastern atmosphere. The spirit of the East has soaked down into the inner essence of that which is Spain. A continuous association of centuries with Arabs has left in the land as in the soul of Spain visible traces. It is this what makes Spain unique among the rest of European nations. » (١)

وترى هذا الطابع الفريد — حيث العنصران حاضران ماثلان — فى الكنائس ، مثل كنيسة سان ميجويل فى ليون ، وسانت ماريا فى سانتندر ، كما تلمس الايحاء الشرقى واضحاً فى أكثر الكنائس الريفية . ولعل دير Guadalope أجمل مثال لذلك الطراز الجميل الذى يعشقه الأسبان . كذلك ترى مثل هذا الطابع فى الحصون مثل ترويل ، وسانتا كلارا ، وكوكا ؛ وفى قصر اشبيلية Alcazar de Séville بوجه خاص .

وإذا تركت المبانى ، ألفيت الطابع نفسه سائداً فى الصناعات الفنية الدقيقة ، حيث يعترف الأسبان بالأثر العربى القوى فيها ، وبخاصة فى العاج والنسيج والأسلحة والجلود ، والأسقف الخشبية .

والظاهرة العامة التى تلفت السائح الأجنبى اليوم اعتراف الأسبان بكل ما هو قديم ، لا يحول دون ذلك حائل من سياسة أو دين . فأسبانيا الجمهورية التى أنزلت الفونس الثالث عشر عن عرشه وأخرجته من وطنه ، احتفظت بتابوت فارغ بين قبور ملوك أسبانيا ، لتنقل إليه رفات ملكها الذى تركته يموت فى المنفى غريباً ، كما احتفظت لأمه بقبرها مع الملكات الأمهات فى المقبرة الملكية بالاسكوريال .

وأسبانيا المسيحية الكاثولوكية المتعصبة التى حاربت الاسلام فى إفريقية وأوربا ، لم تستطع أن تتجاهل الاعتراف بعظمة الخلفاء المسلمين الذين حكموها ، بل وضعتهم فى أماكنهم بين أعلام الأسبان . وهذا هو الكاتب

(١) *Spain*, pp. 18-20

الأسبانى المعاصر[1] ماريانو توماس Mariano Tomàs يؤلف كتاباً عن الخليفة عبد الرحمن الثالث ، حلقة فى السلسلة التى يكتبها عن مشهورى الأسبان *Espanolas Famoses* .

وفى الاسكوريال ، حيث الدير الأسبانى الأول ، وحيث الكاثوليكية المتعصبة تسود الجو وتسيطر على المكان ، ترى فى مكتبته الشهيرة هناك ، كنوز التراث العربى من المخطوطات النادرة ، قد أبقى عليها الأسبان واحتفظوا بها فى حرص بالغ . هناك ترى مصحفنا الكريم فى وسط بهو المعرض الفخم، مع كتابهم المقدس جنباً إلى جنب ، حين كان ينتظر من أمثال هؤلاء المتعصبين الذين أقاموا دولتهم المسيحية على أنقاض الدولة الاسلامية إثر صراع طويل دام ، أن يحرقوا كل أثر للعرب ، وأن يمزقوا قرآنهم كما فعلوا بمن ظفروا بهم من المسلمين . ولكن الأسبان الذين دفعهم الحقد والتعصب إلى مطاردة المسلمين و إذاقتهم فنون التعذيب وألوان النكال ، قد أدركهم الرشد فأبقوا على آثار العرب وكتبهم ، وتركوها تأخذ مكانها بين تراثهم الغالى . وهكذا ترى فى أسبانيا الحديثة قصر محكمة التفتيش قائماً فى مكانه إلى جانب كاتدرائية برشلونة ، كما ترى قصر الحمراء فى مكانه بغرناطة ، شاهداً على الحضارة العربية الزاهرة ، وصورة من المجد الاسلامى الأندلسى، وكما ترى نفائس المخطوطات العربية فى مكتبة دير الاسكوريال . وفى القسم العربى بالمكتبة الأهلية فى مدريد .

أكان الأمر عليهم سهلا هيناً ؟ إن آثار العرب هناك تجيب عن هذا السؤال بما لا تزال تحمل من ندوب الصراع الرهيب الذى عاناه القوم ، مترددين بين محو كل ما هو عربى إسلامى ، وبين الابقاء على ما صار قطعة من حياتهم وجزءاً من ماضيهم . فأنت تلمح مافعل بهم التعصب الحاقد فى تلك الصلبان التى أضافوها إلى مثل أبواب مسجد قرطبة الشهير ، وفى المآذن التى جعلوها أبراجاً للنواقيس ، وفى المساجد التى حولوها إلى كنائس

---

(١) طبع هذا الكتاب عام ١٩٤٧ ، وماريانو كاتب أديب شاعر ، ظهر له ديوانان ، وخمس مسرحيات ، وسبع عشرة قصة ، وست تراجم لأعلام الأسبان .

أو أعادوها إليها كما يقولون ، وفى الصور المسيحية التى ملأوا بها جدران المصلى فى طليطلة ، وفى . . . وفى . . . وفى . . .

ولقد كنا نشهد هذا فنمسك عبراتنا تجملا ومداراة ، ونطوى جوانحنا على الهم ، وتتجاذبنا عوالم شتى نتنقل فيها بين هذه العواطف المجهدة ، وبين عواطف أخرى أرحب مدى وأوسع مجالا . . . هنالك حيث كنا نأمل للانسانية حظا من سعة الأفق يقيها مثل هذا الصراع الدامى المجهد ، ويريحها من ذلك العناء فى المحو والاثبات ، ويجعلها تنتفع بتعاون الأجيال المتتابعة فى التعمير والبناء ، ويوفى بها على شئ من السماحة يعفيها من مرارة الحقد وإجهاد التعصب ، ويحمى لها تراثها على مر الأجيال .

تجاذبتنا هذه العوالم المتباينة ونحن نطوف بمشاهد الحضارة الاسلامية فى أسبانيا ، حيث كانت أطياف الملوك والأمراء من العرب تحيط بنا ، ورؤى مجدهم الذاهب تتراءى لنا ، وأشباح ماضيهم تتبعنا وتأخذ علينا كل سبيل .

أى مجد قد راح . . .
وأى تاريخ قد طوى . . .
وأى عز قد اندثر ! .

ولكن . . . أحقا قد ضاع كل هذا واندثر ؟

أما فى حساب هذه الأمة أو تلك فنعم ، وأما فى حساب الانسانية فهو باق باق ، خالد خالد ، شخصت معالمه فى بناء الحضارة فلا تخفى . . . وسجلت آثاره فى تقدم البشرية فلا يمحى . . .

ولئن كان الأسبان قد أبقوا عليه بالأمس فخراً بما ظفروا ، ومباهاة بما نالوا ، وذكرى لما كان ، فانه اليوم يقوم بما للانسانية من حق فى حماية ماضيها ، وبما لها من أمل فى رقى غدها . . .

بهذا يقوم هذا الماضى فى حراسة الانسانية ، تتكئ عليه اليوم أمة تقوم بنصيبها فى الحضارة مهما يكن تعصبها الفردى أو شعورها الذاتى . . .

فلله ما أسدى أصحاب ذلك الماضى المجيد للانسانية العليا ، والمدنية السامية .

بنت الشاطىء

النفس الأندلسية فى كتابات ثرفانتز

لا يعرف القلب الأسبانى من لم يعرف ثرفانتز ، ولا يعرف ثرفانتز من لم يعرف قيمة التراث الاسلامى فى الأرض الأسبانية ومداه . ذلك أن ثرفانتز كاد أن يجمع فى نفسه نفوس الأسبان جميعاً ، وكاد أن يجمع فى كتاباته كل ما كتب الله لأهل هذا البلد العظيم فى ماضيهم ومستقبلهم ؛ فما من شخص يلقاك فى هذه البلاد أو يطالعك فى صحائف تاريخها إلا وجدت له فى كتابات ثرفانتز شبيهاً يذكرك به ، وما من خصلة تلمحها فى أسبانى إلا وجدت هذا الرجل قد فطن إليها وأثبتها وعرضها فى شتى حالاتها عرضاً يكاد يغنيك عن التماسها فيمن ترى من الأحياء .

ثم إنك لو أقبلت تقرأ هذا الرجل بعد إلمام — ولو يسيراً — بما كان الأسبان عليه أيام كانوا مسلمين ، وبما كانوا عليه أيام كانوا بين الاسلام والنصرانية ، وبما بقى فى نفوسهم من الآثار حين دخلوا النصرانية ، فانك تجد فيما تقرأ لذة لا تكاد تعدلها لذة . فهذا الدون كيخوته تتتبع مغامراته وتقرأ أوصافه ، فيشوقك كل ما تقرأ ، ويستهويك مايبدو له من رأى وما يملأ نفسه من شعور ، ولكنك تنكر منه حماسة تبلغ به حد الغفلة ، وتنكر منه سذاجة لا تتفق مع مايقال لك من أنه ظل يدمن القراءة حتى « جف دماغه » كما يقول ثرفانتز ، وأنت تنكر منه أن ينهض للأمر العظيم ويمضى يجاهد فى سبيله حتى يجهد نفسه ويجهدك معه ، ثم هو يعود بعد ذلك دون أن يحقق من الأمر العظيم شيئاً . أنت تعجب بهذا كله وتنكر هذا كله ، وتحسب أن فى ذلك تضارباً لا يستقيم فى شخصية واحدة ، ولكنك إذا ذكرت أن الذهن الذى رسم هذا الشخص الطريف لم يكن أسبانيا صرفاً ولا أوربيا صرفاً ، وإنما خالطته عناصر شرقية بعضها عربى وبعضها غير عربى ، بعضها وليد الطبع الأسبانى الأصيل وبعضها بقايا بعيدة خلفها هؤلاء العرب ومن

أقبل معهم من المسلمين وثما خلفوه فى النفس الأسبانية من خصال لاتذهب مع الأيام .

فكيخوته إذا نهض لأمر ملأه الحماس له قوة فمضى وقد آلى على نفسه ألا يسكن له جنب حتى يقضيه ، ثم هو لا يكاد يبلغ من هذا الأمر جانباً حتى يصرفه هذا الجانب عما بقى . وهو فى هذا يشبه بعض أجداده من المسلمين فى بلادهم : ينهضون للقاء العدو ويقسمون ألا يستريح لهم جنب حتى لا يبقوا له أثراً ، وما هو إلا أن يبلغوا بعض النصر حتى يأذنوا لجنوبهم أن تستريح ، وتصرفهم الراحة عن مواصلة المسير فيعودون لكى يحتفلوا بما أدركوا من نصر ، تاركين العـدو ينهض خلفهم من جديد كأنهم لم يبلغوا منه شيئاً . وأنت تجد الدون كيخوته يحب المديح فيسرف فى هذا الحب ، يسمع الناس يصفونه بما ليس فيه ويحس أنهم يسخرون منه ومع هذا يطرب لهذا المديح ويستزيده وربما استغنى به عن السعى والاجتهاد ، فيذكرك هذا ببعض أجداده من المسلمين الأسبان الذين كانوا يطربون للمديح ويستزيدون منه وهم لا يشكون فى أنه كذب صرف ، ويصرفهم هذا المديح عن العمل العظيم أو العمل المفيد . ما قرأت فصلا من الدون كيخوته إلا قفزت إلى نفسى صورة المعتمد بن عباد ، فهذا رجل كان يحلم بالسيادة كما كان يحلم بها كيخوته ، ويسعى لها حتى استكمل أدواتها كما استكمل كيخوته أدوات الفروسية ، ولم تكن أدوات المعتمد بأصلح للغرض الذى رمى اليه من أدوات كيخوته للأمر الذى طلب . فهذا المعتمد يحلم بجمع الجزيرة كلها تحت لوائه ، فتبلغ به الحال ألا يكون له أكثر من بضع مئات من المقاتلين معظمهم من المرتزقة المأجورين أو من شذاذ الآفاق الذين لا يعول عليهم فى مطلب كبير أو صغير . وهكذا نجد كيخوته يتخذ لنفسه سيفاً كليلا ويلفق لنفسه لباس فارس مفكك قد يربط بعض أجزائه ببعض بقطعة من ليف ، ويحمى رأسه ببيضة لا يمسها حد سيفه حتى تتبدد شعاعاً .

وهذا المعتمد يقسم ليغزون قرطبة ، وينشد الأشعار يتغنى بما سيأتى من الفتح الذى لم يسبقه إليه أحد ، ثم لا يكاد جيشه يقربها حتى يبرز له الأعداء فيبددوه ، ويعود إليه الجيش ممزقا مفرقا ، فلا يمنعه ذلك من أن يجلس للشعراء ويستطيب ما يحدثونه به مما أوتيت « جحافله » من النصر المبين .

وكذلك كان كيخوته يتحدث الناس أمامه بما يلاقى المساكين الذين يقدر لهم الحظ السيىء العمل فى الأسطول ، فيقسم ليخلصنهم ، ويمتطى صهوة جواده لا تكاد الأرض تسعه من فرط التوفز والحماسة ، ويمضى حتى إذا لقى رجال الحكومة اشتبك معهم ، فهزموه وآذوه ، ثم يعود دون أن يخلص أحداً أو ينقذ مظلوماً ، فلا يمنعه ذلك من التحدث بما أتى من أعمال الشجاعة ومن إنصاف المساكين . . .

وهكذا : ما مررت بشئ فى كيخوته إلا ذكرت مثيله فى المعتمد ، تذكرنى الدمبكية بدولتينيه ، وتذكرنى أفراسه التى يتحدث عنها بروسينانت ، وتذكرنى نفحات كرمه فى المال بنفحات كيخوته فى الخيال ، ولو قد أوتى مال المعتمد لأعطى ، ولكنه كان فقيراً معسراً . وما تصورت المعتمد فى منفاه فى أغمات إلا طفرت إلى ذهنى صورة كيخوته راقداً على سريره ينتظر الموت فى ظلال الإخفاق كما كان المعتمد يتمنى الموت فى ظلال الأسر .

ولم يكن المعتمد فريداً فى بابه ، ولا بالوحيد الذى لا مثيل له بين معاصريه أو أسلافه ، فقد اشترك واياهم فى الإسراف فى التمنى والاسراف فى النشاط ، وفى الاكتفاء بالخيال والبعد عن الواقع . وهذه خصلة ظهرت عند المسلمين الأسبان خلال القرن الثالث الهجرى ، وشاعت بينهم خلال القرن الرابع وما تلاه . وما هكذا كان المسلمون فى أسبانيا خلال القرن الثانى الهجرى ، لأنهم كانوا ما زالوا عرباً . وهذه الخصلة وغيرها نتجت عن امتزاجهم بالأيبريين من أهل البلاد ، وتأصلت بعد ذلك فى الخلق الأسبانى ولازمته حتى اليوم ، لا تكاد تجد منهم أحداً إلا لمست فيه هذا النزوع وهذا التوفز . ثم إنك لا تعدم بعد ذلك أن تجد منه القعود عند منتصف الطريق ، والعودة من المرحلة الطويلة بالقليل أو بلا شئ . ولست أذهب بك بعيداً ، فهذا هو الشعب الأسبانى النصرانى كله يهم فينشئ دولة تكاد تسع الدنيا ، ويمضى يملأ الدنيا دوياً حتى يشغلها بنفسه زماناً ، ولا تكفيه أوربا فيعبر المحيط إلى عالم جديد ينشئه ، ثم هو يعود آخر الأمر إلى وطنه يجر أذيال الخيبة ، ويغلق بابه على نفسه ، ويلقى سلاحه ، ويقبع فى عقر جزيرته لم يصب من جهده غير الاجهاد والحرمان .

أليس هذا كيخوته ؟ . . .

أليس هذا المعتمد ؟ . . .

أليس هذا رمزاً لحيوات ملايين الأسبان النصارى مثل كيخوته ؟

أليس هذا رمزاً لحيوات ملايين من الأسبان المسلمين مثل المعتمد ؟

بلى ! فلن تدرك الجمال فى صورة هذا الفارس العتيد إلا إذا عرفت أنه يصور النفس الأسبانية فى صميمها ولبابها ، ولن تدرك جمال هذه النفس الأسبانية إلا إذا ذكرت أسلافها المسلمين وما خلفوه فى طبعهم من أسرار .

ولعل صاحبنا سانشو بانزا أن يكون أوفق لتقرير ما قلناه من صاحبه وأستاذه السيد كيخوته .

فسانشو رجل عاقل يمثل الواقع ولا يريد أن يعدوه ، وهو حصيف يفهم من الأمور مالا يفهمه أستاذه ، وهو يحاول جهده أن يصرف الأستاذ عن خياله فيخفق فيما يريد ، ولكنه لا ييأس من دركه مراده ، فيمضى مع صاحبه ويلقى بنفسه فى المهالك معه لأنه يحبه ويعجب به ولا يطيق أن يتركه ، فاذا مضى معه ردحاً أخذ يتأثر به وأخذ يتخلى شيئاً فشيئاً عن الواقع الضيق الذى كان يلتزمه أول الأمر ، ثم إذا به يحلق فى الخيال مع صاحبه ، ثم يسرف فى التحليق حتى لنجد كيخوته ينصحه ويحاول أن يصرفه عن هذا العبث الذى يكاد يهلك نفسه فيه . ولكنه لا يستطيع أن يجرى مع الخيال شأواً بعيداً ؛ لأن مسكة من العقل بقيت فيه ، فهى ترده عن الاسترسال فيما تعلقت به نفسه ، وهكذا « يقعد فى منتصف الطريق فلا هو أقام على فلسفته وعقله ولا هو أصبح مغامراً مخاطراً . . . » ذلك هو الرجل الأسبانى العادى فى بعض نواحى نفسه .

فمعظم الأسبان فلاسفة عقلاء ، لا تكاد تحدث أحدهم حتى تجد فى نفسه من الحكمة والعقل والفلسفة الخاصة ما يعجبك و يجعلك تحسب أن هذا الرجل أسعد الناس بما وعى فى صدره من الحكمة ، ولكنك لا تكاد تمضى معه قليلا حتى تتبين أن العقل والحكمة والرزانة والاتزان ليست وحدها دستور حياته بل تلمس فيه أيضا أحيانا ميلا إلى المخاطرة واسترسالا مع الخيال يذكرك بالسيد كيخوته . فاذا صبرت بعد ذلك على صحبته يسيراً تبينت أن حياته كلها مشطورة بين العقل والخفة والواقع والخيال ؛ فهو نصف فيلسوف ونصف مغامر ، هو نصف كيخوته ونصف سانشو ، هو فى مجموعه أشبه الأشياء بهذه

القطعة الفريدة التى صاغتها يد ثرفانتز فى هذا القالب البديع الذى لا يصدر إلا عن قلم إسبانى لا يختلف هو فى نفسه عن كيخوته أو سانشو . ألم يكن ثرفانتز حكيما فيلسوفاً ؟ ألم يكن قارئا كاتباً قد وعى من الكتب فى صدره وخط من الكتب بيده ما لم يدانه فيه إلا القليل من بنى الزمان ؟ فما الذى دفعه إلى المخاطرة وركوب الأهوال والوقوع فى الأسر وتحويل حياته إلى هذه الأوديسية الفريدة فى بابها . . . ؟ ثم ألم يعد بعد هذا كله إلى بلاده ويستقر به الحال ويأخذ فى أسباب حياة هادئة لا بأس عليها . . . فما الذى دفعه إلى المخاطرة مرة أخرى وقد كانت له عن ذلك مندوحة ؟ لعلنا لا نفهم ذلك على وجهه إلا إذا ذكرنا أن الرجل كان فى نفسه مزاجاً من كيخوته وسانشو : من التخيل البالغ فيه والحكمة البالغة ، من القلب العامر المتوفز والرأس العامر الملئ . . .

ثم ما سر إعجاب الأسبان كلهم بهذا الكتاب ؟ كيف تلقفوه ساعة وصل إلى أيديهم واستغنوا به عما كانوا يتداولونه بين أيديهم فى ذلك الزمان من كتب المخاطرات والمغامرات ؟ كيف انصرفوا دفعة واحدة عن الاعجاب بأبطال من طراز برناردو دل كاربيو وأماديس دى جاولا أولئك الذين كانوا يتسامرون بأخبارهم لا يكادون يعدلون بها شيئاً غيرها ؟ بل كيف انقلبوا عليهم فجعلوا يسخرون منهم وممن يقرؤهم . . . ؟ الجواب على ذلك يسير : فهؤلاء أبطال لا يشبهون الأسبانى إلا فى جانب واحد ، إنهم جميعاً مغامرون فحسب ، مغامرون يواتيهم الحظ ويساعفهم المقدار فيمضون من نصر لنصر ومن مجد لمجد لا يكاد الدهر يخونهم أبداً . . . أما كيخوته فرجل سيئ الحظ على رغم ما وضع الله فى قلبه من حسن النية وثبات القلب والصبر على المكاره : لا يكاد يطلب أمراً حتى يبدأ الدهر يعاديه كأنه له بالمرصاد ، فيتركه يمضى فى شأنه ، حتى إذا نال منه الاجهاد وكاد يوفى على غايته حال بينه وبين مطلبه . ويعاود الرجل السعى ويعاود الدهر عبثه . وهكذا تمضى حياته على هذه الوتيرة المجهدة المتعبة . ذلك هو ما يميز السيد كيخوته من غيره من الأبطال ، وهذا ما يقربه من النفس الأسبانية ؛ لأن كل أسبانى لا يشك فى أن الدهر عليه فى كل حين ، وأنه لولا المقادير لأدرك من الفوز أضعاف ما يبلغ غيره ، لأنه لا يشك فى أنه من خير أبناء الزمان ، بل أحسن أبناء الزمان جملة .

ثم أين هذه السخرية الحلوة التى تشيع فى حياة كيخوته كلها ؟ أين هى

فى حياة بطل مثل برناردو دل الكاربيو يمضى فى مغامرات كلها عبث وهو مع ذلك يظن أنه أكثر أهل الأرض جدا ، ولا يكاد يدرك نصراً بسيطا حتى يأخذ يفخر بنفسه ويعجب بها كأن الله لم يخلق غيره؟ بل أين هى فى حياة رجل كالسيد القمبيطور صاغه مؤرخوه على نحو لا يكاد يصدقه أحد : فهو خير كله عدل كله تضحية كله إخلاص كله . . . ؟ أليس ذلك ثقيلا على النفس لا يكاد يحبه إلا الذى يقرأ أخباره وهو مصمم مبدئيا أن يحبه ويعجب به على أى حال ؟ فأين هذا من كيخوته الذى يسخر من نفسه ويلومها ويدل الناس على نواحى الضعف منها وكأنه يريد أن يزهدهم فى شخصه وفى أعماله ؟ أين برناردو دل كاربيو ، وأماديس دى جاولا والسيد القمبيطور من هـذا الرجـل الذى يزهد فى إعجاب الناس لأنه يعرف قدر الناس؟ أين هؤلاء جميعاً من هذا الانسان الحى بحسناته وسيئاته ، بجماله وقبحه ، بتوفيقه وإخفاقه ؟ أين هيئاتهم المختلفة من هيئته الصادقة التى تمس القلوب لأنها صادقة ؟

وهل عرفت أسبانيا لا يسخر؟ هل عرفت أسبانيا لا تكاد تحدثه عن شئ إلا بدأ يسخر به ويمضى فى السخرية حتى تكاد تحسبه لا يحب شيئاً ولا يعطف على شئ ؟ أليست السخرية هى الجانب المميز لمعظم كتابهم من ثرفانتز إلى أورتيبى أى جاسّت ؟ ألا تلمح هذه السخرية حتى عند رساميهم من أمثال موريليو؟ ألست تجد فيما صور من غلمان الشوارع وفقراء المدن لوناً من السخرية بأترابه الرسامين الذين حصروا جهدهم كله على الجوانب الجميلة الزاهية من الحياة؟ الحق أن السخرية تكوّن جانباً هاما من جوانب النفس الأسبانية ، بل هى أحب جوانبها إلينا لأنها فى الواقع جماع ما أودع الله قلوب الأسبان من حكمة وفلسفة . . .

ثم عد بنا قليلا إلى أصول هذا المزاج الساخر الذى لا يكاد يدع شيئاً دون أن يركبه بالسخر فى كل حين ، وتعال نبحث عن بعض أصولها عند الأسبان المسلمين : إنك لا تكاد تقلب كتاباً من كتبهم إلا وجدته فياضاً بما يدل على أن السخر كان طبعاً مركباً فى هؤلاء الناس ، بل يخيل لمن يقرأ أخبارهم أن حياتهم كانت سخراً متصلا بأنفسهم وبغيرهم من الناس ، فما من عيب يرونه فى هيئة أحد إلا اتخذوه موضعاً للسخر لا يفرقون فى ذلك بين صغير وكبير : فهذا قاض قصير القامة قصير العنق يلقبونه بالقبعة ، وهذا قائد اشتهر بالبخل

يسمونه البطرشك أى الحجر اليابس Pietra Seca ، وهذا قاض مسرف فى السذاجة حتى يتهم بالغفلة ، يأمر غلامه أن يتناول من المتخاصمين أوراقاً فيها أسماؤهم ثم يناديهم واحداً واحداً ، فيحتال بعض الناس فيدسون على الغلام أوراقاً فيها عيسى ابن مريم ويونس بن متى ، ولا يفطن القاضى لذلك ، فيجعل غلامه ينادى هذين الاسمين ، فيبرز له رجل يقول وهو يضحك : « ما هذا يا مولانا . . . إن ظهورهما من أشراط الساعة ! . . . » وتضحك قرطبة كلها من غفلة هذا الشيخ المسكين . وهذا القاضى سليمان بن أسود يخيف أهل قرطبة بشدته وحزمه ، فلا يمنع ذلك الناس من أن يضعوا تحت الحصير الذى يجلس عليه فى مجلس القضاء شيئاً من ورق البلوط الجاف ، ولا يكاد الشيخ يدوسه حتى يتكسر ، ويمد يده يتحسس فاذا بورق البلوط ، فيعرف أن أهل قرطبة يسخرون بأصله لأنه كان من فحص البلوط . وهذا هو الأمير عبد الله — أمير شيخ عاقل حازم ، يسخر من وزيره سليمان بن وانسوس ، فيقول له : أقعد يا بربرى ! ويضحك الناس ويألم الوزير ويغضب لأن الأمير يعيره بأصله . وهذا ابن ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد يمازح صاحبه القلفاط الشاعر ، فيسخر منه سخراً يغضبه ، وينتهى الأمر بأن يتخاصم الرجلان خصاماً يفرق بينهما حتى الموت . وهذا الوزير سليمان بن وانسوس يتحدث عن صاحبه الوزير ابن جهور فى مجلس الأمير عبد الله فيقول :

جاء الحمار — حمار المرج — محتشياً ‏ مما أفاد من الأموال والطرف
خلى لبيرة قد أودت مساكنها ‏ بقبح سيرته والعنف والسرق
فاحمل على العير حملا يستقل به ‏ واترك له سبباً للتبن والعلف

وهذا الوزير أحمد بن عبد الملك يذهب ليزور صاحبه الوزير عبد الملك ابن جهور فيتأخر فى الاذن له ، فيكتب على بابه :

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا ‏ إليك ولا قلب إليك مشوق
ولكننا زرنا بضعف عقولنا ‏ حماراً تولى برّنا بعقوق

ويمضى . وهذا الخليفة الناصر نفسه يغرى بعض جلسائه ببعض ليسخر

منهم كلهم وليشبع فى نفسه ونفوسهم النهم إلى السخرية اللاذعة التى قد تصل إلى حد الإيلام . . . وغير ذلك كثير بل كثير جدا .

كان الأندلسى إذن رجلا ساخراً ، لا يعجبه شئ ولا يكاد لسانه يعفى شيئاً . ولم يكن الأسبان كذلك قبل أن يعرفوا العرب ويختلطوا بهم ، فهذه كتابات أدباء الأسبان اللاتين من أمثال سنكا وكنتليان ومارشيال ولوكاين وفلوروس لا نكاد نجد فيها للدعابة أو للسخر أثراً ، فما هو إلا أن اختلط الأسبان بالعرب وامتزجوا بهم وبمن معهم من المسلمين حتى ظهرت فيهم هذه الخصلة ولازمتهم حتى صارت خصلة تكاد تميزهم من غيرهم من الشعوب . . .

لهذا أعجبهم ثرفانتز ، ولهذا أحبوا كيخوته وسانشو باثرا وخينيته وكورتاديليا وغيرهم من الأشخاص الساخرة التى صقلتها يد هذا الفنان المبدع وجعلتها رمزاً للسخر الدائم من كل ما فى الحياة . . .

ليس عبثاً أن نجد ثرفانتز يسند بعض أخباره إلى رجل اسمه هامت بننخلى يترجمه المستعربون حامد بن انجيلى أو ابن النجيلى . وليس يعنينا هنا أن نحقق هذا الشخص ، فنحن لن نبلغ من التحقيق شيئاً ذا غناء ، ولكن الذى لاشك فيه أن ثرفانتز كان يكتب وهو متأثر تأثراً مباشراً عميقاً بالنفس الأندلسية وما خلفته فى نفوس من تلاها من أجيال الأسبان . ذلك هو موضع الصدق والجمال فى كتاباته ، وهو ما يفرده بمقام خاص ممتاز بين كتاب الأسبان ، بل بين الكتاب أجمعين .

حسين مؤنس

داروين والتفكير الجديد

« أنت لا تعنى إلا بالصيد والكلاب ، وإمساك الجرذان ، وسوف تكون عاراً على نفسك وعلى عائلتك . »

هذه هى الكلمات التى تلقاها داروين من أبيه فى وقت كان يلوح لأى إنسان يتأمل داروين أنها صحيحة ، وأن هذا الشاب قد خاب الخيبة التامة . فقد تسكع فى دراسات مختلفة ، ولكنه لم يستقر على واحدة منها . فقد التحق بكلية الدين ثم تركها ، والتحق بكلية الطب ثم تركها . وفى غضون ذلك كان يلعب ، أو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب . يخرج إلى الحقول ويجمع النباتات ، ويصيد الحشرات ويقارن بين النباتات . ويفكر تفكيراً سرياً كأنه يتآمر على الكون كله ، كى يغيره أو يغير البصيرة البشرية فيه .

والآن بعد أكثر من مائة سنة من هذه الكلمات القاسية التى قالها أبوه عنه لا يعدّ داروين عاراً على عائلته بل هو فخر أمته يتباهى به التاريخ الانجليزى . وبعد نحو خمسين سنة من هذا التوبيخ الأبوى تأمل داروين حياته الماضية ، ومبلغ ما أتمه من الخدمة فى التوجيه الذهنى للعالم فقال : « أظن أن أبى قد قسا علىّ بعض القسوة » .

ومات داروين فى عام ١٨٨٢ بعد كفاح ثقافى طويل . ونحن الآن بعد وفاته بخمس وستين سنة ، نستطيع أن نقول إنه كسبنا فهماً جديداً للطبيعة والكون والانسان ، وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل . فان كتابه « أصل الأنواع » الذى أخرجه فى عام ١٨٥٩ حمل إلى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع فى الحيوان والنبات ، وأنها جميعها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة . وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف فى الطبيعة ، وأن الانسان والحيوان والنبات فى تغير مستمر .

ونحن الآن لا نبالى الحقائق أو المعارف التى شرحها داروين . ولكننا قد اتجهنا الوجهة التى عينها لنا . فنحن نفكر فى التطور ، ونفكر متطورين ، وأصبح التطور حقيقة علمية نقيسها بالمليمتر والميلجرام فى الحيوان والنبات . كما أصبح أيضاً مذهباً دينيا ، أو مبدأ أخلاقيا عند المثقفين ، وانفسح به التاريخ البشرى آفاقاً إلى ملايين السنين ، بل مئات الملايين خلف البشر و بعد البشر .

لقد قيل إن جاليل حط الانسان من عليائه ، حين أعلن أن الأرض ليست مركز الكون ، وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس . ولعل الشمس أيضا نجم صغير لا يختلف من ملايين النجوم التى نراها كل ليلة فى المساء . ولكن داروين رفع الانسان إلى هذه العلياء من جديد ، وأثبت انه لم يكن عالياً فسقط ، وإنما هو كان ساقطاً يعيش على حضيض الطبيعة حيواناً كسائر الحيوانات والحشرات ، ثم ارتفع . وبهذه الكرامة الجديدة انتقل من أسر القدر ، وأحس أنه تاج التطور ، وأن له الحق فى تدبير هذا العالم ، وفى تعيين السلالات القادمة ، بل ماذا أقول ؟ فى إيجاد الأنواع البشرية الجديدة .

ومع ذلك لا أعتقد أن داروين نفسه ، كان يقدر الطاقة الكامنة فى نظريته . ولا ينتقص هذا من عظمته ، فان تفكيرنا الشخصى يسير بقوات اجتماعية ، لا نكاد نبصر بها أو نتعمق أصولها . ذلك أننا نفكر بحوافز من العواطف التى نكتسبها من المجتمع ، بما يفرضه علينا من القيم والاوزان ، وما يرسمه لنا من المطامع والآمال . والمجتمع يطالبنا باستجابات مختلفة تستحيل فى كياننا النفسى إلى عادات عاطفية لا نستطيع الخروج منها ؛ فنفكر فى منهج خاص هو ثمرة هذا التوجيه الاجتماعى الذى لا نحسه لأنه لا يرتفع إلى وجداننا وتعقلنا .

ولذلك نستطيع أن نقول إن نظرية داروين وجدت الحافز الأول على التفكير فيها من المجتمع الذى عاش فيه داروين . ذلك أن داروين قضى إلى زهرة حياته إلى نضج الشباب وإيناع الكهولة فيما بين ١٨٣٠ و ١٨٦٠ . وكان عمره وقتئذ بين العشرين والخمسين ، وكانت انجلترا فى تلك السنين ترغى وتزبد بالحركة الصناعية الجديدة ؛ فالمصانع تحتشد بالعمال من الرجال والنساء

والصبيان ، والثروات تنمو ، والمزاحمة على أقصاها ، وإنجيل النجاح يدرس ، ويعبد والسياسة تخدم الاقتصاد وتضرب الأمم النائية وتؤسس الأسواق فى المستعمرات وأصبحت انجلترا سيدة البحار لأنها احتاجت إلى أكبر أسطول يحمى مستعمراتها وأسواقها التى تباع فيها مصنوعاتها الفائضة .

وعاش داروين فى تنازع البقاء هذا الذى لا يفتر فى لنكشير وغير لنكشير من الأقاليم الصناعية فى انجلترا .

وفى تلك السنين أيضاً قرأ كتاباً أحبه وتعلق به لأنه وجد فى نفسه الاستجابة لنظرياته بما تكون له من عواطف أحدثها الوسط الصناعى الانجليزى ، هو كتاب القسيس مالتوس عن السكان . فان هذا القسيس كان من المحافظين الانجليز الذين يكرهون العامة ، ولا يرون فيهم سوى غوغاء . فلما انفجرت الثورة الفرنسية واستولى بها الشعب على حقوق السادة من الملوك والعظماء ثم أعلن رجالها مبادئ الاخاء والمساواة والحرية ، فكر مالتوس كثيراً بحافز من عواطفه المحافظة ، فأخرج كتابه عن السكان . وكان المغزى الذى قصد إليه أن هذه الآمال فى الاخاء والمساواة والحرية لن تتحقق لأن الدنيا لا تكفى الناس الذين يتوالدون على نظام تضاعفى ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ الخ . ولكن المحصولات لا تنتج إلا على نظام حسابى ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ الخ . فاذا عاش الناس بلا مرض أو حرب أو حرمان لم تكفهم المحصولات . وإذن فالمرض والحرب والحرمان رحمة بالناس أو ضرورة لهم . وتأمل داروين هذا الكتاب الذى ألفه مالتوس عن المجتمع البشرى فساءل : لِمَ لا ينطبق هذا الكلام على المجتمع النباتى والحيوانى فى الطبيعة ؟ فان الطعام لا يكفى جميع الأحياء التى تتوالد أو تتكاثر بالألوف ، فهى يجب ، كى تعيش ، أن يزاحم بعضها بعضاً ، فتكون الحرب بينها أى تنازع البقاء ، كما فى لنكشير ومصانعها تماماً .

وفى ١٨٣١ أنفذت الحكومة البريطانية سفينة البيجل كى تطوف حول العالم وتسبر الأعماق وتدرس الشواطئ وتقيس الأبعاد . ولكن لماذا عمدت الحكومة البريطانية وحدها دون سائر الحكومات إلى الاهتمام بهذا الموضوع ؟ ما هى العاطفة الحافزة إلى هذه الدراسة التى لم تفكر فيها ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا ؟

العاطفة الحافزة اجتماعية أيضاً . وذلك أن الحكومة البريطانية فى تلك السنين كانت تخدم الصناعة البريطانية ، لأن السياسة على الدوام تسير خلف

الاقتصاد . وكانت أسواق العالم وقفاً على المصنوعات الانجليزية ؛ لأن الحركة الصناعية الانجليزية سبقت الحركات الأخرى فى جميع الأمم . فمن هنا كان الاهتمام بالبحار والملاحة والأقطار النائية . ومن هنا أيضاً كانت الفرصة لداروين فى أن يلتحق بالسفينة « بيجل » كى يدرس الحيوان والنبات .

ولم يكن داروين جديداً فى هذا البحث : أصل الأنواع ؛ فان لامارك الفرنسى سبقه إليه ، وهو صاحب القول بأن عنق الزرافة قد طال لأنها بالمرانة التى ورثت جيلا بعد الجيل قد اشرأبت وسعت للوصول إلى الغصون العليا فى الأشجار . فكأن ما يكسبه الحيوان بجهده من صفات يورث جيلا بعد جيل . بل إن جد داروين قد بحث هذا الموضوع . فكانت النظرية « فى الهواء » تحتاج إلى من يرتب أصولها وفروعها ويعلل مظاهرها .

كان داروين شابا فى الثالثة والعشرين حين شرع فى رحلته على البيجل . فلما وصل إلى أمريكا الجنوبية ، وجد حيوانها ونباتها يختلفان عما هما فى القارات القديمة . ثم لما وصل إلى الجزر المنعزلة غرب أمريكا الجنوبية وجد أن انعزال الجزيرة يؤدى إلى انعزال الحيوان . فتكون له أشكاله التى ينفرد بها من الأشكال العامة على القارات .

وإلى هنا يكاد يتوهم القارئ أنه ليس هناك أى فضل لداروين فى تعليل النظرية . فقد سبقه إليها جده كما سبقه إليها لامارك الفرنسى . ثم هناك الظروف الأخرى : مالتوس وقلة الانتاج الغذائى إزاء تضاعف السكان ، ثم تنازع البقاء وبقاء الأصلح وفناء الضعيف فى المزاحمة العنيفة فى لانكشير حيث الحركة الصناعية فى عنفوانها .

ولكن لا ! لأننا مع التسليم بأن الوسط الاجتماعى أو البيئة الثقافية ، فى أوسع معانيها ، حين تشمل المعيشة والاتجاه والعادات والعواطف ، هى الحافز للتفكير ، فاننا مع ذلك يجب ألا نغفل الشخصية ؛ إذ لو لم يكن داروين ذكيا لما فكر فى هذا الموضوع الخطير ، ولما جعله هدفه فى الحياة .

لقد قال داروين عن نفسه : « إن الحقائق تضطرنى إلى الاعتراف بأن عقلى لم يخلق للتفكير . »

وقد ظلم داروين نفسه بهذه الكلمات . ولكن الحقيقة أنه لم يعرف نفسه . لأن الواقع أنه لا يقول هذه الكلمات إلا رجل مفكر قد أسرف فى التفكير وعنى

العناية الكبرى بغربلة الحقائق من المعارف ، وعرف الصعوبة الكبرى فى هذا الجهد . ولو أنه لم يكن يجهد كما قال هذه الكلمات إذ أنها ما كانت لتخطر فى باله .

الحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه احترف التفكير ، وأنه كان مريضاً أو متمرضاً فى نفسه حزازة قديمة هى جرح الكرامة ، هذا الجرح الذى أحدثه أبوه وعيره فيه كما نرى مثلا من وصف أبيه له بأنه سوف يكون عاراً لعائلته . فقد كان لا ينام فى الليل إلا بعد أرق الساعات . وكان فى هذه الساعات يفكر ويؤلف . فاذا جاء النهار كتب كلماته القليلة ، ثم يبقى سائر نهاره مريضاً . ومرضه هو هذا المرض النفسى الذى يخترعه النيوروزى ويعيش به ويستقر عليه ، كأنه يقول : طلبتم منى النجاح والتفوق ، وكيف أستطيع هذا وأنا مريض ؟

مرض يصون الكرامة المجروحة (أنت عار لعائلتك) وفى الوقت نفسه يهيئ الفرصة للتفكير فى حضانة ليلية يسميها الأصحاء أرقاً . ولو أن داروين نجح وصار قسيساً أو طبيباً كما كان يشتهى أبوه لكسب العالم قسيساً أو طبيباً يمارس حرفته ويكسب منها. ولكن العالم كان يخسر عندئذ هذه العبقرية المريضة التى زعزعت الثقافة من أساسها ، بل زلزتها وعينت أهدافاً جديدة للانسان .

كان داروين يكرر كلمة مألوفة بين أصدقائه هى « معدتى الملعونة » والترجمة السيكلوجية لهذه الكلمة هى : أريد أن أقعد وأتكاسل وأفكر ولا يساعدنى على هذه الحال إلا معدة ملعونة تزكينى وتسوغ لى الكسل والتفكير والتأليف .

وهذا الكسل من أعجب صفات داروين ، وهو صفة المريض النيوروزى الذى يكره النشاط ويرفض المعالجة لأى عمل لأنه يخشى النقص . أى لأنه يخشى أن يقصر عن التمام . فقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة وهو يفكر فى التطور ، ولكنه لا يخرج كتاباً عنه ولا يكتب مقالا . ثم حدث حادث أزعجه فانتفض منه ، هو أن ولاس كان فى بعض الجزر التى تقع فى الجنوب الشرقى من آسيا يجمع الأزهار والحشرات ويحنطها ويبعث بها إلى الجمعيات العلمية . وكان مشغولا بالموضوع نفسه أى التطور ، وكان يعرف أن داروين مشغول به أيضاً . فأرسل إليه رسالة علمية يشرح فيها رأيه فى هذا الموضوع . وصعق داروين إذ وجد أن ولاس قد سبقه إلى تعليل التطور بأن الطعام قليل فى الطبيعة ، وأن التوالد كثير بين أنواع الحيوان والنبات ، فلا بد أن يكون

هناك تزاحم أى مسابقة من أجل الطعام . وفى هذا التزاحم أو المسابقة لا يبقى غير الأقوى الأصلح للبقاء .

وسارع داروين إلى إبلاغ الهيئات العلمية فى انجلترا عن رسالة ولاس . وشرع هو أيضاً يؤلف كتابه « أصل الأنواع » . ونستطيع أن نتخيل داروين فى حزنه ونزاهته معاً . ولكن وولاس بعد ذلك بسنين اعترف بأن العالم كسب ولم يخسر بتزعم داروين لهذه النظرية ؛ لأنه كان أوفى منه معرفة وأنصع بياناً وأدق منطقاً .

وأخرج داروين كتابه « أصل الأنواع » فى ١٨٥٩ فتغيرت الرؤية والرؤيا البشريتان .

وكثير من النظريات التى غيرت التفكير البشرى تبدو غاية فى السهولة والبساطة ، حتى ليتساءل الناس : كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها ؟

فان داروين يتحدث عن الحمام والكلاب وغيرها مما يربيه النـاس ، وكيف استطاعوا أن يخلقوا العشرات والمئات من السلالات الجديدة . وما استطاعه الانسان فى مئات السنين القليلة قد استطاعته ، وأكثر منه ، الطبيعة فى ملايين السنين الماضية ، حتى أخرجت الأنواع فضلا عن السلالات . فهناك فى الغابات والبحار والجبال والسهول إنتاج محدود من الطعام ، ولكن هناك توالداً يتضاعف بين الحيوان والنبات ، ولا يمكن أن يكفى الطعام هذه الملايين بل ملايين الملايين من النبات والطعام . فلا بد إذن من أن تتنازع الأفراد لأجل البقاء أى لأجل الحصول على الطعام . وقد يكون السبب للتفوق فى هذا التنازع ثم البقاء خفيا ، هو كما فى النفس الأخير فى صراع يدوم الساعات . أو فى القدرة على الجوع أو العطش ، أو فى طرق الحماية للنسل ، أو فى القدرة على التطفل ، أو فى الجراءة والبطش .

وما دام كل فرد يولد مختلفاً عن الآخر فى الحيوان والنبات ، فان هذا الاختلاف ينطوى بلا شك على ميزة أو عجز . فهو يساعده فى الحال الأولى على البقاء والانتصار فى معركة الحياة . وهو يهيئ له الهزيمة فى الحال الثانية . ولا نعرف الأسباب لهذا الاختلاف ، ولكننا نشاهده ونسلم به . ولذلك لا بد أن يستمر التغير جيلا بعد جيل . فاذا تراكمت التغيرات أحدثت السلالات

الجديدة ، وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .

وعلى هذا يجب أن نسلم بأن الأحياء ، نباتاً وحيواناً ، ليست الآن كما كانت قبل مليون أو مائة مليون سنة ؛ لأنها دائمة التغير والتطور . وليس الاستقرار والثبات طبيعة الاحياء ؛ لأن التغير والتطور هما طبيعتها . ونستطيع أن نستنتج أنه ما دام لنا تاريخ ماض فى التطور فسوف يكون لنا تاريخ قادم أيضاً تتغير فيه الأحياء .

وهذا هو المغزى الخطير الذى انتهى إليه قراء داروين ، وهو أن الحياة فى بوتقة لم تتجمد قط ، وأن البوتقة لا تزال تصهر وتخرج عناصرها ومركباتها . وهذا هو التوجيه الجديد الذى سدد داروين عقولنا إليه . ونحن فى بداية هذا التوجيه الذى يخشى كثير منا مغزاه لأنه يحمل فى طياته مشروعات بشرية خطيرة .

لقد عالج داروين تطور الأحياء ، وحاول تعليل التطور ونجح إلى حد ما فى هذا التعليل ، ولكنه لم ينجح كل النجاح . وذلك لأن عواطفه الاجتماعية التى اكتسبها من المزاحمة الصناعية التجارية فى لنكشير ، ومن كفاح الامبراطورية لخطف الأسواق وإذلال الأمم ، هذه العواطف هى التى حملته على أن يكبر من شأن التنازع ، تنازع البقاء ، وحال بينه وبين رؤية التعاون فى الطبيعة . لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع .

ونحن نعرف الآن كثيراً أى أكثر مما كان يعرف داروين . ولكن لداروين فضل التوجيه وتعيين الخطط للبحث ، وأنه زودنا برؤيا بشرية جديدة . فقد نقلت نظرية التطور من الأحياء فى الطبيعة إلى الناس فى المجتمع ، وصار من المألوف أن نجد دراسات منظمة عن الأخلاق والأديان وفق النظرية التطورية ما كنا لنراها لولا داروين . وانبسطت للبشر آمال فى المستقبل ، وتغير معنى الارتقاء البشرى لأننا نقلنا هذا المعنى من وسط الانسان إلى الانسان نفسه . بل أصبح التطور فنا نمارسه فى إيجاد سلالات جديدة من القطن أو القمح أو الفاكهة . وقد اجترأ هتلر وأعوانه على أن يفكروا فى سلالات بشرية جديدة .

سلامه موسى

SYMBOLE ET ORNEMENT

HILDE ZALOSCER

رمز وزخرفة *

يختلف الفن الاسلامى اختلافاً بينا عن الفن الغربى . فالفن الغربى يهتم بتصوير الانسان ، ولكن الفن الاسلامى لايجنح إلى تقليد الأوضاع الانسانية. فما رسم الانسان قط فى الفن الاسلامى الخالص ، والأحوال النادرة التى اتخذ فيها الفن الاسلامى الانسان موضوعاً له ، كما حدث فى فارس وفى الهند ، تجد الأثر الأجنبى يبدو بارزاً ملموساً .

فالفن الاسلامى الخالص ، عربياً كان أو تركياً ، يرفض رفضاً باتا اتخاذ التصوير الانسانى موضوعاً له . والعرب والترك متفقون على أنه ليس من غايات الفن أن يقلد ماهو موجود فى العالم الحقيقى أو أن ينقله . وهكذا كان فن التصوير الذى يحاكى الطبيعة ، غير معروف فى العالم الشرقى . فموضوع الفن الاسلامى هو موضوع تجريدى لا وجود له فى العالم الحقيقى .

وأحسب أن سبب ذلك ليس، كما افترض بعضهم، نهى الدين عن تصوير الانسان . فهذا النهى إنما هو استجابة لفكرة سائدة لدى العرب ، استجابة لفكرة التجريد . والدين فى الشرق لا يرى الانسان فى قمة الخليقة . والفلسفة الشرقية ليست فلسفة إنسانية صرفة . فالشرقيون يؤمنون بقانون علوى يسيطر على مصاير الكون ، والانسان خاضع له خضوع بقية المخلوقات . وفى هذا الاطار المحدد توضع الحرية الانسانية .

وهكذا كان هذا الفن « اللاتصويرى » فنًّا زخرفيا . فعلى الجدران وعلى الأثاث وعلى المنسوجات ، ترى العديد من الرسوم ذات الخطوط المنحنية أو المستقيمة ، وذات اللون الواحد والألوان الكثيرة ، وهى تبدو فى الظاهر لا معنى لها ولا غرض ، اللهم إلا تجميل هذه الأشياء وجعلها أكثر

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

جاذبية . وقد اعتدنا أن نطلق على مثل هذه الرسوم ، التى لا تزيد فى وظيفة الشئ ، زخرفة أو حلية . والمفهوم أن هذه الرسوم تزين الأشياء وتخفى إلى حد ما أغراضها العملية والنفعية . ولكن من الواضح أن الشئ هو الأساس، وأن هذه الحلية زائدة تضاف إليه . وهكذا كانت الزخرفة شيئاً ثانوياً فى سلم الفنون . فهى معتبرة فنا صغيراً مهملا بالنسبة إلى التصوير أو النحت، وهما فرعان مستقلان قائمان بذاتهما .

ولكن أحسب أن هذا التعريف للزخرفة يقوم على فهم خاطئ وعلى تفسير خاطئ للدور الذى تلعبه . وربما كان هذا التعريف صحيحاً إلى حد ما بالنسبة للزخرفة فى الفن الغربى ، ولكنه رغم ذلك تعريف ناقص لاينطبق إلا على الزخرفة المنحطة . ومن الصعب أن نصدق أن الزخرفة لم ترم من أول الأمر إلا إلى تزيين سطح شئ من الأشياء وتحليته .

ولكن إذا رفضنا أن نعترف بأن غرض الزخرفة ، لم يكن الزينة فحسب ، فما هو يا ترى المعنى العميق لتلك الظاهرة ؟ وإلى أى جانب خفى من جوانب النشاط العقلى ترجع هذه الظاهرة؟ وأية حاجة ماسة دعت إلى إيجاد هذه الأشكال ؟

ليس من الهين الاجابة على تلك الأسئلة . وما أبعدنا اليوم عن الانسان الأول الذى زين آنيته بعلامات جعلتها أكثر جمالا فى عيوننا .

وربما استطعنا بشئ من التحليل أن نجد المعنى الخفى للزخرفة وأن نعرف قيمتها الأولى .

إن العوامل والدوافع التى خلقت الزخرفة ليست متنوعة أو كثيرة كما يبدو لأول وهلة . من السهل أن نستخلص قاعدتين : فمن ناحية نجد الزخرفة المجردة، وهى زخرفة دوافعها وموضوعاتها مبتكرة ومشتقة من الخيال ولا أساس لها فى العالم الخارجى . ومن ناحية أخرى نجد الزخرفة التقليدية أو التصويرية وهى التى تتخذ من الزهور أو الحيوانات أساساً لها . وهذا النوع الأخير هو النوع المفضل لدى الغربيين . لأنه يتفق والعقلية التقليدية السائدة فى الفن الغربى ، على حين أن الزخرفة المجردة التى لا تسمح بأى تقرب أو تقليد للطبيعة هى النوع المفضل فى الشرق . وهذان النوعان مظهران لعقليتين مختلفتين ، وربما كانتا حالتين متتابعتين فى تاريخ التطور الفكرى الانسانى.

والزخرفة التقليدية تخاطبنا بعدد محدود من الكلمات ، كلمات لم تكد تتغير

منذ آلاف السنين . فالحيوانات والنباتات التى ترسم لم تكد تتغير . فلماذا بقيت هذه الحيوانات والنباتات منذ اليونان والرومان إلى يومنا هذا هى هى لم يتغير منهــا إلا الشكل أو الطراز؟ ولم اختيرت هــذه الأنواع ولم يختر غيرها ؟ أهى مصادفة عمياء تلك التى حافظت على نفس الحيوانات والنباتات أم هو غرض محدد مقصود ؟ أيدرى الفنان ذلك أم هو يسير ولا خيرة له فى طريق مهد له ؟ هذا الثبات الفريد فى اختيار تلك الأنواع يدعونا إلى الاعتقاد بأنها لم تختر هكذا مصادفة دون غرض مقصود . ويبدو أنها مستقرة فى خيال الانسان لسبب لا ندريه ، مستقرة فى ضمير الانسان وثابتة فيــه بحيث لم يستطع الزمن أن يهدمها . ويبدو أنها تراث عصر بعيد فى القدم ، وميراث تطور خلال العصور ، فصار عملا آليًّا انعكاسيا لادخل للارادة فيه un réflexe automatique . وربما كانت هذه الأشكال الرشيقــة التى فقــدت الآن كل معناها ما خلا جمالها ، ربما كانت تعنى فى الأصل شيئاً خفياً أصبحنا لا ندريه .

ونحن المحدثين ، نرى هذه الأشكال محققة لغرضها — فى رأينا — وهو التجميل والتحليـة . فالزخرفة لهو بجدر ألا تعوقه أية رغبـة جدية . ولـكن هذا الثبات فى اختيار النباتات والحيوانات كوسيلة وحيدة للزخرفة ، يبقى شيئاً عجيباً محيراً . ولو أننا دققنا الفحص أكثر من ذلك لوجدنا أن هــذه الحيوانات والنباتات لا تمثل دائماً بطريقة ساذجة بسيطة . ففى الفنون الزخرفية للحضارات الشرقية القديمة ، وخاصة فى بلاد ما بين النهرين ، نجد نفس هذه الأنواع من الحيوانات والنباتات . ولـكن طريقة الجمع بينها ، والتفسير المعطى لها مختلفان تمام الاختلاف عما نراه فى مثلها اليوم. لأن العلاقات بين الحيوانات هى صراع دموى مخيف كما يبدو فى صور العقبان والتنين التى تخلق جوا من الفزع والرعب . ذلك لأن تلك الصــور ليست زخرفة فحسب ، ولـكنها تبدو فياضة بحياة غريبة ، وتولد فى نفوسنا الشك فى أن الغرض منها هو الزينة فحسب ، ولاسيما أن بعض موضوعاتها ، وخاصة المفزعة ، تتكرر بشكل خانق . فنرى مصارع الوحوش ومناظر الصيد تتكرر على جدران القصور وعلى المنسوجات وعلى الأوانى الخزفية . ونرى موضوع الفارس الواقف بشكل جامد ، يقذف بسهمه أحد الحيوانات ، نرى هذا الموضوع فى الزخرفة منذ العصر البابلى ثم

عند الفرس حيث نقله هؤلاء إلى الفن الاسلامى ، ونجد أيضاً منظر حيوانين يتصارعان صراعا قاتلا . وتتغير طرز الرسم وتتعدد ، ولكن الموضوع الرئيسى يبقى ثابتاً لايتغير؛ فهو دائماً حيوان مفترس يهاجم آخر أضعف منه : أسد يهاجم حصاناً ، نمر يهاجم جملا ، فهد يمسك حماراً أو وعلا وكلاهما يجاهد ليتخلص منه ، نسر يختطف تيسا بريا أو يحمل بين مخالبه ثعباناً ، كل هؤلاء الخصوم الخرافيون الذين انتقلوا إلى أقاصيصنا وحكاياتنا ، موجودون على الآثار القديمة يحيون عليها حياتهم الخالدة .

ولنذكر من الموضوعات التى يتحد فيها عنصر حيوانى بعنصر نباتى ، موضوع نبات يحيط به من جانبيه حيوانان ، وهو موضوع كثير الورود ، وقد حدد معناه الدينى منذ عهد بعيد .

ولكن يجدر بنا ألا نخلط بين مناظر الصيد ومصارع الوحوش ، وبين شبيهاتها فى الفن الغربى . فمناظر الصيد فى الفن الغربى هى تصوير لصيد حقيقى يحاول فيه الفنان أن يصور لحظة معينة فى حياة بعض الحيوانات أو يحاول أن يرسم الدور الأسطورى لصيد ما . فالفنان الغربى لا يطمع إلا فى تثبيت لحظة من لحظات الحياة ، وفى رسم صيد معين بكل حركاته وتفاصيله . ولكن الفنان الشرقى على عكس ذلك ، يأخذ من كل مناظر الصيد معنى معيناً عميقاً ويجعل منه رمزاً خالداً لفكرة ما ، ويمثل لنا هذا الرمز فى رسمه وهو يستشعر القوة الهائلة التى يمثلها مثل هذا الرسم . وهذا الفهم للفن لايجعل الفنان يفكر فى أى تقليدللطبيعة ، وإنما هو على العكس يحاول جهدما يستطيع أن يجرد الأوضاع الانسانية ، ويخلق منها شيئاً لا يمت إلى العالم الواقعى بسبب . وهكذا يتخذ الفن الشرقى من منظر تمثيلى حى موضوعاً له ، ولكنه يحوله إلى رمز بحيث لايكون تمثيل الحياة غرضاً . كما أن هذه المناظر لاتعالج كلوحات خاصة إذ هى لا ترسم بمفردها مطلقاً ، وكأنها توضع فى إطار من دوائر ومربعات تتكرر على الشئ المزين تكراراً لا نهائياً فى كل الجهات ، كأنها زهرة زاحفة لا تقف عند حد. وتأليف هذه الزخرفة ، يسمح بتكرارها تكراراً ثابتاً مما يعطيها قيمة زخرفية ، ولكنه يحرمها فى نفس الوقت الطابع الشخصى الذى يميز كل عمل فنى . فحادث الصيد أو الصراع الحيوانى قد جرد مما فيه من شخصية ، وانتزعه التكرار من جوه الحقيقى وأخضعه لقانون تجريدى . وربما استطعنا أن نشبه هذه الظاهرة

بالتكرار الذى نراه فى الشعر ، تكرار بيت أو أبيات فى آخر كل مقطوعة . على أنه يبدو لنا أن هذا التكرار فى الشعر يرجع فى الأصل إلى تأثير السحر حين كانت تكرر الدعوة مرات عدة ، ليوثق بينها وبين معناها حتى تستجاب . ثم تغير التكرار مع الزمن ففقد الغرض العملى الذى أوحى فى الأصل بانشائه وبقى التكرار كأن لا غرض له .

وهكذا الحال فى الزخرفة . فان هذا التعارض بين الموضوع الذى يستثير الرحمة أو الفزع ، وبين هذا الوضع الصاب يجعلنا نحسب أن المسألة هنا أيضا ليست مسألة جلية فحسب ؛ فان هذه الرسوم تخلق جوًّا من القلق، يبدو عجيباً وخانقاً فى نفس الوقت ، فكأنه جو من السحر ما زلنا إلى الآن رغم كل شئ نتأثر به . ولكن هذا الشعور الغامض الذى تبعثه فينا هذه الزخارف يجد تفسيره فى الدراسات والبحوث الحديثة .

فعلم الاجتماع وعلم دراسة الأساطير المقارنة ، قد ألقيا ضوءاً كاشفاً على كثير من المشاكل الفنية ؛ فأصبح كثير من القيم الفنية ، يدرس فى علم الصور المنقوشة **iconographie** ومن الواضح أن العمل الفنى نشاط عقلى قائم بذاته، ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن العمل الفنى يشترك من نواح كثيرة فى حياة الانسان النفسية والحيوية . وهناك روابط اقتصادية ودينية تربط الانسان بالأرض وتثبته حين يحاول عقله أن يثب ويحلق فى أجواء علوية . وكلما رجعنا القهقرى فى العصور الخالية ، وجدنا هذه الروابط تزداد تشابكاً حتى تتحد فى مظهر واحد معقد تعقيداً لا يمكن النفاذ فيه .

ولم يبق هناك شك اليوم فى أن الفن « الحيوانى » عند قبائل الاستب بأوراسيا ، إنما هو مظهر فنى ودينى فى الوقت نفسه لحضارة كانت ما تزال فى حالة الطوطمية **Totémisme** . وهكذا يكون لكل هذه الموضوعات الزخرفية التى سحرت مستكشفيها من رجال الآثار ، قيمة غير قيمتها الفنية ، فهى ليست حلية وليست زخرفة وليست فنًّا صغيراً ، بل هى تعبير عن الشعور الدينى لخالقيها ، تعبير عن الرغبات الغامضة لتلك الشعوب . فهذه الرموز والتعاويذ والاشارات السحرية التى تزين سطوح الأشياء كانت فى الماضى جزءاً من حياة الناس تقيهم عاديات الدهر ومصائبه .

ثم إننا نجد فى هذه الزخارف معنى جديداً لم ندركه من قبل. (ولنلاحظ أن

الصيد الذى بقى إلى اليوم حيا قد تغيرت أغراضه عما كانت عليه فى الحضارات القديمة ، فهو اليوم لهو وتزجية فراغ ، ولكنه كان فى الزمن الخالى من المراسم المقدسة .)

وهذه الفائدة السحرية سببها إيمان الانسان الأول بأن الصورة ، والشئ أو الاسم والشئ ليسا إلا كلا واحداً . فاذا عرف الانسان اسم الإله فكأنه استولى على الإله نفسه (وهذا أمر كثيراً ما نجده فى المعتقدات القديمة وفى الأدب الشعبى القديم . فنرى مثلا شخصاً يجاهد ليعرف الاسم الحقيقى لأحد الأرواح ليستطيع تسخيره .) وهكذا كان تحريم الأديان الشرقية جميعاً لتصوير الإله أو لذكر اسمه الحقيقى يتفق مع إيمان الشرقيين بقوة الكلام أو الصورة . فهذه الزخارف ليست هى إذن زينة لا معنى لها ، وإنما هى صور سحرية قادرة على خلق عالم بأجمعه . وهى ليست أغصاناً من الزينة الرشيقة تملؤها الزهور والحيوانات ، وإنما هى أرواح شريرة على المرء أن يتقيها .

ونستطيع فى هذا الضوء إذن أن نفهم معنى تلك الزخرفة بموضوعاتها من حيوان أو نبات . إنها بقية ماض بعيد ، بقية مليئة بالأفكار وبالقوى الغامضة أتت لتحتمى فى عالم اليوم العقلى حيث طرأ عليها تحول خطير . وإنا لواجدون فى بعض الأساطير الحية اليوم ما يشهد بذلك المعنى القديم وما يؤكد اتصال تلك الصور بحياة الانسان . فاليك مثلا : ثعبان الجنة ، وحمامة العذراء ، وكبش ابراهيم ، والمسيح حين يرمز إليه بسمكة . وهكذا الحال فى لعبة «الريشة الطائرة» فهى بالقياس إلى أطفالنا تسلية بريئة ، ولكنها فى الصين رمز ومنبئ له قدره وأهميته ، انتقل عابراً العصور والبلدان ، ففقد معناه الأصلى الحقيقى . وهكذا صارت تلك الرموز حلية وزخرفة فحسب .

وقد قلد السحر ، كما لاحظ فوسيون Focillon ، عقد الثعبان فاخترع بذلك عقد الزخرفة . ولم يبق هناك شك اليوم فى أن أصل تلك الاشارات هو الوقاية من الشرور والأمراض . ولكن الاشارة تتغير وتستحيل إلى شكل لا علاقة له بالأصل . وهكذا نرى أن الأشكال العادية البسيطة المعتبرة زخرفة، خالصة تخفى أصلها الرمزى الذى اندثر تحت طبقات متراكمة من حضارات لا علاقة لها بالمعتقدات الأولى التى أنشأتها . وهكذا يرتفع لنا النقاب عن الزخرفة التصويرية ، حيوانية كانت أو نباتية . ولكن أيعنى هـذا أن الزخرفة

المجردة تخفى هى أيضاً قيمة أخرى غير قيمتها الجمالية ؟ هل لهذه الخطوط المتموجة المنزلقة المتعانقة أو المصطدمة ، هل لها هى أيضاً رسالة أخرى غير التى نراها بعيوننا ؟ أهى أيضاً رموز خفية لرسالة لم نستطع بعد حل ألغازها ؟ ولكن التفكير فى هذه الزخرفة ، إنما هو تفكير فى قوة التجريد **l'abstraction** وفى منابع الخيال التى لا نهاية لها .

إن العنصر الرئيسى بل العنصر الوحيد فى الزخرفة الاسلامية هو الخط . سواء أكان خطاً منحنياً فى العصر العربى ، أو خطا مستقيما هندسيا فى العصر التركى . فهذه الأشكال المجردة لا تثير فى عقولنا أى علاقة بينها وبين أوضاع الحياة ، وتبدو لنا كأنها لا معنى لها . فحياتها خاصة بها ، لا علاقة لها بحياة الانسان . فكأنها « شفرة » زخرفية قامت على قوانين مجهولة لنا . فأى شئ أبعد عن الحياة من تلك النزوات الهندسية التى هى أساس الزخرفة الاسلامية ؟ إنها جزء من العالم المجرد ، كونتها عقليات رياضية وأنشئت على أساس حسابى . ولكنا نلمح فى هذا الاطار الصاب الذى يحتويها نوعاً من الحرارة المتدفقة التى تكثر من الأشكال ، كأن روحاً عبقريا يطوى الخطوط ويحللها ثم يكوّن منها ذلك التيه الذى لا مخرج منه . إن الزخرفة الاسلامية كالعمارة الاسلامية تحاول أن تؤدى معنى الخلود ومعنى اللانهاية . فالجامع العربى يأخذ عن الصحراء فضاءها اللانهائى ويؤديه بتعدد الأعمدة ، والقبة المستديرة فى الجامع التركى تؤدى معنى الفضاء المطلق ، والزخرفة الاسلامية هى حلم اللانهاية .

ولنلاحظ أن تصميم الزخرفة الاسلامية يحاكى بساطاً يمتد امتداداً لا نهائيا فى جميع الجهات ويتكرر تكراراً دائماً ، ولكن هناك إطاراً صلباً يفرض عليها حدوداً لا تتعداها كأنه قوة خارجية تكبح جماحها . وفى كل زخرفة إسلامية نلقى هذا التعارض بين حلية يمكن أن تمتد إلى مالانهاية وبين إطار يفرض عليها سلطته القاسية وحدوده المحددة .

وهناك قيمة رمزية للدور الذى يلعبه هذا الاطار ؛ فان الموضوع الزخرفى يبدو كأن أطرافه قد قطعت بسبب هذا الاطار .

وهكذا نجد للزخرفة المجردة التى نلقاها فى الفن الاسلامى معنى عميقاً كذلك الذى نجده فى الزخرفة التصويرية؛ فهى مليئة بروحية فياضة تربى على الرمزية

البسيطة وتعلو على الزينة السطحية . ولقد حاولنا أن نحس ذلك المعنى الروحى مع أننا لن نستطيع أن نحيا فى ذلك الشعور الدينى الذى كان يحدو من خلقوها . ولكن تجارب الفن الحديث ، وقد عادت إلى المنابع الأولى للالهام الفنى ، أتاحت لنا أن نستشعر شيئاً من قيمة الزخرفة المجردة ، وهى قيمة لم نكن نحسها قبل اليوم . ولقد فهمنا الآن أن اليد التى تخط أوضاعاً وخطوطاً بحركة سريعة أو بطيئة ، والتى ترسم متاهات لا يمكن النفوذ منها ، إنما هى يد حساسة مترجمة كأنها جهاز السسموجراف sismographe ، يد تترجم عن أخفى الهزات النفسية ، وعما يعتورها من انقلابات واضطرابات . وهذه الاشارات الفنية تجعل ذلك الفوران النفسى بادياً للعيان . وهى تجمع كل ما يأتى من أعماق الحياة ، ومن المشاعر والثورات النفسية ، إن الزخرفة كالحلم تقع فى الجانب غير الواعى من عقلنا . إنها تأتى رأساً من المناطق المظلمة فى النفس الانسانية ، تلك المناطق التى لا سيطرة لنا عليها . (وربما أمكن فى المستقبل أن ينشأ على أساس الزخرفة والحلم والكتابة الأتوماتيكية ، علماً يصور النفس الانسانية psychographie فالزخرفة الشرقية هى أول أبجدية ، وأول إشارات ترجمت عن الفكر الانسانى . فبهذه الخطوط المنحنية والمنعطفة ، ظهر لأول مرة ما يعبر عن آلام الانسان وآماله .

وهكذا حاولنا أن نفهم منابع الزخرفة وأصولها ، مستعينين فى ذلك بالعلوم التى تتاخمها . ولقد فسرها الناس تفسيراً يتفق مع حضارتنا الحديثة المادية . ولكن هذه الأشكال الجميلة ليست إلا القالب الذى وعى الرموز البعيدة التى اختفت من عالمنا . ولقد ساهم فيها الانسان كما ساهم فى كل الفنون الأخرى بكل نفسه . وإن ما نستشعره اليوم فى هذه الرسوم من جمال ليس إلا تذكرة ضعيفة نائية لما سحرت به الزخرفة عقول الأقدمين . وإن رشاقة هذه الخطوط ليست إلا ذكرى غامضة ، للعواطف العنيفة التى كانت تضطرم فى نفوس القدامى .

فالزخرفة الاسلامية بما فيها من تجريد كى تشهد على قلق الانسان وسط الكون . وما الزخرفة العربية الرشيقة وأشكالها الهندسية التى تستوحى قواعدها من قواعد الرياضة ، إلا تكرار للموضوع الرئيسى ، ألا وهو الرغبة فى حل معادلة اللانهاية .

هيامير دالوشر

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

رسائل الزهاوى[1]

قدمت إليك منها بالعددين الماضيين يا صاحبى ما يسمح به المجال ، وهى بما تحمل بين ثناياها من طرافة وجدة محببتين تفسحان لها مكاناً بارزاً بين أدبنا العربى الحديث ، جديرة بالدرس والتمحيص والوقوف أمامها طويلا للتملى بلونها الجميل .

أجل . . . فهذا لون من ألوان الأدب الجديد — أدب الرسائل — استحدثناه ، أو بعبارة أخرى نبشنا دفائنه وأحيينا مواته ، ذلك لأن اللغة العربية لم تحظ بهذا اللون الجميل اللهم إلا فى النادر القليل ، بعكس اللغات الأجنبية فانها مشحونة بهذا الضرب الرفيع بنماذجه الرائعة وأنماطه العذاب .

لقد استطعت أن أجعل من الزهاوى مترجماً لنفسه يصوّر حياته بقلمه بما لا يدع مجالا للشك والريبة فى هذه الحياة العجيبة الخصيبة التى ظلت تكافح وتناضل فى سبيل اللغة والوطن حتى آخر نسمة منها .

وحياة الزهاوى بقلمه — كحياة كل بطل بقلمه — لا تترك لمتخرص أو ملفق ثغرة ينفذ منها إذا ما تحدث عن صاحبها التاريخ فى يوم ما . والتاريخ هو ذلك المنصف العادل الذى يقدم لنا فى أمانة و إخلاص حياة الرجال وسير الأبطال ويكشف للناس ما علق بها من زيف أو باطل ، وما أحاط بها من سموق وجمال .

وجدير بنا اليوم أن نتأمل حياة الزهاوى ونترسم خطاها ، ذلك لأن صاحبها قد خرج إلى الناس من برجه العاجى وصومعته الفكرية وكافح فى سبيل رسالته كما يكافح الأبطال الصناديد ، ولم تلن الحادثات قناته أو يفت العدو أو المرض فى عضده وكثيراً ماطوّف فى الأقطار والأمصار جرياً وراء إعلاء شأن وطنه والنهوض بنهضته المرموقة ليبلغ بها حد الكمال فى جرأة عجيبة ، وصراحة

(١) الكاتب المصرى عدد ١٥ (ديسمبر ١٩٤٦) وعدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

قاسية وشجاعة نادرة دون أن يدخر شبابه أو يرحم شيخوخته الواهنة .

وهو فى ذلك كله مثال الوطنية الصادقة والثقافة الشاملة والعبقرية الخالصة والشاعرية الفذة الثائرة على الأوضاع البالية والتقاليد العتيقة التى طالما ثبّطت هذا الشرق — المهيض الجناح — عن النهوض بأعبائه الجسام طوال تلك الأحقاب القاتمة السود .

واليوم أقدم إليك رسالة أخرى تحمل معها خلاصة التحقيقات التى دارت بينى وبين ذلك الرجل العظيم ، فقد راعيت فى تحقيقاتى معه — بادئ ذى بدء — أن أكوّن مقالا مقتصداً فى أسئلتى إياه حتى لا أبعث الملل فى نفسه من ناحية ومن ناحية أخرى كيما أصل إلى مفتاح شخصية — سيكلوجيا — فى هدوء واطمئنان وأستطيع أن أصور حياته على ضوء هذه التحقيقات وأذكر لك اليوم بعض الأسئلة :

« ما تاريخ ميلادكم » و « ما البيئة التى ولدتم فيها ؟ وهل بها خلق الأدب فيكم ؟ وهل ساعدت رسالتكم على الظهور » و « ما حوادث الطفولة ونوادرها ؟ » و« ماهو الجانب المرح منها والجانب العالى أيضاً ؟ » و« ماهى المدارس التى تعلمتم فيها ؟ » و « ما هو تاريخ الحب عندكم ؟ » و « إلى أى مدى أثر على أدبكم ؟ » و « ما هى المدارس الأدبية التى تأثرتم بها ؟ »

ولما أن نشرت الشطر الأول من ترجمة حياته واطمأن الرجل إلىّ أخذت ألقى عليه بعض هذه الأسئلة :

« ماهو الاصلاح الذى تنشدونه كيما ينهض الشرق العربى ؟ » ، « ما هى أحب المذاهب الفلسفية لديكم » ، « ما هى الكتب الحديثة التى يفتقر إليها الشرق العربى » ، « ما هى أهم رحلاتكم وتاريخها » ، « ما هو المركب الخشن الذى تعمدتم ركوبه فى حياتكم » ، « وما هى أحب الكتب الاسلامية لديكم» « ما هى أحب النظم الاجتماعية إليكم » ، « هل فشلت الديموقراطية » ، « ما هو المثل الأعلى للفتاة الشرقية » . . . « كيف ترى الجيل الحديث » . . . « لو وليتم الحكم على جزيرة تسود أهلها الفطرة والسذاجة فما هى القوانين التى تقن إليهم » ، « كيف تداوى البطالة » ، « هل الحرب ضرورة لابد منها » « إذا جلست إليكم كتلميذ يود الاستفادة فماذا تنصحون به إلىّ ؟ »

إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التى تفصح عن سريرة الرجل ومدى ما استحوذ عليه من معتقدات ، وما يضمره بين جوانحه من آمال وآلام .

لا تحسبن يا صاحبى أن هذه الأسئلة بمفردها وأجوبتها وحدها تفتح باب الشخصية للكاتب الذى يريد أن يصل إلى مغاليق شخصيته التى يتوافر على دراستها . . . كلا بل لا بد له من تحقيقاته الخاصة التى تساعده على خفايا شخصيته ، واستكناه أسرار بيئاته التى سرب فى منعرج دروبها ، وما أطبق على صوره من خفاء وظلام .

ماذا تريد من وراء حياة كحياة الزهاوى ؟ . . . وهو قد قضاها فى خدمة وطنه العزيز ولغة الضاد الخالدة ، بجهاده السياسى والاجتماعى وبآثاره العلمية والفلسفية التى نحرص عليها ونستطيع أن نقدمها إلى العالم بكل اعتزاز وفخار .

رحمه الله لقد كان فى جميع أدوار حياته مثال العالم الجم المتواضع والوطنى الأمين .

إى وربى إنه أدى رسالته ، وعمل ما يعمله الرجال لأوطانهم ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون .

أحمد محمد عيشى

صديقى المحترم

ما كان ينبغى لك أن تشغل أوقاتك الثمينة بتأليف كتاب تسميه باسمى فأنا لست ذلك الشاعر أو الفيلسوف الذى تكتب باسمه الكتب وأنا لم أجب على أسئلتك السابقة إلا لالحاحك الأول أن تنشر ترجمة حياتى فحسب فعسى أن ترجع عن رأيك فتريح نفسك وتريحنى .

وقد ترددت طويلا فى أن أجيب على أسئلتك هذه الأخيرة ولكنى رأيت أخيراً أن أجيب على بعضها وأتغافل عن البعض لأنه يحتاج إلى إجهاد الفكر وأنا شيخ قد نهكته الأمراض وقد أغمى علىّ قبل أيام فى سوق المكاتب فحملونى فى عربة إلى دارى وأنا لا أعى .

أما الايصالات فأنا فى شغل عنها بنفسى ، ولا أحسب أن مثل هذا الكتاب

يروج فى العراق ، وقد كلمت « محمود افندى حلمى » صاحب المكتبة العصرية ببغداد عن جمع الاشتركات فيه ، فأجاب إنى ذاهب إلى مصر وربما تقابلت فيها مع الأستاذ أحمد محمد عيشى ، فاتفقنا بيننا على بيعه أو جمع الاشتراكات فيه ، وإذا لم يقابلك فى مصر فهو راجع بعد شهر تقريباً إلى بغداد فيحسن أن تكاتبه فى شأنه ، وليس فى تلاميذى من يمكن أن أوعز إليه أن يقوم بأمر هذا الكتاب .

وإذا صممتم على نشره فأرجو أن تحذفوا منه ما يؤيد أعدائى فى طعنهم بدينى فانك لا تدرى أن مثل هذا قد يودى بحياتى . ولم يكتب إلى أحد عنك شيئاً ، إنما أرى نفسى على وشك الرحيل ولا يهمنى الموت ولكن يهمنى أن يتألم أقاربى وأهل بيتى بعد موتى بما يشيع عنى من زندقة وإلحاد ، فان التفكر فى هذا وحده يزعجنى وأنا أريد أن أحيا أيامى الأخيرة فى راحة وأموت من غير ضوضاء ، ويسرنى أن أسمعك تقول لى قد رجعت عن تأليف الكتاب أو نشره فأكون لك من الشاكرين .

جميل صدقى الزهاوى

بغداد فى ١٢ تموز سنة ١٩٣٣

أجوبتى عن أسئلتك

١ و ٢ — ترى قصة « امرأة الجندى » منظومة فى ديوانى الذى نشر فى مصر قبل أكثر من ثمانى سنين « ديوان الزهاوى » وقد أرسلت إليك نسخة منه .

أحرج ساعاتى هو لما سجننى السلطان عبد الحميد وأرجعنى إلى بلادى مخفوراً ذليلا جزاء اتفاقى مع الترك الأحرار فى طلب الدستور قبل ٣٦ سنة تقريباً ، وكذلك يوم هاج الشعب العراقى علىّ قبل ٢٣ سنة لمقالة شديدة لى نشرها « المؤيد » فى مصر فى الدفاع عن المرأة حتى أنى قبعت فى دارى أسبوعاً ولم أخرج منها خوف اغتيال الشعب الحارد لى وعزلنى يومئذ والى بغداد « ناظم باشا » من وظيفتى فى مدرسة الحقوق ببغداد ، وأحب ساعاتى إلىّ الساعات التى كنت أقرأ فيها الجرائد السورية والمصرية كلمات التقدير لكتاباتى وقصائدى ويوم جاءنى — وأنا أستاذ للفلسفة فى جامعة الاستانة — نفر من كبار الناقدين من أساتذة الجامعة يبلغوننى رسمياً أن محاضرتى التى ألقيتها قد كسبت الأولية ، وقد كانت

وزارة المعارف قد اختارت ثلاثة من أساتذة الجامعة (أنا كنت أحدهم) لالقاء محاضرات فى الفلسفة على جمهور من تلاميذ الجامعة وغيرهم من الأساتذة والمنتمين إلى العلوم .

٣ — تارةأقصد بليلى العراق وأخرى الحقيقة وفى بعض الأحوال الفتاة التى كنت أحبها فى الأستانة « راحيل » .

٤ — شعرى الذى سيطر عليه الحب بضع قصائد تراها فى ديوان الزهاوى ، واللباب والأوشال وسأرسل إليك بعضها .

٥ — ليس فى نيتى الآن وضع أغنية على أثر سماعى أم كلثوم .

٦ — العلم والأدب جناحان للرقى يطير بهما الشعوب فلا أفضل العلم على الأدب إلا قليلا .

٧ — النزعية الشرقية أقرب من النزعة الانسانية إلى أبناء الشرق ولكنى أنقاد إلى الثانية أكثر من الأولى . أما سؤالك أيهما أجدى لنا فأقول الأجدى لنا هو النزعة الشرقية ما دمنا لم تبلغ من الحضارة الدرجة الرفيعة .

٨ و ٩ و ١٠ — طاغور شاعر متصوف له دقة الخيال وهو يعرف كيف يهز أوتار قارئيه ، أما العقاد فهو من كبار الكتاب وقد يجيد النظم ككبار الشعراء وأما الرصافى فهو كما قال فيه العقاد « ماضيه خير من حاضره » وعلى كل حال هو خير الجماعة الذين ينظمون الشعر فى العراق ، وأما الشعراء فى الشرق العربى فالحقيقة أن لا شعراء فيه ، فهم مقلدون إما للغربيين أو لقدماء شعراء العرب وهم على درجات .

١١ — لا علم لى بدرجة أهلية المستشرقين للمجمع اللغوى المصرى غير أنى أفضل لهذا المجمع الأدباء المتساهلين على غيرهم لا اللغويين الجامدين.

١٢ — وجدت أكثر النقد مبنياً على الأغراض أو الجهل وحبذا النقد إن كان نزيها . أما النقد الحاقد فضرره تثبيط العزائم فى الشباب الناهض

ملأوا صدور الصحف حقدا والحقد قد سمّوه نقداً

١٣ — نظرية انشتاين النسبية .

انشتاين فتح باباً جديداً فى الفلسفة جعل العلماء يفكرون فيها تعليلا لغوامض الكون على أن أكثر قضاياها لا يرضى المنطق ، وإن أرضى الرياضيات على

زعمه . أما كون النور فى قرب الاجرام يسير فى خط منحن عليها فصحيح ، ولكنى لا أرى أن السبب هو انحناء طريقه من الفضاء بل هو كون النور الكترونات قد انبثقت من الجسم المنير والالكترونات أبسط أجزاء المادة ، ولما كانت المادة تنجذب إلى المادة فلا بدع إذا انجذبت الالكترونات مثلها ، ولكن المادة بطيئة الحركة فمقاومتها لجاذبية الأجرام قليلة إلا على أبعاد تقل فيها قوة الجذب وأما الالكترونات فسريعة جدّ السرعة فمقاومتها لها كثيرة ، ولذلك يرى الراصد أن الانحداب الذى يسير فيه النور فى خارج الذرات أقل بكثير من الانحداب الذى تسير فيه المادة .

نعم ، تسير الالكترونات حول نواة الذرة فى دوائر ضيقة ولكن سيرها سريع جداً ، فلو تباطأت لسقطت عليها ولو كبر حجمها أو كثر ثقلها لسقطت أيضاً عليها ، وانحناء دوائر حركتها بالنسبة إلى صغرها ليست أكثر احديداباً بالنسبة إلى كبر السيارات التى تدور حول الشمس .

ولو أثبت الرصد أن النور فى كل سيره ضمن الفضاء يسير فى خط متساوى الانحناء لثبتت دعواه ، ولكن الرصد لم يثبت إلا انحناءه فى حركته عند مامر من فوق الشمس ، وهذا يدل على أنه انقاد لجاذبيتها لا أكثر من ذلك .

المكان والزمان

وانشتاين يحسب أن الفضاء خاصة من خواص الجسم ثم يدعى أنه عدم محض ، والمشاهد أن الفضاء يقاس بالمتر والأقدام ويطول ويقصر بين سديم وآخر وشمس وأخرى ، والشمس وسياراتها على التفاوت فكيف يقاس العدم ، فكان الواجب أن تتصل السدم والشموس والسيارات ، وأن يصل النور إلينا من « الشعرى » مثلا ومن الشمس فى وقت واحد لأن الفضاء عدم والواقع خلاف ذلك و إذا كان الفضاء عدماً فهل ينحنى العدم أم يدعى انشتاين أن ليس بين سديم وآخر مثله فراغ .

أنا أرى أن الأجسام (المادة) ليست بذات أبعاد بل الأبعاد هى للفضاء تلبسها المادة ، فاذا تحركت إلى جهة نزعت أبعادها وراءها ولبست منه أبعاداً مثل أبعادها التى نزعتها ، وهذا دليل أوردته فى كتاب الكائنات على أن المادة فى أصلها قوة .

ولا يمكننا أن نتصور الأبعاد فى الجسم على غير هذه الصورة ، فاذا ثبت أن الفضاء موجود كما قدمنا ، وأنه ذو أبعاد وأن الجسم له أبعاد خاصة به وقعنا فى مشكل لا خلاص منه لأنه إذا حركنا الجسم من مكان إلى مكان آخر نتساءل عن أبعاد المكان الثانى أين ذهبت فهل تداخلت أبعاد الجسم والفضاء أم هل انعدمت أبعاد أحدهما ؟

وانشتاين يرى الزمان بعداً رابعاً للأجسام ، وقد يقول بعدمه كالمكان ولا أدرى لماذا يتصور كون الزمان بعداً رابعاً للأجسام ، ألمجرد كون الجسم المتحرك لا يخلو من زمان ، إذن نستطيع إن نقول أن الحركة بعد خامس للأجسام لأنها لا تخلو منها ، وأن الجاذبية بعد سادس لها لأنها لا تخلو منها .

وأرى فى أن كل حركة الأجسام تتخللها السكنات ، وهذه السكنات تقاس ، فاذا أسرعت الحركة قلت السكنات ، فقل زمان الحركة، وإذا أبطأت كثر زمان الحركة لكثرة السكنات ، فالزمان هو مقدار السكون لا مقدار الحركة كما يظن .

والحركة قوة كالنور والحرارة الكهربائية ، فكما أن النور ينفصل عن الجسم المنير فى صورة وحدات تتخللها فواصل كذلك الحركة فى المتحرك تكون فى صورة وحدات تتخللها سكنات ، فهى لا بد لها من زمان .

ويقول انشتاين إن الأجسام موزعة بالتساوى فى الفضاء مع أن الأرصاد القوية تعلمنا أن الفضاء بين سديم وآخر خلو من الأجرام ومادة الشمس فى مركز نظامنا أكثر من مادة كل سيارة حولها ، ولا أدرى لماذا يجب أن نسلم بأن الحيز المادى لا يمكن أن يمتد بلا نهاية كما يدعى انشتاين فأى صعوبة فى تصورنا الفضاء لا يتناهى والأجرام منتشرة هنا وهنالك فيه إلى غير النهاية ، وهذا لا يستلزم أن يكون الحيز المادى جرماً واحداً لا يتناهى بل الذى لا يتناهى منه هو عدد الأجرام . ولعل الفضاء هو الأثير المنشىء للمادة ، ولا يكون الأثير فرضاً بل هو شىء يقاس وعليه فالفضاء أم الكون .

الدفع عوض الجذب

يدعى انشتاين أن سبب الجاذبية هو أن الأجسام تشع حولها جواً مغناطيسياً وهذا الجو المغناطيسى هو الذى يدفع المادة إلى المادة وإنما يقع الحجر على الأرض ، لأن الأرض تشع حولها جواً مغناطيسياً ، وهذا الجو يدفع الحجر إلى

الأرض مستقلا من الأرض فالأرض لا تجذب الحجر بل الجو الذى أحدثته الأرض تدفعه .

وأنا أول من أنكر الجاذبية وأقام مقامها الدفع ، فقد كتبت فى ذلك عدة مقالات نشرها لى المقتطف الأغر قبل ٤٠ سنة تقريباً ، ثم نشرت شيئاً من نظريتى هذه فى كتابى الكائنات المطبوع فى مطبعة المقتطف فى سنة ١٨٩٦ ، ثم عدلتها فى رسالتى « الجاذبية وتعليلها » وقد نشرت فى بغداد سنة ١٩١٠ ، ثم فصلتها فى رسالتى « المجمل مما أرى » .

وخلاصة ما ارتأيته فى هذا الباب هى أن الحركة لا تتم إلا بدفع القوة ، والقوة هى الأثير ، فالحركة هى نتيجة دفع الأثير ، ولما كانت الكترونات المادة فى حركة سريعة فانها تستهلك الأثير بنسبة كثافة المادة ، فتختل موازنة الأثير فى داخل المادة وخارجها فيجرى الأثير من المحيط إلى ذرات المادة سداً لهذا الخلل وهو فى جريانه هذا يدفع كل مادة فى طريقه إلى المراكز الكبرى ، وكلما زادت كثافة الجرم فان جريان الأثير إليه وبعبارة الدفع إليه يكون أقوى وأشد وكلما قرب الجريان من الجرم كان الدفع أقوى .

المد والجزر

من المعلوم لعلماء الفلك أن المد والجزر لايكونان منفردين ، بل هما مزدوجان فاذا كان فى نصف الكرة الشمالى من الأرض مدّ قابله فى نصف الكرة الجنوبى مدّ مثله وفى وقت حدوثه وكذلك الجزر ، فالمد والجزر مزدوجان فى كل وقت .

ومد القمر أكبر من مد الشمس لبعد الثانية ، وهناك مدان عظيمان يحدثان عند اقتران القمر والشمس أو استقباله .

تعليل المدين المتقابلين بحسب ناموس الجذب

يعلل العلماء المدّ بأن القمر مثلا يجذب مياه البحر خمسة أقدام ، ويجذب كتلة الأرض تحت قدمين ونصفاً ، فيعلو الماء من وجه البحر إلى جهة القمر مقدار قدمين ونصف ، وتفارق الأرض المياه فى الجهة الثانية المقابلة للجهة الأولى مقدار قدمين ونصف فيكون فى الجهتين المتقابلتين من البحر مدان متقابلان متساويان سواء كان المد بسبب القمر وحده أوالشمس وحدها أو القمر والشمس

عند الاقتران أو القمر والشمس عند الاستقبال ، والجزر انحسار المياه بعد انتقال القمر فى فلكه .

وأنت إذا أنعمت النظر وجدت أن هذا التعليل فاسد من وجوه ، الأول أن القمر لو كان يجذب كتلة الأرض إلى نفسه فى كل لحظة من سيره مقدار قدمين ونصف قدم فكم بالأحرى أن تجذب الأرض القمر إلى نفسها ، ولما كان هذا التجاذب من الطرفين مستمدين وجب أن يكون القمر قد سقط على الأرض منذ أكثر من مليار سنة .

الثانى أن القمر الذى يجذب المياه فوق وجه البحر فى كل لحظة مقدار خمسة أقدام ويجذب كتلة الأرض تحت المياه مقدار قدمين ونصف ، لماذا لا يجذب المياه وراء كتلة الأرض لا قليلا ولا كثيراً وهى متصلة بها . بل لماذا لا تجذب الأرض إلى نفسها المياه فى الطرف المقابل لطرف القمر وهى أكبر من القمر كثيراً وأقرب إلى هذه المياه لاتصالها بها ، فلا يكون المدان متساويين بل لايكون مد فى ذاك الطرف .

والثالث أن القمر عند الاستقبال إذا جذب إلى نفسه كتلة الأرض قدمين ونصفاً فان الشمس فى الجهة الثانية تجذب الكتلة هذه إلى نفسها مقدار قدم واحد ، فلا يتساوى المدان .

تعليل المدين المتقابلين بناموس الدفع

المادة فى نظرى تدفع المادة لا تجذبها والأثير يدفع المادة إلى المادة ، والأثير هو الكهربائية فى أبسط صورها ، وإنما تدفع المادة إلى المادة بأثيرها ، والأثير محيط بالأرض ضاغط عليه بالتساوى كل نقطة كأنه غلاف له ، وثقل الأجسام على الأرض نتيجة هذا الضغط ، فاذا ضغطت كهربائية القمر (وهى سالبة تخالف كهربائية الأرض الموجبة) على وجه البحر من ناحية لم تؤثر فيه لأن الماء موصل تام لها بل تؤثر فى كتلة الأرض تحت الماء ، وإذ كانت لا تستطيع أن تبعدها فهى تقعرها أو تبسطها فى المكان المقابل للقمر فتختل موازنة الماء فى ذلك المكان من وجه كرة الأرض فيجرى من الأطراف إليه لاعادة الموازنة ، وهذا هو المد فى الوجه القريب من الأرض . وأما المد المقارن لهذا المد فى الوجه المقابل فسببه أن ضغط كهربائية القمر على

الأرض ينتقل من وجه الأرض إلى مركزها فالوجه الثانى ولما كانت الأرض مضغوطة بالأثير فهو حاجز يمسك الأرض من الابتعاد بقوة القمر الضعيفة ونتيجة منع الأثير هذا لابتعاد الأرض أنها تنقعر أو تنبسط فى الوجه الثانى كما فى الوجه الأول وبقدره ، فتختل موازنة الماء و يجرى من الأطراف إلى النقطة المنقعرة إعادة للموازنة كما فى الأول فيتكون مدان متقابلان على وجه البحر فى جانبى الكرة الأرضية .

وأقرب مثال للمدين المتقابلين هو أن تضع ليمونة مدورة على سطح ثابت وتضغط على وجهها الفوقانى بكفك ، فان ضغط الكف لا يبعد الليمونة بل يبسط وجهها تحت كفك ويبسط الوجه البعيد بقدر بسطه الوجه القريب .

١٤ — اعتقد أن للذرات عمراً كما للخلايا فى جسد الحيوان ، فهى إذا تفتت فى ناحية من المادة تتألف فى ناحية أخرى ؛ فالمادة تنحل ، ولكن لا تنعدم الكتروناتها و بروتوناتها ، فليس بصحيح قول بعضهم إن المادة تفنى ، فان المادة ليست غير هذه الالكترونات ، وهذه تنتقل ولاتفنى ، وتفتت الذرة هذا يؤيد رأيى فى وحدة الوجود وهو ماصرحت به فى أماكن متعددة من كتابى «الكائنات» .

١٥ — الكونتم .

اوجد نظرية « الكونتم » ماكس بلانك الألمانى لتفسير صعوبات لم تتوجه بغيرها ، وهذه النظرية تتلخص فى أن أمواج النور والحرارة وغيرها من أنواع الاشعاع ليست متواصلة بل متقطعة ، فالجسم النير يطلق أمواجاً ثم يقف ثم يطلق ، وهكذا فتنطلق هذه لقذائف وبينها فواصل ويسمى كل من وحدات النور هذه « كونتم » .

ولم أقرأ شيئاً يبين علة تقطع حبل الاشعاع فى صورة وحدات ، ولكنى أرجحه فان الطاقة هى الالكترون المنفصل عن الذرة المهتاجة وكل الكترون وحدة مستقلة .

١٦ — أرى أن الأشعة الكونية هى الكترونات و بروتونات تأتى من السدم أو الشموس التى هى أضعاف شمسنا ذات حرارة هى أشد من حرارتها كثيراً ، فهذه هى أسرع من البرتونات والالكترونات فى مواد أرضنا أو نظامنا فهى تأتى من كل ناحية من السماء وتخرق الأرض والمواد المعدنية أكثر كثيراً مما تخرقه أشعة إكس وغيرها وربما كانت هذه الأشعة هى السبب للدفع الذى نسميه جاذبية .

١٧ — إذا ضعفت المادية من ناحية فهى تقوى من نواحى أخر ، والسبب هو تقدم العلوم المادية والحضارة الغربية قائمة على هذا التقدم . أما العلوم الروحية ، وعلوم ماوراء الطبيعة فقد أخذت تتقهقر أمام جيش هذه الاكتشافات.

يستدل بعضهم على أن تقهقر المادية بانهدام المادة ورجوعها إلى الاشعاع وهذا لا يمس المادية ؛ فالماديون كانوا يعتقدون أن ذرات المادة لا تنعدم ، وأنها أصغر ما فى المادة ، واليوم ظهر أن الذرة تنحل وأن أصغر ما فى المادة هو الالكترون فماذا خسر الماديون .

١٨ و ١٩ و ٢٠ — لا أعتقد بروح مستقل عن المادة (الجسم) ولا أرى له تعليلا علمياً ، و إذا كان هناك روح فهو الحياة فيكون الروح مؤلفاً من حياة الملايين من خلايا الجسد ، وليست الأعمال الروحانية التى يقوم بها بعض الروحانيين من العلم فى شئ وقد ظهر خداع كثير من الوسطاء ، إما باعترافهم أو بملاحظة لجان علمية تراقبهم ، وقد انخدع بهم بعض كبار العلماء ولا غرو فان الذى يختص بعلم فيبرع فيه قد يكون بليداً فى غير ذاك العلم .

٢١ — لم أفهم شيئاً من سؤالك هذا لالتباس الخط .

٢٢ — ما للمسلمين فلسفة خاصة ، بل كل ما هنالك اتباع لأرسطاليس وتأييد لأقواله أو الأخذ به كأنه وحى منزل وأحب الكتب الاسلامية إلىّ هو القرآن .

٢٣ — أثرت آراء المعتزلة فى بعض المسائل على آرائى .

٢٤ — والمذهب القوى فى رأيى هو مذهب داروين فى النشوء والارتقاء وقد تبعته ولم يتبعه فى العراق أحد غيرى قبلى ، وقد شاع فيه بسببى .

٢٥ — أتمسك بنظريتى « الناموس الدورى » ونظريتى « الدفع عوض الجذب » ونظريتى أن السيارات حول الشمس سوف تكبر بمرور الزمن وتبتعد تدريجاً عن الشمس حتى تكون شموساً وأن المشترى قد بدأ يكون شمساً فهو أكبر السيارات ، وقد ذاب سطحه لشدة حرارته ، وسوف تكون أقماره سيارات لها . وقد كانت شمسنا فى القديم الأقدم سيارة حول شمس أكبر منها فنمت بطول الزمن بسبب ما كان يقع عليها من الغبار الجوى والنيازك والرجم وبما كانت تمتصه من الأثير الذى يجرى إلى المادة رداً للموازنة كما شرحته قبلا وابتعدت عن الشمس التى كانت تدور حولها حتى صارت شمساً مضيئة بذاتها

لكثرة ما ينعكس الأثير من باطنها بعد جريانه الشديد إليه ، وهناك شموس كانت سيارات حول الشمس التى كانت شمسنا سيارة لها ، فنمون وابتعدن عن تلك الشمس حتى صرن شموساً مثل شمسنا ، أو أكبر منها . وأما الشمس الأصلية فقد سميتها « شمس الشموس » كما فصلت ذلك فى كتاب الكائنات وقد ثبت لعلماء الفلك أن شمس نظامنا متحركة ضمن الحجرة فى فلك واسع جداً جداً فأعلل هذه الحركة بدورانها حول شمس الشموس .

٢٦ — الشرق يفتقر إلى الكتب الحديثة العلمية و إطلاق الحرية الفكرية للناس .

٢٧ — نصلح الفلاح باشراكه لصاحب الملك بشروط إن أخل بها بطلت شركته .

٢٨ — ما فى العراق نهضة أدبية تشبع ، ولا أدباء غير حفنة مبعثرة فى مقدمتهم صديقى الأستاذ الكبير فهمى بك المدرس .

٢٩ — حاولت فى كبرى أن أتعلم الانكليزية فمنعتنى انشغالاتى الفلسفية عن الممارسة .

٣٠ — كان والدى يتقن الفارسية ويحب شعر الخيام والفردوسى فعلمنى إياها وصرت أنظم فيها ، أما اللغة التركية فكانت اللغة الرسمية فتعلمتها لنيل المناصب.

٣١ و ٣٢ — إقامتى فى مصر لم تزد على أربعة أشهر ونصف شهر ، وقد كنت متألماً فى بغداد من جراء ما لحقنى من حيف فصممت الاقامة فى مصر ولكنى لم أستطع الاقامة طويلا لغلاء المعيشة المتوسطة فيها ، ولشدة التعصب يومئذ فى بعض أهلها ، وقد كانت تنشر القصائد لى يومئذ جريدة الأهرام والمقطم والسياسة .

٣٣ — جوانب الشباب المرحة هى فى ركوب الأخطار لنيل الأوطار وقد كنت فى شبابى من أقوى الشبان وأسرعهم فى العدو وأبطأهم فى المكث تحت الماء إذا تسابقنا فيه ، وأكثرهم نشاطاً .

٣٤ — لو لم أكن شاعراً أو فيلسوفاً اخترت أن أكون محامياً .

٣٦ — والعمل الصعب الذى تعمدت أن أركبه هو مقاومة الاستبداد فى زمن السلطان عبد الحميد الجبار .

٣٧ — لا سبيل لأن يعيش المرء هنيئاً مادام تنازع البقاء سنة لا تبديل لها وقد يأتى الهناء فى فترات قصيرة .

٣٨ — لم تعجبنى الروايات العربية ، كما أعجبتنى الروايات المترجمة إلى العربية ، وقد أعجبتنى فى شبابى رواية البؤساء لهوجو مترجمة إلى التركية فى مجلدين ضخمين ، وقد تعجبنى روايات ريدر هجرد لما فيها من سعة الخيال .

٣٩ — أحب شخصية محمد لأنه من أكبر المصلحين ، وأحب كوبرنيك لأنه أول من أثبت أن الأرض تدور حول الشمس ، وأحب دارون لأنه عرفنا ما هو أصل البشر ، واكتشف نواميس النشوء والارتقاء ، وأحب نيجه الألمانى لجرائته فى القول والكتابة .

٤٠ — الثقافة التى يجب أن يحصل عليها الشاعر الفحل والروائى القدير والأديب الفنان ، هى معرفة علم النفس والجرأة فى القول .

٤١ — أحب الحكومات إلىّ هى البلشفية أو الفاشستية .

٤٢ — أود الاقامة فى مصر لو كانت ماليتى تساعدنى.

٤٣ — الفتاة التركية هى المثل الأعلى لثقافة الفتاة الشرقية .

٤٤ — تصلح الحياة بالعلم والأخلاق فقط .

٤٥ و ٤٦ — فشلت الدمقراطية ، وما الثورات فى كثير من البلاد إلا أدلة على هذا الفشل ، ولما كانت البلشفية والفاشستية لم تفشلا بعد ، فكثير من الناس يميل إلى أحدهما .

٤٧ — ما نجحت القصة الشرقية إلا قليلا .

٤٨ — كان شوقى شاعر مصر كما لكل قطر شاعر .

٤٩ و ٥٠ — لا يصح الحكم على أن فلاناً هو الفنان الأول فى الشرق دون غيره ، فان الشرق أكبر من مصر وأكبر من العراق . وقد يكون فى العربية من يستحق جائزة نوبل ، ولكن قليلا ما يفضل الغربى الشرقى على اخيه وربما كان السبب ضعف الترجمة أو اختلاف النزعات .

قلدت أهل الغرب فى الشعر ناس ... وإذا الشعر أنفه مجدوع
ما دروا أن الشعر فى كل أرض ... هو من نفس أهلها منزوع

٥١ — لا يعلم الأطفال كالامهات إذا كن متعلمات .

٥٢ — لو كنت رزقت أولاداً لسعيت أن أجعلهم مثلى كما سعى أبى أن يجعلنى مثله .

٥٣ — عددت لك فى جوابى عن العدد ٣٩ من أعظمهم من رجال الغرب وأما فى الشرق فانى أعظم والدى ووالدتى لأنهما كانا سبباً لحياتى .

٥٤ — أدرس التاريخ بالاحاطة والتحليل والتجرد عن الهوى .

٥٥ — رحلت فى سنة ١٨٩٦ إلى الاستانة قصد أن أتعرف بكبار أدبائها فتعرفت بشاعر الترك توفيق فكرت وصفا بك وعصمت بك وسامح بك والدكتور رضا توفيق .

ورحلت منها موظفاً إلى اليمن بارادة سلطانية فى سنة ١٨٩٧ وبعد رجوعى من اليمن إلى العاصمة نظمت قصيدتى فى عبد الحميد فسجننى ثم أرسلنى مخفوراً إلى بلدى براتب شهرى قدره ١٥ جنيه ثم عدت فى عهد الدستور إليها فتعينت أستاذاً للفلسفة فى جامعتها ثم مرضت فرجعت إلى بلادى أستاذاً للقانون المدنى فى مدرسة الحقوق ثم عدت إليها نائباً عن بغداد وكنت قد شاهدت بيروت فى بعض أسفارى هذه ثم سافرت فى سنة ١٩٢٤ إلى سورية فمصر ثم رجعت إلى بغداد بعد ستة أشهر ونصف .

٥٦ و ٥٧ — الشعر رسالة الطبيعة على لسان أحد بنيها إلى أبنائها وإذا لم تكن منزهة عن الأوهام والمبالغات ، فهى غير صادقة والشعر إذا لم يصدر عن الشعور لا يؤثر فى الشعور ، وآيته أن يهز نفوس سامعية .

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقاً أن يقال له شعر والشاعر حامل هذه الرسالة ، والعالم من تعلم علوم عصره أو من اختص بأحدها ، والفيلسوف من يضع أقرب النظريات لتعليل الحوادث التى لم يفسرها العلم والأديب أعلم من الشاعر والكاتب .

٥٨ و ٥٩ — المثل الأعلى للزعماء السياسيين هو مصطفى كمال وغاندى والبهلوى فى الشرق ، وكان « لنين » أكبر زعيم فى الغرب .

٦٠ — أحب عبقرية مصطفى كمال كما أحب نبوغ موسولينى وهتلر .

٦١ — لو كنت دكتاتوراً على الشرق فان أول عمل أقوم به هو أن أحمل كل فرد من الناس فتيلا محرقاً فى عقبه ليثور فيتمرد على العادات القديمة البالية المثبطة للعزائم .

إنها العادات لا يخلعها	غير ذاك المارق المنطلق
قد تلقاها تراثاً سيئاً	أحمق عن أحمق عن أحمق

٦٢ — وإن توليت الحكم على جزيرة يسود أهلها الفطرة والسذاجة أسن لهم قوانين تناسب سذاجتهم ، فاذا تقدموا قليلا غيرت القوانين إلى ما يلائم حالتهم الثانية وهكذا أصعد بالقوانين وفق صعودهم حتى أجعلهم فى مصاف الأمم الراقية ، ولا أحشو فى التعليم رؤسهم بالخرافات والأوهام ، وأعاقب من يكذب ، وأترك الحرية فى القول والعمل لكل أحد ما لم يتعد حرية غيره .

٦٣ — تاريخ شلل الأصابع فى رجلى اليسرى هو قبل ٢٠ سنة ، وسببه داء فى النخاع الشوكى وأثر ذلك أنى لا أستطيع أن أمشى على رجلىّ مسافة ربع ميل إلا إذا استندت على ذراع أحدهم وإلا كبوت على وجهى .

٦٤ و ٦٥ — نسمع حكم الشعب إذا قوى وتهذب وتعلم ، ونرفض حكمه إذا كان جاهلا لا يعرف خيره من شره فنسوقه كما يسوق الراعى غنمه .

٦٦ — أداوى البطالة كما يداويها البلشفيون فى روسيا ، وأعالج الأزمات كما يعالجها الغازى مصطفى كمال وموسولينى والبهلوى .

٦٧ — ليس طريق السلام معبداً لتسلكه الساسة ، فالواجب تعبيده أولا بل لا طريق إلى السلام ما دام فى البشر أقوياء وضعفاء .

النواميس قضت أن ... لا يعيش الضعفاء
إن من كان ضعيفا ... أكلته الأقوياء

٦٨ — الحرب ضرورة لا بد منها لاختلاف المصالح فى الأمم كما فى الأفراد .

أمة من سلالة القرد جاءت ... تهتدى بالحجا من الآجام
طلبوا منها فى الحياة سلاما ... وهى لم يعلُ شأنها بسلام
إنها أحرزت سياستها بالبطش ... أنى توجهت والخصام
الترقى إذا افتكرت مليا ... فى خلاف الشعوب لا فى الوئام

٦٩ — تهذب الغرائز البشرية بالانتخاب الطبيعى ، وهذا الانتخاب بطيئ فالأنفع هو الانتخاب الصناعى بطناً بعد بطن .

٧٠ — أخذت سيطرة الأديان تضعف شيئاً فشيئاً وستزول بعد عدة قرون .

٧١ و ٧٢ — أحب ديانة التجرد من قيود الأديان والمنتظر أن يرقى البشر إلى درجة أن لا يحتاج إلى إصلاح دينى . وما الله إلا ما يتصوره البشر أقوى من كل قوىّ ، وهذا عرشه فى أدمغة المؤمنين .

الذوق الفنى عند إدموند بيرك

لم يكن بيرك فيلسوفاً بالمعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة ، ولكنه كان خطيباً ومفكراً سياسيًّا من طراز رفيع . ولقد غلبت عليه صفته الخطابية السياسية حتى أوشك المؤرخون ألا يذكروا له سوى كتبه فى السياسة ، ومواقفه فى البرلمان ، وهو يتدفق بلاغة ، ويهاجم الحكومة الإنجليزية فى سياستها إزاء الهند ، وإزاء الثورة الفرنسية ، وإزاء المستعمرات البريطانية فى نصف العالم الغربى ، تلك المستعمرات التى هبت فى وجه بريطانيا فيما بعد ، وأصبح منها ما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية .

هم يذكرون له تلك المواقف ويعرضون للمجلدات الضخمة التى خلفها بيرك ذخيرة للنثر الإنجليزى ، ولكنهم قلما يذكرون هذا المبحث الفريد الذى كتبه فى إبان شبابه ، والذى وضع به أساس فلسفة الجمال فى تاريخ الفكر الإنجليزى ، والذى فتن به عملاق الفلسفة الحديثة ايمانويل كنت ، فهمّ بأن يترجمه إلى الألمانية لولا أنه أطال التفكير حتى وافته المنية قبل أن يخرج عزمه من حيز القول إلى حيز الفعل .

ولقد كتب بيرك هذا البحث وهو فى هدأة من هدآت النفس التى تجنح فيها إلى التأمل ، وتعرض فيها للمدركات الحسية ، وتحاول أن تستقرى منها قوانين عامة تفسر بها ظاهرة من ظواهر الوجود . كتبه وهو يتنفس الجو العقلى الإنجليزى المتوارث الذى ينفر نفوراً شديداً من المنطق النظرى ، ويعرض ما استطاع عما وراء الطبيعة ، ويجعل من المادة وانعكاساتها الذهنية مجال البحث والتفكير .

إن من الناس من ينكر وجود ذوق عام ، ويقرر أن الذوق مسألة شخصية نسبية ، وأن ليس لها ضابط ولا معيار . ومنهم من يذهب مع القائلين بأن الذوق العام موجود ، ولكنه شئ ليس فى الكتب ، أى هو شئ يمكن إدراكه

بالممارسة والاختبار . فما هو الذوق ؟ وما أصوله فى النفس البشرية ؟ وما هى عناصره وضوابطه العقلية التجريبية ؟ . . .

إن الذوق هو الملكة العقليـة التى نحكم بها على قيم الفنون الجميلة ومنتجات الخيال . وهـذه الملكة العقلية تعود بجذورها إلى الحواس التى ندرك بها ما يحيط بنا من العالم الخارجى ، والتى هى السبيل الوحيد عند بيرك وعند عامة المفكرين الإنجليز ، للمعرفة الإنسانية .

الحواس إذن هى أساس الذوق الفنى . ونحن إذا تأملنا هذه الحواس وجدنا تكوينها العضوى يكاد يكون متماثلا عند الناس كافة ، ومن ثم كان إدراكها للمحسات يكاد يكون متماثلا ، فالنـاس يتفقون على أن هذا نور وذلك ظلام ، وأن هذا حلو وذلك مر ، وقل مثل ذلك فى الضخم والهزيل ، والصلب واللين ، والساخن والبارد .

و إذا كان تأثر الحواس متقارباً فكل ماينجم عنه من ألم ولذة متقارب كذلك . و إنك لترى البشر يتفقون على أن الصاب مر وأن الشهد حلو ، ولا يختلفون على ما تحدثه هذه المؤثرات فى الحسية من لذة وألم ، بل إنهم يجمعون على وصف الحلاوة بأنها لاذة والمرارة بأنها كريهة . نعم ، إن هناك أسباباً كثيرة تسبب انحرافاً عن استطابة المطعومات الطبيعية اللاذة والإقبال على مذوقات كريهة بذاتها ؛ فقد يفضل امرؤ بحكم العادة طعم التبغ على طعم السكر ، ونكهة الخل على نكهة اللبن ، ولكن هذا لا يغير الحكم على الصفتين الأصيلتين لهذين المطعومين ما دام هذا المرء يحس أن التبغ ليس حلواً ، وما دام يعلم أن العادة وحدها هى التى مهدت الذوق لتلك الملذات الدخيلة . و إنك لن تجد امرأً يقول إن للتبغ طعم السكر ، أو أنه لا يستطيع التمييز بين الخل واللبن ، أو أن للتبغ والخل حلاوة وأن اللبن مر والسكر حامض . ولقد يصف لك صديق فاكهة جديدة فلا يقول لك : إن لها شذاً كأريج التبغ ، أو يصف لك زهرة نادرة فلا يقول : إن لها عطراً كعبير الثوم؛ لأنه يعلم أن استطابةالتبغ والثوم إنما هى لذة شاذة أو مكتسبة . ولقد نتج عن الخلط بين الملذات السليقية والملذات المكتسبة أن قال أناس بأن الذوق ليس له ضابط ولا معيار . والواقع أن الذوق يصعب وضع قاعدة له عند إصدار الأحكام الدقيقة على مدركات الحواس ، أى إن الإنسان لايستطيع أن يجيب إجابة دقيقة صحيحة عن أثر مطعوم ما فى ذوق شخص معين ،

ولكننا نستطيع ولا ريب أن نناقش الأشياء اللاذة بطبيعتها والأشياء المنفرة للحواس بطبيعتها ، ونستطيع أن نميز بينها وبين ما ينتج اللذة الشاذة أو المكتسبة إذا بحثنا عن العادات والتغرضات والتوعكات التى ألمت بصاحبها .

وكما يتفق الناس فى المدركات المطعومة يتفقون فى تذوق مدركات البصر ؛ فإن لذة الضوء أبلغ من لذة الظلام ، و إن الربيع المزهر المشرق ليبعث فى نفس الناظر نشاطاً وأريحية لا يجدهما فى الشتاء العبوس ، و إنك لتعرض حيواناً أو طائراً أو نباتاً على قوم كثير فيجمعون على استحسانه أو على استقباحه ، ولو أنهم قد يختلفون فى درجة ذلك الاستحسان وهذا الاستقباح .

وعلى هذا الاستقراء نرى الأساس واحداً فى لذة الحواس ، جميعاً فننتقل من مرحلة الحواس إلى مرحلة الخيال .

إن للعقل الانسانى قوة فعالة تحتفظ بصور المحسوسات فى الذهن على نفس النسق والترتيب الذى وصلت به إلى الذهن عن طريق الحواس ، أو بتركيب هذه الصور على هيئة جديدة ونسق جديد ، وهذه القوة تسمى الخيال ، وهى عاجزة كل العجز عن الابتكار المطلق والاستحداث من العدم ، وكل قدرتها أن تنوع وتنسق ما تتسلمه من الحواس .

والخيال هو مراح اللذة الفسيح ، وميدان الآلام والمخاوف ، ومثوى جميع ما يتصل باللذة والألم من عواطف . وما دامت اللذة الخيالية تحدث من صور المدركات اللاذة ، والألم الخيالى يحدث من صور المدركات المؤلمة ، فان كل مؤثر طبيعى خارجى يؤثر فى أخيلة الناس أثراً متقارباً أو متشابهاً ، على نفس القاعدة التى تلتذ بها الحواس أو تتألم من المؤثرات الخارجية . وينتج من هذا أن هناك اتفاقاً أو تقارباً فى الأخيلة البشرية يساوق اتفاق الناس أو تقاربهم فى الاحساس .

واللذة والألم الخياليان إما أن يكون سببهما مؤثراً طبيعيًّا خارجيًّا أو إدراك الشبه بين صورة خيالية وصورة حقيقية واقعية ، وليس للخيال مصدر لاذ أو مؤلم سوى هذين ، وهما يوجدان على درجة متقاربة عند البشر جميعاً . وقد لاحظ لوك أن سرعة البديهة ، وهى خاصية خيالية ، تنتج من القدرة على تتبع وجوه الشبه ، وأن النقد العقلى يعتمد أكثر ما يعتمد على تعرف المفارقات ومواطن الخلاف . واستدل على ذلك بأنك قد ترى شيئين مختلفين فلا يتأثر خيالك لأن الاختلاف بين الأشياء هو عين ما تتوقع . أما إذا رأيت شيئين متشابهين فقد

يأخذك الاهتمام ويتمشى إليك السرور . والخيال يجنح بطبعه لجمع المتشابهات لأن فى جمعها إضافة وثروة ونماء ، أما مراقبة الفروق فليس فيها تحديد ولا إضافة ، ولكنها عمل مضجر متعب ، إن أثمر لذة فهى لذة سلبية عوجاء . ولما كانت اللذة أو الألم الخياليان الناتجان عن المؤثرات الخارجية فى الحواس وعن إدراك الشبه بين الصور الخيالية والصور الواقعية ، لما كانت تلك اللذة وهذا الألم عملية سليقية ؛ طبيعية فاننا نرى الشعوب البدائية الفطيرة تميز على غيرها فى التشبيهات وتأتى منها بالمعجب المطرب على رغم عجزها عن تمييز الأفكار وتنسيقها ، ونرى شعراءهم لا يعنون بالحقائق بل تأخذهم المماثلة العامة بين الأشياء فيرسمونها بألوان صارخة زاهية .

وإذا كانت لذة إدراك المشابهة هى أهم ما يسترعى الخيال فان أكثر الناس إذن يتساوون فى هذا المجال ، ولا يفرق بينهم إلا وفرة نصيب بعضهم من إدراك التماثل والمشابهة ، وهذا أمر يتفاوت بتفاوت التجربة والملاحظة . ومن هذا التفاوت ينتج ما يسميه بعض المفكرين تنافراً فى الأذواق ولا تنافر هناك .

إن الرجل الساذج يبتهج ويبهت إذا رأى أى تمثال لانسان ، لا لشئ إلا لأنه يرى شيئاً شبيهاً بالبشر ، وهو يستغرق فى هذه المشابهة حتى إنه لا يتنبه إلى ما قد يكون بالتمثال من قصور . فاذا تعلم ذلك الرجل وزادت تجربته ورأى ذلك التمثال بعينه فانه قد يزدريه ويعجب بتمثال أدق من الأول صنعاً ، فيخيل إلينا أن ذوقه قد تغير ، والواقع أن ما أعجب به فى الحالتين واحد ألا وهو المماثلة بين التمثال والإنسان .

ولقد زعموا أن إسكافاً شهد لوحة نابغة تمثل ملكا على عرشه ، فأُعجب بها وتملكه الطرب ، ولكنه أرشد الرسام إلى خطأ فى رسم حذاء الملك ، وكان هذا الخطأ قد فات ملاحظة الفنان العبقرى ، فلم يكن هذا اتهاماً لذوقه ، وإنما هو مجرد قصور فى علمه بصناعة الأحذية . ومن هذا نرى أن هذين الرجلين وإن تفاوتا فى العلم قد اتفقا على لذة ناجمة عن المشابهة بين الصورة والأصل . ولا ريب فى أنه يمكننا تقدير الفارق بين لذتيهما إذا علمنا مبلغ تجربة كليهما ، تلك التجربة التى تعين على إدراك المشابهة . وعلى هذا يكون الذوق عامًّا فى أصله ثم يحدث بعض التفاوت الذى لا يعجزنا أن ندرك مبعثه وأسبابه .

إن الرجل الدارج ليقرأ ملحمة شعبية فتتملكه النشوة ولا يفطن لما يصادفه

من الإحالات المنطقية والاساءة إلى الفضيلة وامتهان الحقائق الجغرافية . وليس السبب فى هذا الخطأ هو ضعف خياله ، وإنما السبب هو ضعف المعرفة بالمنطق وعلم تقويم البلدان .

إن أصول الذوق واحدة عند الناس جميعاً مادام الذوق من خصوصيات الخيال وليس بينهم من فارق فى وسائط التأثر ولا أسبابه . ولكن هناك فارقاً فى درجة التأثر ينشأ من سببين جوهريين : تفوق فى الحساسية الطبيعية ، أو إمعان فى العناية والانتباه . فلو أنك قدمت خواناً من الرخام إلى رجلين فلمساه بأيديهما لأدركا أنه ناعم واتفقا على الحكم بنعومته ، فاذا قدمت لها خواناً أكثر نعومة فانهما قد يتفقان على أن الخوانين ناعمان ، ولكنهما قد يختلفان فى أيهما أشد نعومة . فالتفاوت فى الذوق إذن يبدو حين يصل الأمر إلى الموازنة والمضاهاة ، أى فى أمور تتعلق بالكيف أكثر مما تتعلق بالكم . وهنا نتلفت لنبحث عن الحكم الذى يفصل فى الأمر عند الاختلاف ، فنجد العقل على أهبة الاستعداد.

ويأتى دور الأحكام العقلية بعدم إدراك اللذة الحسية واللذة الخيالية . فاذا أتى دورها انصبت على صلات تلك اللذات بعضها ببعض ، وكانت هى الفيصل الذى يقدر الانحرافات التى تعرَّض لها الذوق العام الذى أوشك أن يعد عند بعض المفكرين أذواقاً أشتاتاً .

فعلة الذوق الفاسد خلل فى الحكم العقلى . وهذا الخلل قد ينجم عن وهن فى الفهم والتمييز ، وقد ينشأ عن قصور فى الخبرة والممارسة . وعلى الرغم من أن هذه العوامل تنبت خلافاً فى الحكم يتناول كل مسائل الفهم والادراك ، فانها لا تدعونا إلى إهدار أصول المنطق ، ومن ثم لا تدعونا إلى إنكار الأصول الذوقية العامة . ولعل الدليل الأكبر على وجود الأصول الذوقية العامة أنك ترى البشر أقرب إجماعاً على استحسان جمال الطبيعة منهم على خطأ الفلسفة الأفلاطونية أو صوابها .

محمد عبد العزيز اسحاق

حيرة الفكر فى معنى الحياة

من المشاهد فى الأزمنة الحديثة أنه كلما أبدت الحروب نواجذها ، واستعر أوارها ، جرّت فى أذيالها خراباً شاملا ، ودماراً كاملا ، وتغيرت الأوضاع وتبدلت الأفكار وتشتتت الأذهان ، وحارت الألباب ، ويئست النفوس من بلوغ السكينة والاستقرار ، وصاح ذوو العقول الراجحة صيحة هلع ووجل من تقدم الاختراعات العلمية ، تقدماً يشفقون من أن يودى بتراث المدنية التليد فى عالم الفكر الرفيع والفن الجميل . ولا غرو أن الحروب الحديثة بلغت شأواً من الفتك والتدمير لم يكن ليدور بمخيلة الأوائل السالفين ، وأن ما يقاسيه البشر من ويلات القنابل الصاروخية والذرية أشد هولا مما تصوره دانتى فى جحيمه . من ثم نرى النفوس عقب كل حرب ثائرة على الأوضاع التى سبقتها ، حانقة على القيم التى اعتنقتها ، مهيأة لانقلاب عام ، معدة لتقويض دعائم مقاييس وأوزان تخالها أثلمت إفلاساً تاما وقادتها إلى الهاوية والهلاك ، فينشط حينئذ الباحثون يقدحون زناد فكرهم عساهم يهتدون إلى إزالة الأنقاض الدارسة وإقامة أسس جديدة تعين المرء على إدراك شئ مما أُغلق عليه فهمه من أسرار الكون الغامضة ، وألغاز الحياة المتناقضة . وثمة فئة من الفلاسفة والكتاب يلمسون عبث أى كفاح أو جهاد فيسلسون القياد لليأس والقنوط ويتذرعون بالأجل المحتوم ليبينوا أن الوجود مآله الفناء ، والانسان مصيره العفاء ، ولا يرون مسوغاً للعمل ، ولا يقفون على معنى للحياة ، فيؤثرون الخلاص من الواقع متى وجدوا للخلاص سبيلا . ولعل خير وسيلة للخلاص أن يكبّوا على تأليف كتب أو نشر مقالات يصبون فيها جام غضبهم وحنقهم محاولين إقناع قرائهم بسخف الحياة وتجردها من أى معنى . وهم لا ينفكون ينفثون حسرتهم ويبثون لوعتهم ، كأن فى إفراغها على القرطاس ما يهدئ روعهم أو يخفف همهم ، حتى تلقى أفكارهم بعض الحظوة أو تقع موقعاً حسناً لدى بعض النفوس ، فيرتاح بالهم وتطمئن سريرتهم .

ومن المشاهدات الغريبة تهافت الجماهير فى أوربا بعد أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها على اعتناق مبادئ سلبية ادمة لا سبيل معها إلى مواصلة أسباب الحياة والاشادة بآراء بعض الكتاب الذين يتزعمون مدرسة التشاؤم ويؤلفون نوعاً من الأدب القاتم العنيف لا يدع للمرء بصيصاً من الأمل يستعين به على تحمل همومه وأرزائه . وكلما زادت عوامل القلق والجزع والتذمر بين الشباب زاد إقبالهم على ذلك الأدب اليائس المضطرب، أدب العدم والفناء، واضمحلت لديهم عوامل الجلد الذى يعين على البقاء . ولعل رواج ذلك الأدب القلق يرجع إلى أنه يتقن تصوير الحيرة والجزع والضجر الذى يحس به الشباب إحساساً عميقاً ، أو لأنه يمعن فى تحليل الروح الثائرة النافرة التى لا تجد اللذة إلا فى الخوض فى أعماق نفسها وغوص الخنجر فى الجرح محاولة أن تكشف فى قاعها شيئاً من الجمال الذى حرمته فى الحياة الواقعة . وقديماً قال نيتشه : « إن الامعان فى الألم يصبح مصدراً للذة » .

نعم ! لقد انقضى زمن نظرية « الفن للفن »وهى وليدة عصر الوفرة والبذخ والترف الذى ساد أوربا خلال القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين ، وترك الكاتب أو الشاعر برجه العاجى ونزل إلى معترك الحياة اليومية يخوض غمارها ويدافع فيها عما يراه حقا . ولذا رأينا فى العصر الحالى كثيرين من الكتاب النابهين والشعراء النابغين يتناولون فى الصحف والكتب والمجلات مسائل سياسية واجتماعية يدلون فيها بآرائهم ويسوقون حججهم ، بل رأينا بعض الكتاب وقد أرادوا أن يؤلفوا بين الجهاد النظرى المثالى وبين الجهاد الفعلى الواقعى ، يطرحون جانباً راحتهم وطمأنينتهم ويقحمون أنفسهم فى حروب تضطرم نارها بعيداً عنهم ، دفاعاً عن فكرة أو مبدأ اجتماعى ، فيبذلون دماءهم ويجودون بأرواحهم على مذبح عقائدهم . وقديماً لقى الشاعر الانجليزى العظيم لورد بيرون حتفه حين تطوع فى حرب استقلال اليونان . وقريباً حمل الروائى الفرنسى مالرو السلاح واستل سيفه فى معركة نائية عنه إذ انخرط فى سلك الجيش الشيوعى إبان الحرب الأهليه فى الصين ، كما نزح أرنست همنجواى عن بلده الهادئ فى أمريكا ، وحارب فى صفوف الجيش الجمهورى إبان الحرب الأهلية فى أسبانيا .

بيد أن اندماج الكاتب فى الحياة العادية ونزوحه عن برجه العاجى

لم يعودوا على الانسانية فى كثير من الأحيان بنفع كبير ، بل ربما أصابها من جراء ذلك ضر عظيم . فقد شغل بعض الكتاب أنفسهم بقليل أو كثير مما يشغل به عامة الناس أنفسهم ، واضطربوا معهم فيما يضطربون فيه من جد أو لهو ، فباء كثير منهم بالخيبة والحسرة ، وكأنهم بعد أن خبروا ما يدعى أعمالا جليلة ، لمسوا ما تحويه هذه الأعمال من فراغ ، ووقفوا على ما تخفيه من سخف أجوف وقالوا إن الانسان عدم ولايمكنه أن يتمخض إلا عن العدم ، فهو فان وأعماله كلها متسمة بطابع الفناء .

و إنى اليوم أرغب فى عرض كتابين لكاتب فرنسى ممتاز تناول فى جميع مؤلفاته ومسرحياته التى أنشأها فكرة واحدة سيطرت على ذهنه وحواسه سيطرة تامة ، ألا وهى فكرة العدم وسخف الحياة التى أشرت إليها فى مقدمة هذا البحث . أما ذلك الكاتب فهو ألبير كامو **Albert Camus** وهو شاب نشأ وترعرع فى شمال إفريقية بدأ نجمه يتألق فى سماء الأدب خلال عام ١٩٤٢ إذ نشر مقالات و بحوثاً فى عدة مجلات أدبية وصحف سياسية فى مدينة الجزائر استرعت اهتمام الأدباء والجمهور على السواء . ثم رحل إلى فرنسا وقت تحريرها وساهم بقلمه فى صحيفة يومية من كبريات صحف باريس هى جريدة « كومبا » *Combat* (الكفاح) وأول ما استلفت الأنظار من كتبه الأدبية قصة سماها « الغريب » و بحث سماه « أسطورة سيزيف » وهما الكتابان اللذان نويت التحدث عنهما فى هذا المقام . وعلاوة على ذلك ألف ألبير كامو مسرحيتين إحداهما تدعى «الالتباس» ***Le malentendu*** والأخرى «كاليجولا»[1] ***Caligula*** وقد مثلت كلتاهما على أهم مسارح باريس (الأخيرة على مسرح **Hébertot** منذ عامين) ونالتا نجاحاً باهراً رغم أنهما قصتان يدور فيهما الحوار حول مسائل فلسفية عويصة الفهم يتعذر على المتفرج العادى إدراكها ، إذ تمتّان إلى ذلك النوع من المسرحيات التحليلية التى يكون مدارها تفسير حالة نفسية أو تسويغ عمل يبدو عجيباً من الوجهة السيكولوجية وهو ما اصطلح عليه الفرنسيون بلفظ **pièce à thèse** .

(١) وقد نقل هذه المسرحية إلى العربية الأستاذ رمسيس يونان (دار الكتاب العربى أبريل سنة ١٩٤٧) .

ويلاحظ أن كامو اختار قالب القصة أو المسرحية ليسوق إلى القارئ نظرياته الفلسفية ، وليبرهن على صدق آرائه وصحة أفكاره ، وهى هى لم تتغير سواء فى القصة أو المسرحية ؛ فالفكرة الانشائية واحدة والعامل النفسى واحد خلال مختلف مؤلفاته ، وحتى الألفاظ تكاد تكون واحدة فى بعض المواقف التى يتناول سردها . لذا يشعر القارئ عند مطالعة أكثر من كتاب لهذا الكاتب أنه لا يسعه صد سحر حججه الدامغة الراسخة ومنطقه القوى العنيد ولا سيما أن أسلوبه نقى رقيق ينساب فى عذوبة خلابة لا تصنع فيه ولا تنميق .

وأبدأ الآن بعرض قصته « الغريب » ثم أردفها ببحثه الفلسفى « أسطورة سيزيف » .

الغريب *L'étranger* (N.R.F.)

يروى لنا ألبير كامو قصة شاب فوجئ يوماً بنبأ وفاة أمه ، فسافر متثاقلا إلى البلد الذى كانت تقضى فيه آخر أيامها بين رهط من الشيوخ فى ملجأ للعجزة ، ثم سار فى موكب الجنازة متباطئاً منهوكا كأن الأمر لا يعنيه فى شئ ، وكأن العربة التى كانت تتهادى أمامه فى مشيتها ، لا تنقل رفات أمه إلى مثواها الأخير . وبعد أداء المراسم المعهودة عاد أدراجه تواً إلى مدينته حيث قابل صديقته مارى ورافقها إلى دار السينما لمشاهدة رواية مضحكة . وفى ذات يوم دعاه جاره ريموند إلى قضاء يوم على شاطئ البحر للتمتع بأشعة الشمس الدافئة وللسباحة فى مياه البحر الصافية ، فلبى الدعوة ، واستصحب معه صديقته مارى . وبينا هو يسير مع رفيقه بمحاذاة الشاطئ إذ هجم بعض الأعراب على ريموند واعتدوا عليه ، وطعنوه بمدية فسالت منه دماء غزيرة ، وكان أحد هؤلاء الأعراب وهو أخ فتاة عربية اتخذها ريموند خليلة له قد بيّت النية على الانتقام لشرف أخته ، وقد أتيحت له يومئذ فرصة تنفيذ خطته الأثيمة . وبعد أن قام الراوى بتضميد جرح صديقه تركه فى صحبة بعض الرفاق واستأنف السير وحده بغية الرياضة والتسلية ، إلى أن وصل إلى بقعة منعزلة حيث فوجئ برؤية الأعرابى الذى اعتدى على صديقه ، مستلقياً على الأرض ، وما إن لمحه الأعرابى حتى وقف منتصباً ، ووضع يده فى جيبه كأنه يتفقد شيئاً ، فوقف الراوى أمامه

دون حراك ، وأشعة الشمس المحرقة مسلطة على عينيه تكاد تبهر بصره وتعميه وجبينه يتصبب عرقاً ، والعرق ينحدر رويداً رويداً إلى مآقيه حتى يلسع جفونه وناظريه ؛ فتقدم خطوة إلى الأمام كى يتقى الحر اللاذع ، فما كان من الأعرابى إلا أن أخرج من جيبه مدية وفتحها ، فانعكست أشعة الشمس على الصلب فلمع السلاح لمعاناً ذهبيا حتى لقد خيل إلى المسكين فى ذهوله أنه أصيب بطعنة فى جبينه ، فبدرت منه حركة عصبية آلية ، وأخرج مسدساً وأفرغ منه رصاصة أردت خصمه قتيلا ثم طفق يطلق عليه أربع رصاصات أخرى وهو جثة هامدة غير واع ما فعل ولا مدرك ما أتى .

والجزء الثانى من هذه القصة خاص بمحاكمة القاتل . وأهم ما يلفت نظر القارئ من بدء القصة إلى نهايتها جمود شاذ و برود عجيب يتملكان الراوى خلال كل حركاته وسكناته ، وكأنه شارد تائه غائب خابى الوجدان لا يعى شيئاً مما يحدث له ولا يعبأ بأى شئ يقع تحت بصره أو سمعه ، فكل شئ لديه سواء . أما موقفه أثناء محاكمته فلا يختلف فى كثير أو قليل عن مواقفه السلبية السابقة إزاء كل مايضطرب حوله من أحداث أو أفعال ، فلا يعدو موقفه وهو فى قفص الاتهام موقف المتفرج إلى مسرحية لا تعنيه من قريب أو بعيد كأنه غريب هائم وطئت قدماه أرضاً لايفقه لغة أهلها أو تقاليدهم . وهو رغم جموده الصادق مالك وعيه ، حاد البصيرة ، نافذ النظرات ، لا تفوته شاردة أو واردة من تفاصيل الاجراءات القضائية المعقدة التى يلهو بها قوم يبدون له كممثلين يقومون بأدوارهم فيحكمون أداءها . وهو لم يذرف دمعة واحدة كما لم تجد عيناه بعبرة واحدة خلال تشييعه أمه إلى اللحد ، لا يشعر بأى ندم على إثمه الشنيع ولا يؤنبه ضميره ولا يحس بضعف أو خور أو يأس رغم طول إقامته فى السجن ، وإنما قضى عليه أن يستمع إلى مرافعات النيابة العامة والدفاع ولا يرى سبيلا للخلاص من المهزلة التى تحاك حوله إلا عند إسدال الستار والنطق بالحكم . وأخيراً يصدر الحكم بادانته وإعدامه بقطع رأسه على المقصلة . وحينئذ يبدأ المسكين يتمسك بأهداب أمل واه ضعيف وهو قبول الطعن المقدم منه لتخفيف العقاب . ومافتئت خواطر متناقضة ونوازع متشعبة تختلج قلبه وتجوب مشاعره وهو قابع فى جحر سجنه يحاول إقناع نفسه بتفاهة الحياة الدنيا وسخفها مردداً أن الحياة أمر غير مستساغ وأن الموت آت لا ريب فيه ؛ فليس ثمة فرق بين

أن يموت الانسان فى الثلاثين أو السبعين من عمره ، وهو فى آن واحد يشرد ذهنه إلى احتمال العفو عنه فيشعر فى سويداء نفسه بفرح عميق يسعى إليه سعياً حتى يغمره فلا يألو جهداً فى كبت هذا الاحساس المتدفق وكتمه حتى لا تصرعه خيبة الأمل .

وأخيراً علم المسكين أن قد حم قضاء لاراد له ، ودخل عليه فى غياهب سجنه قس يزجى إليه النصح والارشاد ويهيئ روحه لمقابلة بارئها ، فاستشاط غضباً وثار كالبركان وأمسك بتلابيب رجل الدين وطفق يهزأ بنصحه ويسخر من عقيدته الراسخة وإيمانه الوطيد ..

وفى الحوار الختامى بين السجين ورجل الدين زبدة فلسفة البير كامو . لذا لايسعنى إلا أن أنقل بعض هذا الحوار لدلالته الواضحة على أفكار المؤلف :

سأل القس : « أيبلغ تعلقك بالحياة هذا الحد ؟ ألم يجل بخاطرك مرة أن تصبو إلى حياة أخرى ؟ » فأجابه السجين : « أنه يتمنى حياة أخرى ولكن مناه لن تعدو التمنى ، كما يتمنى الانسان أن يكون ذا جاه أو ذا فم جميل أو بارعاً فى السباحة » . فأردف القس : « وكيف تتخيل الحياة الأخرى ؟ » فأجابه فورا : «حياة أكون فيها قادراً على ذكر هذه الحياة». فربت القس على كتفه وقال : « إنى معك يا بنى وسوف أصلى من أجلك » . وهنا ثارت ثائرة المحكوم عليه وسب رجل الدين وهزه وشرع يحدث نفسه فى حدة وحنق : « إن هذا القس يبدو واثقاً بما يزعم رغم أنى غير واثق أنه حى إذ هو يعيش كالأموات ، أما أنا فيبدو أن يدىّ فارغتان ولكنى واثق بنفسى ، واثق بكل شئ ، متأكد من حياتى ومن موتى الدانى القريب . إن هذه الثقة تتملكنى كما أملكها . إنى أملك على الأقل حقيقة واقعة وهى موتى . إنى قضيت حياتى على نمط معين وقد كان فى إمكانى أن أحياها على نمط آخر . قد صنعت هذا ولم أصنع ذاك ، وماذا بعد ؟ النهاية واحدة ، لا شئ ، ليس لأى شئ أهمية ، لقد بات يهمس فى أذنى خلال كل حياتى السخيفة وسواس يسوّى فى نظرى بين كل شئ . وما شأنى بوفاة الآخرين ! إنى لا أبالى بحب أم أو بحياة أخرى ، لا أبالى بمآلات أختار بينها ما دام أن مآلا واحداً سوف يختارنى أنا كما يختار معى الملايين من الناس . » وظل المسكين يسترسل فى تلك الصيحات التى كانت تدوى بين

ضلوعه إلى أن خمدت ثورته . وعندما أيقن أن نفسه تخلت عن الأمل وأن الأمل تلاشى أمامه ، رنا بنظره إلى أديم السماء الصافى تتألق فيه النجوم والرموز وشعر أن الطبيعة تشاطره ركوده وأنها تردد صدى جموده ، وحينئذ ذاق طعم السعادة وعرف أن السعادة لم تزايله بعد .

تعرض علينا هذه القصة وضعاً غريباً يلائم تمام الملاءمة أوضاع المذهب الوجودى existentialisme الذى يتزعمه فى العصر الحاضر الفيلسوف الفرنسى الشهير جان بول سارتر . أبان لنا كامو كيف أن السخف L'absurde قد يكون ماثلا فى عمل واحد ، فيسيطر هذا العمل المفرد على مصير حياة بأسرها ويحيدها عن مجراها ؛ إذ أن قتل الأعرابى على يد بطل القصة وهو الراوى أتى نتيجة حتمية لسلسلة من المصادفات . وينسجم هذا الرأى مع قول سارتر فى قصته المسرحية *Huis-Clos* أن الانسان يحمل طوال حياته وزر عمل واحد ، وأنه يحمل مدى العمر وطأة عمل مفرد أتاه ، ولا يحكم على الإنسان إلا عمله ولو كان عملا واحداً منعزلا ؛ إذ العمل يُعَرِّف الإنسان ، والانسان إنما هو عمله .

ويمتاز بطل قصة كامو بجموده وفتوره إزاء كل شئ ، فسيان لديه أن يقدم على الزواج وأن يحجم عنه ، أن يدان وألا يدان ، أن يشتغل فى باريس وأن يشتغل فى الجزائر ؛ فهو يشعر أنه غريب عن المجتمع وتقاليده ، بعيد عن دعائمه وعاداته ، لادخل له بسننه وقواعده ، ويرى الحياة سخيفة لامعنى لها ، لاتنطبق على شئ ولاتنسجم مع شئ . يدرك أن العيش عبث والاسترسال فيه لهو وعبث ، وأن الانسان يتخبط فى دياجير حالكة لا سبيل معها إلى الخلاص كما يتخبط هباء رأس السجين على جدران سجنه الشامخة . ولن يفوتنى أن ألمع إلى الشبه العظيم بين قصة كامو « الغريب » وقصة كفكا « المحاكمة » *Le Procès* إذ تكاد وقائع القصتين تكون مماثلة ؛ فقد لحظ كفكا سخف الحياة وعبثها كما لمسها كامو ، وإنما وجد كفكا منفذاً للنجاة فى الايمان بحياة أبدية ، ولو أنه إيمان غامض حائر ، كما سبقه إلى الاعتصام بالخلود الفيلسوف كير كيجارد على حين طرح كامو جانباً هذه الفكرة ووجد العزاء فى حل آخر أسوقه الآن عند ولوج كتابه الثانى .

أسطورة سيزيف *Le mythe de Sisyphe* (N.R.F.)

يأتى الانسان كل يوم بأعمال معينة فى مواقيت محددة ، فهو يستيقظ من نومه فى الصباح ثم يختلف إلى مكتبه أو مصنعه أو حقله ، ثم يتناول طعام الغداء ثم يعود إلى عمله أو ينصرف إلى ملهى ، ثم يؤوب إلى بيته فيتناول طعام العشاء ، ثم يأوى إلى مضجعه حتى يأخذ الكرى بمعاقد أجفانه ، وهكذا دواليك طوال أيام الأسبوع وطوال الشهور وطوال السنين . ويظل يسترسل فى حياة على هذه الوتيرة حتى تلوح الحياة فى نظره مجرد عادة يستمر فى اتباعها دون وعى إلى أن يقف الموت رحاها . ولكن قد يحدث للانسان ولو مرة أن ينهض وسط هذا الدوران الصاخب والاضطراب الدائب ليسأل نفسه لاهثاً متعباً : « لم هذا وما الفائدة من الحياة وما معناها ؟ » فيحس بحيرة شديدة تذهله وخور فجائى يقعده . وفى هذه اللحظة يفيق من سباته وينعم النظر فى حياته ويمحص عواملها ويفحص الدوافع التى تحفزه إلى تجرع الغصص فى سبيل المحافظة على وجود و إطالة أيام لا يلحظ فارقاً بين أمسها وغدها ، فيبين له سخف الحياة وعبثها الهازل ، ويطغى عليه جزع وحنق ، ويذعن للسأم والقلق . وهو لا يشهد إذ يجيل الطرف حوله إلا أجلا محتوماً ومصيراً معلوماً لا راد له ولا منفذ منه . يرى الناس أجمعين يموتون كما تموت السائمة الحقيرة ، يرى كل المخلوقات تتلاشى وتختفى فى قاع هوة حالكة سحيقة ، يرى كل شئ يستحث الخطى مهرولا نحو الزوال والعفاء ، وحينئذ يحس بمرارة ويأس يحزّان فى نفسه ويشعر بلهيب نار متقدة تتلظى فى أعماق قلبه ، فينقم ويتبرم و يحتد ويسائل حائراً تائها شارداً « لماذا ؟ » تلك هى الحال التى يسميها ألبير كامو « الوعى بالعبث » La conscience de l'absurde وهى مرحلة تلازمها حال أخرى هى الهياج الداخلى ؛ إذ أن الشعور بالسخف ينطوى حتما على الثورة عليه .

وثمة نتيجة هامة يرتبها كامو على هذا الشعور بالعبث ، وهى « الاقدام على الانتحار » . فاذا ما اقتنع الانسان بسخف الحياة وجب عليه أن يساير المنطق حتى النهاية ، فيؤثر الفناء العاجل على حياة تجردت فى رأيه من أى معنى وخلت من أية حقيقة، تآمرت على أن تطوّح به بعد فترة إن طويلة و إن وجيزة

إلى فناء أكيد لا مفر منه . ولما كان الموت الحقيقة الوحيدة التى يلمسها الانسان فلماذا لا يريح نفسه من عناء وشقاء لا طائل تحتهما ويحصل على الخلاص فى الفناء ؟

وقديماً ألقى هملت هذا السؤال عينه فى كلمته المأثورة « البقاء أو الفناء »؟ To be, or not to be? وهذه الصرخة تتردد فى جنبات كل إنسان أدرك أنه لن يبلغ نفسه أبداً ، وأنه عاجز عن فهم الحياة وكنهها .

هناك رد واحد على هذا السؤال ، كما أن هناك دافعاً واحداً يحفز الانسان على احتمال المشقات وتجشم الصعاب ، وهو الأمل أى الايمان بحياة أخرى سرمدية تبدأ عندما تنفض النفس عنها غبار الحياة الأولى الوقتية ، وتبدو للمرء كأنها تكملة أزلية للحياة الأرضية . ولكن كامو لا يؤمن أو هو لا يكتفى باجابة يجهل دعائمها ولا يستطيع التحقق منها فيتشكك فيها ولا يقبلها دليلا ينهض على إثبات عكس مايزعم بل إنه يصر على أن تلك الاجابة هروب من السؤال ؛ إذ السؤال حسب وضعه هو الآتى : هل يستطيع الإنسان مواصلة السير فى حياة مجردة من احتمال استئنافها ، وهل له أن يعيش بلا أمل ودون رجاء ؟ . . .

هناك نتيجة ثانية رتبها كامو على الشعور بالعبث وهى بلوغ « الحرية » . وليس يقصد بالحرية معناها الدارج المألوف ، وإنما يرمى بهذا اللفظ إلى فكرة أخرى أبينها بايجاز فى الشرح الآتى :

كلما وضع الانسان نصب عينيه هدفاً يبلغه أو ضالة ينشدها أوغل فى السعى إلى تحقيقها وألفى للحياة معنى ، ولكن ثمة من يختلج فى نفسه إحساس عميق بعبث السعى وعدم جدواه ، وتسابق كل شئ نحو العدم والفناء . يقول كامو إن شعور الانسان بعدمه يحرره ويفك أغلاله ، حتى إذا ما أتى بعمل فى حياته العادية لم يعره بالاً ولم يعبأ به لعلمه بمصيره المحتوم ، وحينئذ تجنح نفسه إلى الفكاك من كل قيد شاعرة أنها حرة طليقة لا تأبه بظاهر أى شئ ولا تتكلف بحطام أى شئ . فاذا ما انطلقت النفس على هذا المنوال أحست بخلو وفضاء وبلغت حالا من الحرية تؤهلها لتذوق راحة تعمها وتغمرها . وقد كشف لنا الروائى الروسى الشهير دستويفسكى النقاب عن نفسية أحد أبطال قصته *Les possédés* يدعى كيريلوف قاده تفكيره ومنطقه بعد أن عجز عن

إدراك سر الخلود إلى بلوغ هذه الحرية التى يحدثنا عنها كامو . يقول كيريالوف فى أحد مواقفه : « إذا مااستبعدتُ الله من ضميرى أصبحت إلهاً ، وقد بحثت خلال ثلاث سنوات عن خواص تألهى فألفيتها الاستقلال » . وهو يعنى بصيرورته إلهاً أنه حر طليق على الأرض غير مسخر لخدمة خالق سرمدى ، كما أن الفيلسوف نيتشه وصل فى تفكيره إلى هذا القول بعينه إذ ذكر أنه مادام الانسان يعترف بوجود الله نسب إليه سبحانه وتعالى كل شئ وأقر بعجزه عن مقاومة مشيئته على حين أنه إذا أنكر وجود الله تأله الانسان واعتقد أن كل شئ يدين بالخضوع له وحده . وقد أسلفنا القول عرضاً أن الفيلسوف الدانمركى كيركجارد Kierkegaard أدى به تحليله وتمحيصه إلى الوقوف أيضاً على عبث الحياة وزيفها ، لكنه رغم ذلك لم يغرق فى لجة اليأس ، و إنما طفا ونجا من الشعور بالعدم لاعتصامه بإيمان راسخ ثابت لا يتزعزع فى حين غاص آخرون مثل نيتشه ودستويفسكى وكامو وسارتر فى دياجير الشك المدلهمة .

وأخيراً استنبط كامو من إدراك الانسان سخف الحياة نتيجة ثالثة ضرورية يتمخض عنها منطقه كما ينبعث الدخان من النار وهى « الجموح » La passion وتفسيرها أن الانسان لا يملك من الحياة إلا ما مُنحه على الأرض ، فخليق به إذاً أن يعمد إلى التمتع بما تُرك له منها إلى أقصى حدود التمتع ، وجدير به أن يحاول التملص من حدودها الضيقة وآفاقها القصيرة ، فيسعى إلى تنويع حياته و يركن إلى تجديد عيشه . و بما أنه لا قبل له بمد حياته عن طريق الطول إذ هو لا يسيطر على عمره فعليه أن يملأها من ناحية العمق . وضرب مثلا على ذلك دون جوان العاشق المعروف وبطل القصص الأسبانية القديمة ، وقد اشتهر بعدد لا يحصى من المغامرات النسوية . وكان دون جوان يجدد نفسه مع كل امرأة تقع فريسة فى حبال غرامه ، ويدأب على الجرى وراء المغامرات دون أن يعتريه ملل أو كلل ، ويكنّ لكل امرأة جديدة حبا جامحاً وعاطفة صادقة ، لاينال من جموحه وصدقه تكرار حوادثه الغرامية . كما يضرب مثل الممثل المسرحى إذ يعيش كل ليلة متدثراً شخصية تختلف عن شخصية الدور الذى لعبه فى أمسه ، فتتراكم عليه هذه الشخصيات المتعددة المتنوعة المتنافرة وتطغى عليه حتى تصطبغ بها سليقته وتتلون بها طبيعته ولا سيما أن الممثل إذا أجاد تمثيل دوره تقمص شخصية البطل الماثل أمامه وانتحل صفاته وقلد

حركاته إلى أن يندمج فيه اندماج الماء بالراح . وكم من لاعب مسرحى يأتى دون وعى فى حياته العادية بحركات هاملت عندما يهم بتناول الكأس . ولاغرو إن الطبيعة المصطنعة المتكلفة تؤثر تأثيراً خفياً عظيما فى الطبيعة الأصلية . كذلك الفنان أو الكاتب ، فانه يخلق لنفسه حياة جديدة كما تفتق عن ذهنه أو خياله عمل فنى وكأنه يبعث بقدر ما يُخلق .

وصفوة القول أن كامو يرى فى الجموح وفى سعى الانسان لتجديد نفسه وإن أخفق السعى أحياناً احتجاجاً على مصيره المحدود وهياجاً على أفقه الضيق ومآله المحتوم ألا وهو الفناء والعفاء .

الآن وقد ظهرت فلسفة ألبير كامو جلية للعيان ، يحق لنا أن نسأله عن حظ الانسان على الأرض إذا ما وضح له عبث الحياة ولم يعتصم بحبل الايمان الصادق سيما بعد أن حرمه كامو فسحة الأمل الذى يحدو إلى المثابرة والجلد ولم يدع له سبيلا للنجاة إلا الانتحار أى الفناء . من المشاهد أن من يعمد إلى الانتحار ممن يوقن عن حس ووعى بسخف الحياة وعبث أهدافها نفر قليل جدا لا يؤبه بعددهم ، أفلا يوجد إذاً لدى الانسان المنطقى سبب آخر سوى غريزة البقاء يحفزه على مواصلة السير فى دروب الحياة الشائكة الوعرة ؟ ألا يتخلل يأس الانسان من حظه بصيص من الأمل ؟ ألا تتسلل بارقة أمل خلال جحافل الظلام الدامس ؟ ألا يرتئى كامو سوى حلين : الانتحار أو الرضا بعيش فاتر جامد ممل ممض لا طعم له ولا لذة تجعله سائغاً ؟ يسوق لنا كامو فى هذا المضمار قصة أسطورة يونانية قديمة خلعها عنواناً على بحثه يرى فيها الرد الشافى .

زعم الاغريق فى أساطيرهم الغابرة أن سيزيف Sisyphe ابن أيول Eole وملك كورنثيا كان رجلا عاتياً جباراً قاسياً مولعاً بالسلب والنهب ، فغضبت لحاله الآلهة وحكمت عليه بعد مماته بغية التكفير عن أوزاره بأن يظل مدى الأبد فى جهنم يدحرج صخرة ثقيلة حتى يثبتها فوق قمة جبل ، وكان سيزيف كلما بلغ بحمله ذروة الجبل الشاهق يرى الصخرة تهوى من عل وتثوى فى الحضيض ، فيدلف وراءها إلى أسفل ويعيد الكرة حتى يصل بها إلى القمة من جديد فتسقط الصخرة مرة أخرى ، وهكذا دواليك لا يدرك غايته أبداً ، وهو رغم ذلك يعيد سيرته الأولى المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة دون

أن يعتريه وهن أو فتور . وقد رمت الآلهة بهذا العقاب الغريب إلى الامعان فى تعذيبه وإيلامه ظنًّا منها أن ليس ثمة جزاء أشد قسوة وردعاً من أداء عمل لا طائل تحته ولا جدوى منه ولا رجاء فيه . لذلك غدا سيزيف مضرب الأمثال عند ذكر عمل سخيف لا يشف إلا عن العبث . ومن أجل ذلك انتشل كامو شخصية سيزيف من جهنم الذى يهيم فى لظاها وعرضه علينا حتى يكون ماثلا أمامنا نتعزى بمصيره ونتجلد بصبره .

وقد تبادرت إلى كامو فكرة رائعة عند تحليله معنى هذه الأسطورة وعنّ له خاطر رائق إذ يقول إن ما يعنى ببحثه ويثير اهتمامه هو تلك الفترة التى تمر على سيزيف وهو عائد أدراجه من عل إلى أسفل ليحمل الصخرة مرة أخرى وهو عالم أنها مصدر شقائه وعذابه . خلال هذه الفترة يجد المسكين مجالا للتنفس ولإنعام النظر فى حظه العاثر ، وخلالها يثوب إليه وعيه ويفيق من ذهوله . فى هذه اللحظة بالذات عندما يغادر القمة ويهم بالنزول يظهر لنا جليا أن سيزيف قهر حظه وتغلب عليه وبات سيده وغدا أشد صلابة من جلمود صخره الذى يرزح تحت حمله كما ينوء المرء فى الحياة تحت عبء عمل متكرر لا مناص منه ، يبدو سيزيف فى هذه الآونة فاقد الأمل لا يستمسك بأهداب منًى كاذبة ، وإنما يعلم علم اليقين أن جهده ضائع ، ويدرك تمام الادراك أن ما يبذله ذاهب سدى ، ولكنه رغم ذلك لا يفتأ يعكف على أداء سخرته وهو يصارع حظه إلى أن يصرعه ، وهو يصرع حظه لأنه يحتقره ويزدريه .

وإذا نحن أسلسنا القياد لكامو ساقنا فى ركابه إلى أبعد من هذا الحد فى عالم التصور والخيال ، فهو يردف زاعماً أن سيزيف قد ينتهى به الطواف إلى جنى لذة من شقائه وتحويل عصارة عرقه إلى شئ يشبه الهناءة لشعوره أنه قابض على زمام حظه مسخر صخرته العاتية ملكا له ومتاعاً .

ويختم كامو كتابه قائلا : « إن الكفاح لبلوغ الذرى يكفى فى حد ذاته لملء قلب الانسان وإفعامه ، ومن ثم يكون حقيقاً بنا أن نتخيل سيزيف سعيداً » . وهو يرمى بهذا إلى أن الكفاح فى ذاته خير من النتيجة ، والسعى نفسه أكرم وألذ من الاكتفاء .

ويخيل إلىّ أن الكاتب أغفل أمراً هامًّا أو على الأحرى شيد نظريته على افتراض لا يسيغه المنطق السليم ، إذ أنه جابهنا دون جدال أو نقاش

بفرض لم يكلف نفسه مؤونة تفسيره أو دعمه ؛ فهو يفاجئنا بقوله : إن سيزيف يثوب إليه وعيه فى اللحظة التى ينأى فيها عن القمة ، وأنه يشرع فى دحرجة صخرته من جديد وهو مدرك عبث عمله وسخف جهده . ويبدو لى أنه لو صح هذا القول خلال المائة مرة أو الألف مرة الأولى فهو لا يصح إلى النهاية ، وأن سيزيف وهو يدفع الصخرة المرة أثر المرة ولا يلمح أمامه إلا الحجر ، سوف يجمد حسه ويخبو وعيه وتتحجر نفسه فيصير آلة تأتى بحركات معينة فى فترات متقطعة دون وعى أو حس . فاذا صح هذا الاعتراض انهار صرح منطق كامو من أساسه .

كما أن اكتفاءه بلذة الكفاح فى ذاته قول مشكوك فيه أيضاً إذ يفوق طاقة البشر . فاذا أيقن الانسان العادى أنه لن يبلغ هدفاً أو بعضاً من الأهداف التى يذوق الأمرَّين فى سبيل بلوغها ، وإذا حرمناه أيضاً حافز الأمل ، ضاق ذرعا بالعمل ورغب عنه واستحوذ عليه اليأس والقنوط . نعم ! يعلم الانسان أن كل شئ مآله العدم والفناء ، وأنه طيف عابر على وجه البسيطة ، ولكن ألا يحق له أن يذكر الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » .

وما فائدة الحنق على سخف الحياة والتبرم بعبثها ؟ وما الجدوى من الهياج على حقيقتها المريرة وواقعها الأليم ؟ وأنَّى للعقل البشرى أن يلج أسرارها أو يحل ألغازها ؟ أليس الأفضل أن يكف الانسان عن سبر غور نفسه فى كل لحظة ، وأن يحجم عن تحليل نوازعه ويقلع عن تمحيص خواطره وتشريح روحه ؟ ألا يعد الهرب من الواقع نصراً عليه فى بعض الأحوال ؟ ولئن شق علينا فهم كنه الحياة ومعناها ألا يحق لنا أن نهرع إلى مُثل عليا نسعى إلى إدراكها أو نلقى أنفسنا بين أحضان فن رفيع كالشعر أو الموّسيقى أو التصوير عساه يسبح بنا فى أعالٍ تنسينا الهموم والكروب ؟ أليس الأنفع أن نغض الطرف فلا نبلبل عقولنا بصوغ سؤال عقيم يتكفل الموت وحده بالاجابة عنه ؟ أرى معنى الحياة مرتبطاً بمعنى الموت . فالموت إذ يطوى الحياة يكشف معناها ، ومن ظلماته ينبلج نور الحقيقة ، كما ينبثق من الليل البهيم الفجر المضئ المشرق .

فؤاد وصفى أبو الدهب

من هنا وهنالك

فى جبال سويسرا

لم تسر بنا أقدارنا هونا ، وقد تتريث بنا فى مطلع الفجر حيناً فتسمعنا نشيد الحياة الجميل . ثم يجدُّ الجد فتستحثنا فى راحة الليل وفى هجير الحرور ، وتنذر الذين يصبرون أو يتمهلون بالتخلف والحرمان ، وتبشر الجادين والمتوثبين ، بما نهضوا له من ثمر ، وقد نشق على نفوسنا فتشكو :

مُعَاوِى إنَّنَا بَشَرٌ فأَسْجِحْ
فَلَسْنَا بالجبالِ وَلاَ الحديدَا

وليس أظلم لنفوسنا من أن تدعوها الحياة ، فيكبحها واجب أو يثقلها ثقل من أثقال الفكر ؛ فان حياتنا جزء لا يتجزأ من دورة الفلك ، وهى تشقى ألا تجاوب دعاء الكون . . . فمن عاش متخفياً عن الشمس التى بزغت لبهجته وحياته ، ومن سهر متجافياً عن النوم الذى أقبل به الليل لنضوجه وصفائه ، ومن تصامّت أذناه عن سمع الربيع ، ومن غضّ الطرف عما شاع فى آفاق هذا الكون من جمال ، عاش ظالماً لنفسه ، ولم يُغْنِ شيئاً .

وربما كانت سبل العيش فى كل مكان ميزاناً لما آمن به الناس من دين وخير ، وترى الذين تدبروا خلق السموات والأرض ، قد آنسوا جمالا وإلـهاً ، وترى الذين انطووا على أنفسهم قد آنسوا فى حياة الانسان أغواراً وكنوزاً من الجمال وبحثوا فى أنفسهم عما أولتهم الطبيعة من جمال وكمال ، وعسى أن يكون مثل الله الأعلى أن ينظر الناس فى خلق أنفسهم وفى خلق السموات والأرض جميعاً حتى يبلغوا ما آتاهم الله من نعيم الحياة ، ولا يلقوا سدًّا بين أنفسهم وبين ما فى قاب الحياة من دين ، وجمال وخير .

ولم يجز نفسى جزاء أطيب من أن تخرج حيناً من كل قيد ، فلا يكون لعمل ولا لأمل عليها من سبيل ، وأن تستلقى فى رأس جبل فى أحضان الطبيعة والحياة ، وأن تجد بين ذراعى الطبيعة والحياة رفقاً كرفق الأمومة ، وسلاماً يخالج أعماق ضميرى ، وأن يشتمل على صفاء لا يثيره صوتٌ ولا فكرٌ ، وأن أنسى الزمان والمكان من حولى .

وسماء وادى انجادين فى سويسرا إذا صحّ النهار زرقاء ناعمة رفيقه، ليس فى صفحتها أثر لشئ فى ناحية من النواحى، سوى قرص الشمس الوضاء الذى ينفذ ببياضه الساطع فى رءوس الصخر، وفى مروج المراعى الخضر، ويجعل ظلال شجر الغابات بين ظل سهل، وبياض يسير، ولا يذهب بآثار الفجر مرة واحدة بل يبقى حتى ضحى النهار على ندى الصبح وصقيع الليل، وتنظر فى عين الشمس فلا يرد شعاعها عينيك، وكأنها بزغت لكل كائن فرد، وجاءت للكون جميعاً.

وسلام الطبيعة فى ضحى النهار كسلام الفتاة الجميلة السعيدة فى مطلع ربيعها، والتى لا يتعجلها حرمان وحاجة، فهى نؤوم الضحى، وهى تبدل ثياب الليل هوناً، وهى تغنى فان نظرت إليها عين بشّت لها وابتسمت.

سرت إليها بجى وعصاى لا أسمع إلا خطوى ويقظة ما يطنّ فيها من الهوام، وما يتجاوب فيها من الطير وما يجرى فيها من السيل، واستسلمت من وادٍ ذى ذرع إلى صخور وادٍ غير ذى ذرع، ومضيت حتى صرت ظلاً كظل ما حولى من الصخر، وحياة ساكنة كحياة ما حولى من الشجر، ووليت وجهى مصعداً إلى رءوس صخر محترق كلون التراب . . . وبينا أنظر كل شئ حولى قد ملأت حياتى بنسيم وضياء وصمت ووقفت متهادناً قد مددت عصاى وراء عنقى، وأسندت لطرفيها يدى كأننى راع، وثبت من باطن الصخر النائى العالى ظباء كلون البقر كانت آمنة ناعمة بضحى الشمس، فاستوحشت من ظل إنسان . . . ووقفت كبراها تنظر ما أدبر وتنتظر أن يعجل صغارها فتتوارى فى ثنايا الصخر، ثم ولت فراراً بعدهن . . . لم أصب بعدهن متاعاً أجمل من أن أمضى نأرق إلى حيث اختارت الظباء فهن أعلم دليل بأجمل موضع فى الجبل، فسكنت حيث سكنت ساعة من نهار انطوت على نعيم كنعيم الخلود .

ولم أجد للسعادة سبيلا سوى الحياة؛ فما يغل الحياة من عقم وركود وذل وإعياء وضيم مانع للسعادة والحياة جميعاً . وما يرسل ينابيع الحياة فى النفس كالشباب والحب. وفى النبت كالربيع والزهر، وفى الصخر كالنسيم والغيث، مرسلٌ للسعادة والحياة جميعاً . وحيثما نبض قلب بالحياة، تفجرت من حوله آيات بينات من متاع الحياة والجمال . . . ويوم نمشى فى الأرض أحياءً سعداءَ طلقاءَ، تتزود أرواحنا بهمة النحلة التى ترتشف من

أعطاف الزهور، شهى الحياة . . . فمن عسى أن تجد نفس فى مواطن الظباء . . .

استقبلت هذه الصخور صخورٌ مثلها من جانب الطود الأيمن بنى فى عنقها منزل أبيض عالٍ لن أبرح هذا الجبل حتى أسمو إليه . . . وما أدرى أتهجرنى ظباؤه . . . بينى وبين هذا المنزل العالى دارٌ لفنان وقفت فيها وسط النهار حتى رفع ما بينى وبين الفنان من غربة . . . ثم كاشفته أننى جئت هذا الجبل لأعلم ما يتعلمه بنات الأغنياء من السويسريين والأجانب فى معهد الجبل ، فصمت حيناً كدأبهم إذا أجابوا ، ثم نفذ خلال هذا الصمت صوت امرأته العجوز كالوتر الدقيق الرفيق تغنى أغنية ألمانية :

صَبِيَّتى ياصَبِيَّة
أنتِ غَايَةٌ فى الجمَالِ

ثم قالت :

ويْحى عليك وويحى منك يا رجُلُ

فابتسمت وقلت لها : « لا عليك ! فقد كبرت ثم شبتُ عن الهوى . »

فأشارت بيدها إلى نفسها وقالت : « أنا جميلة . » ثم إلى رجُلها وقالت : « هو أجمل منى . » ، ثم إلىّ وقالت : « وأنت أحسننا جميعاً . »

ثم انطلقت إلى المنزل الأبيض العالى ، فلقينى مديره بأدبٍ أصيل لا تكلف فيه ، ومضى يبين لى قاعة عريضة مدورة قامت سقفها على عمد بيض ودارت نوافذها فى جبهة البيت ففاضت ببياض النهار الناصع ، وأشرفت على مروج خضر ، وأسلمت البصر إلى جبال التيرول القائمة بين النمسا وسويسرا.

فى هذه القاعة يسمر الفتيات ويغنين ويرقصن ويعزفن ويمثلن ، وعن يمين هذه القاعة غرفٌ تنامُ فيها الفتيات ، وعن يسارها حجراتٌ يتعلمن فيها ما يعلم هذا المعهدُ من معرفة، فينمى فى الفتاة ملكة المعرفة وملكات الفنون والرياضة ، وتعيش كأنها فى أسرة تأكل مما يأكل معلموها وتصطفيهم ويصطفونها وتنمو بينهم مودة وثقة ، وتتعود الجهر بما تجدُ ، ولا تدبر فكراً فى الخفاء ، وتتعلم فى هذا المعهد الأعزل ألا تؤمن بالـه المال وحده وتؤمن بالصدق والوفاء والبساطة ، وتشرف على النظام والطعام وترتب فراشها مرة كل أسبوع .

كلما بيّنَ لى مدير هذا المعهد جانباً من معهده راعتنى نظافته ، وما ملأ حجراته من سلام وحب ، وأعلمنى أن ذلك المعهد قد بناه أهل القرى المتناثرة فى أحضان الوادى ، وجاءته فتيات من كل مكان لينشأن فى ذلك المحيط الجميل

الذى أحاطت به الطبيعة وحدها من كل مكان . . . وبينا ألقى بصرى معجباً بما أرى أقبلت فتاة بثياب الرياضة القصيرة وكانت بضَّة غضيض الطرف تفيض منها الحياة ، وابتسمت تحى مديرها وتحيينى . . . ثم سرت وراء مديرها أتنقل من أثر إلى أثر حتى أقبل ، ففتح باباً مغلقاً ، فاذا نحن بين يدى هذه الفتاة الجميلة ، فمددت إليها يمينى ثم خاطبتها بالفرنسية،فتلوت عنى بدلال جميل ، وهزت يمينها الرطبة تردُّ عن نفسها حرجها ألا تفهم لغتى . فأسعفتها بما أعرف من لغتها وقلت لها أأنت هنا سعيدة ؟ فشرعت فى عينى نظراً ليس فيه سوى قلب إنسانى وقالت نعم،نعم. وبادلتها ما انطوت عليه نفسى من إنسانية وخير وقلت لها قولاجميلا، ثم مددت لها يمينى أستودعها فضغطت على يمينى حتى سرتْ نفسها فى نفسى .

ويسرى النعيم والسعادة بين الناس بالحياة والحب مثلما يسرى بينهم الشقاء والعلل بالبغضاء والمرض فكيف يولد الحب وترعى حرمات الحياة بين الناس :

« مَنْ أبوهُ ومنْ أمهُ

« ذلك شأنٌ غير يسير ، ولكنى أنبؤك بنبئه : يوم ولدت أفروديت حفلت الآلهة حفلا ، وكان من بينهم عروة ابن الحكمة ، فلما حضر العشاء قدمت امرأة فقيرة تسأل المحتفلين إحساناً لأن المائدة كانت ذات خير عميم ، ثم جلست لدى الباب ، فثمل عروة بنكتار (لأن النبيذ لم يكن معروفاً يومئذ) ، وخرج إلى حديقة زيوس فأثقله السكر فنام . فسولت للفقر نفسها وحاجتها أن تنسل غلاماً من عروة ، فضاجعته وحملت منه الحب ، فشبّ الحب مولى وتابعاً لأفروديت لأنه ولد يوم عيد مولدها ، وأوتى قلباً توّاقاً إلى الجمال ، وكانت أفروديت ذات جمال . »

أراد أفلاطون أن يبين أن الانسان فقير إلى الجمال والحكمة ، وأنه لا يبلغهما إلا بالحب الذى يقف عروة بيننا وبين ما فى أنفسنا ، وبيننا وبين ما فى العالم من جمال ، فجاء بالحب من أمٍّ سائلة فقيرة.ولو نظر إلى ما يقوم بينَ الناس من سعادة وعدل لرأى للحب أمًّا عزيزة غنية وهى الانسانية. فان نمى الناس فلا تنمو ذئابهم وحملوا فى قلوبهم الايمان بالانسانية وحرمات الحياة تنمى من حولهم العدل والاحسان . وجاء العدل والاحسان بالحب والمؤاساة .

على حافظ

شهريات

شهرية المسرح

الموسم المسرحى القـــادم

ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى أسرعت إدارة الأوبرا الملكيـة إلى استدعاء الفرق الأجنبية للتمثيل على مسرحهـا وتقـديم ما حرمه الجمهور المصرى المثقف من فن رفيع أثناء سنوات الحرب الصاخبة ، فقدمت لنا فى موسم ١٩٤٦ فرقة جان هرفيه برنامجاً هو مزيج من المسرحيات الجدية والمسرحيات الهزلية منها القديم ومنها المستحدث . ولـكن هذه الفرقة بالرغم من برنامجها المتنوع لم ترو ظمأ جمهورنا إلى مشاهدة آيات المسرح الفرنسى ولا إلى الاستمتاع بالتمثيـل الرفيع ؛ إذ لم يكن فى الفرقة إلا ممثلان اثنان يجيدان التمثيـل . وجاء الموسم الماضى حافلا يحقق رغبات جمهورنا . فاختيـار المسرحيات كان موفقاً ؛ وذلك بفضل من أشرفوا على اختيار هذه المسرحيات. غير أن الاتقان لم يكن حليف الأداء دائما . لقد أجاد أفرادها فى بعض المسرحيات مثل « موعد سنليس » و « حمار بوريدان » و « سأحيا حياة حب عظيم » وأخطأتهم الاجادة فى « لن تقع حرب طروادة »و « تارتيف » و « النفور » . ومع ذلك كان مستوى الفرقة من حيث الأداء والتمثيـل والاخراج أرفع شأناً من الفرقة السابقة التى لم تعطنا صورة صادقة عن نهضة المسرح الفرنسى وتقدمه فى السنوات الأخيرة .

وكانت تعمل أيضاً فى الموسم الماضى فرقة إيطالية للغناء المسرحى أى الأوبرا . وقد تكلم الأستاذ حسن محمود باسهاب عن هذا الموسم الغنائى والتمثيلى الذى لم يمثل الفن الموسيقى الايطالى الحديث فى خير مظهره . لقد كان البرنامج حافلا بأسماء كبـيرة مثل فردى وروسينى ودونتزيتى ،غير أنه لم يختـر لهـؤلاء الموسيقيـين خـير سواهبهم، بل روعى فى اختيار الروايات ذوق الجمهور . والويل للفن إذا راعى ذوق الجمهور ! ولم يكن اختيار العناصر فى الفرقة الغنائية موفقاً كل التوفيـق ، فثمة تفاوت بين أعضائها فى الأداء .

ولم تكن العناصر الخيرة تزيد على ثلاثة أو أربعة .

ومع ذلك صادف الموسم التمثيلى والغنائى فى العام الماضى نجاحاً كبيراً بفضل ما بذله أعضاء هاتين الفرقتين من مجهود فى أدائهم و إخراجهم وتمثيلهم . ونسينا ما وقعنا فيه من هنات بفضل أفرادهما مثل جان مارشا وميشيل ألفا وجاك فرنسوا من الفرقة الفرنسية ، وجينو بيكى وبالميرا فيتالى مارينى وأنتونيو أنالورو من الفرقة الايطالية .

وقد يكون هذا النجاح مما شجع إدارة مسرح الأوبرا الملكية على إعداد برنامج حافل للموسم القادم ، برنامج طريف متنوع ،روعى فى اختياره لا ذوق الجمهور فحسب و إنما روعى كذلك تمثيل الفن المسرحى فى جميع نواحيه : من رقص إلى تمثيل إلى غناء ، وعهد فى إخراجه إلى فرق ذات شأن فى بلادها إن لم يكن فى العالم بأسره.

يبدأ الموسم بفرقة مرقص الشانزيليزيه ، وهى فرقة مكونة من شبان فرنسيين يعملون تحت إشراف رولان بيتيه ، وهو شاب لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره . وقد حازت الفرقة نجاحاً كبيراً فى باريس حيث بدأت عملها ثم فى لندن حيث ظفروا بفوز عظيم . ويقال إن رولان بيتيه قد أحسن اختيار فرقته وتنسيق برنامجها . فاستعراضات هذه الفرقة ما هى إلا مسرحيات استبدلت بالحوار الموسيقى والايماءات . فكل استعراض له قصته جدية كانت أو هزلية ، وقد تكون رمزية . فهذا الشاب فى استعراض « الغداء على العشب » ما هو إلا رمز لروح المغامرة، وقد تكون خرافية مثل « غراميات جوبيتر » أو « الغابة » . ومن مميزات هذه الفرقة أنها تقدم رقصاتها على أنغام أشهر الموسيقيين الخالدين مثل موزار أوتشايكوفسكى أو باخ أو الموسيقيين المعاصرين مثل جاك إيبير وهنرى سوجيه ، وأنها تعتمد فى استعراضاتها على نصوص شعراء مثل كوكتو و بريفير . وستظل هذه الفرقة تعمل على مسرح الأوبرا الملكية من ٢٥ ديسمبر إلى ٥ يناير .

وفى ١٠ يناير سنة ١٩٤٨ تبدأ فرقة الأوبرا الايطالية نشاطها فى القاهرة . وقد اطلعت على البرنامج وأسماء المغنيين ، فلم أر اختلافاً كبيراً عن الموسم الماضى .فالملحنون لم يتغيروا؛ فثمة روايات من فردى وبوتشينى

وجيورداني ودونيتزيتي . ولم أعثر على أسماء جديدة إلا اسم ماسنيه . وكنا نتمنى على المشرفين على إعداد برامج هذا الموسم أن يراعوا فيها التنويع؛ لأن مهمتهم هي أن يطلعوا الجمهور المصري على ألوان مختلفة من الفن الغنائي المسرحي . فكان من الواجب عليهم أن يختاروا أسماء أخرى من الألمانيين أو الفرنسيين أو أن يتجنبوا الأسماء التي احتوتها برامج السنة الماضية ما تيسر لهم ذلك . أما عن الممثلين فالجمهور سيعلم بسرور أن جينو بيكي سيعود إلى الظهور في القاهرة في الروايات الآتية : *Thaïs* و *Otello* و *Un Ballo in Maschera* . ولست أدري لما استدعيت ماريا كانيليا مع أن نجاحها الحالي عند الجمهور لا يرتكز إلا على ماضيها المجيد .

وبعد أن ينتهي الموسم الايطالي يبتدئ الموسم الفرنسي المسرحي . وقد أسدت إدارة الأوبرا الملكية يدا لا تنسى إلى الجمهور المصري باستدعاء لويس جوفيه وفرقته لاحياء هذا الموسم ؛ فهذه خدمة جليلة لعشاق الفن الخالص الذين لم تتح لهم الظروف أن يذهبوا إلى باريس لمشاهدة لويس جوفيه يعمل على مسرح الآتينيه .

ويعد هذا المسرح في فرنسا في المرتبة الأولى لما يقدم فيه من مسرحيات هي آيات أدبية وفنية في وقت واحد . ومن المعروف أن لويس جوفيه هو الممثل الوحيد الذي كان يختصه جيرودو بمسرحياته ؛ فكان الاثنان يتعاونان كل في ميدانه : فجان جيرودو يكتب ولويس جوفيه يحقق . وهناك مسرحيات أخرى اختص بها هذا الممثل الفذ مثل « نوك أو انتصار الطب » لجول رومان ؛ فجوفيه هو الذي خلق هذه الرواية . وأكبر الظن أن هذه المسرحية لم تمثل في باريس إلا على مسرحه .

ومهمة جوفيه لا تقتصر على التمثيل وحده بل هي في الحقيقة إيجاد نشاط فكري وأدبي بوساطة المسرح ؛ وبذلك قد أوجد هو وأعوانه حركة تطور واسعة في ميدان الفن المسرحي .

والجمهور المصري قد شاهد هذا الممثل في أكثر من شريط سينمائي، فقد أتاحت لنا السينما أن نرى فنه كممثل ، وحسبنا أن نذكر فيلمه الأخير «شبح» *Le Revenant* الذي عرض علينا في يونيو الماضي لنتبين مزايا هذا الفن السامي . وجوفيه يلتزم دائماً الهدوء والرزانة في أداء أدواره ، ولا يلجأ مطلقاً إلى المغالاة ، وهو قادر على التعبير

عن أعنف الشعور بايماءة بسيطة أو بنظرة من عينيه الحيتين .

ويجمع جوفيه حوله فرقة من الفنانين يساعدونه على تحقيق مهمته وهو الارتقاء بالفن إلى أعلى درجات السمو . فهو يعهد إلى كريستيان بيرار بوضع تصميم ملابس الممثلين وبتشييد المناظر اللازمة لمسرحياته — وكريستيان بيرار فى فرنسا فنان ذائع الصيت ، كبير الشأن ، على القدر — وإلى موسيقيين معاصرين ذوى غناء مثل أندريه سوجيه وفيتوريو ريتى لوضع ألحان لمسرحياته .

واختيار المسرحيات للموسم التمثيلى الفرنسى اختيار موفق كل التوفيق . سنشهد مسرحيتين لجيرودو ، هما «أونديين» و «لابولون دى مارساك» ، واثنتين لموليير هما «مدرسة الزوجات» و «دون جوان» ، ومسرحية للافونتين هى «الكأس المسحورة» وأخرى لجول رومان هى «نوك أو انتصار الطب» الخ .

وهذا البرنامج لا يشمل إلا مسرحيات لها مكانتها فى الأدب الفرنسى الكلاسيكى أو المعاصر ، فكل منا يعرف موليير ومسرحه الخالد ، وكل منا إن لم يكن شهد مسرحيات جيرودو فقد قرأها ، وكل منا يعرف جول رومان قصصيا وكاتبا مسرحيا .

ومجمل القول أن الموسم التمثيلى القادم يشهد أن المشرفين على إعداده لا يألون جهداً لكى يجمعوا بين تسلية الجمهور وتثقيفه فى وقت واحد ، فهم قد جمعوا فى برنامجهم بين الرقص والتمثيل الغنائى والتمثيل المسرحى . وهذه فنون ثلاثة لا نستمتع بها فى مصر إلا بحضور الفرق الأجنبية . ونحن نحمد لادارة الأوبرا هذا المجهود الذى يرمى خاصة إلى إنعاش الحياة الفكرية والفنية فى مصر ، والذى يجعلنا على اتصال دائم بالحياة الفكرية والفنية فى الغرب . فالمسرح يساعد أكثر من الكتب على تنمية هذه الاتصالات العقلية لأنه قبل كل شىء أداة لهو وتسلية .

رشدى كامل

شهرية السينما

شارلى تشـــابلن وطريقته

كتب مستر روبرت لويس بحثاً طريفاً عن شارلى تشابلن رأينـــا أنه يحسن أن يطلع عليه القراء. قال: قص على شارلى تشـابلن ذات مرة قصة عن جده الذى كان إسكافيـا. فقد كان شارلى يرى الشيخ عندما يشعر أحياناً بضيق نفسى، قد اتخـذ مكانه أمام منضدة عمله، ثم أمسك بسكين وبقطعة من الجلد، وبدأ فى صنع حذاء؛ فلا يزال يعمل نهاره، وليله إن وجد حاجة لذلك، إلى أن يتم الحذاء كله، ثم يقف رافعاً هـذا الحـذاء الذى هو من صنعـه، وقد عادت إلى نفسه طمأنينتها، وكأنه يقول: «لقد صنعت هذا! هذا الحذاء ولا يمكن أحداً أن يأخـذ منى هذا العمل الذى أنشأته فأنا الآن راض».

فشارلى يشعر دائماً أن من المصادر الكبرى لعدم رضا النفس الانسانية، أن الكثير من الأعمـــال، حتى أعمال بعض رجال الفن، قد تجزأت إلى أجزاء كثيرة مختلفـة؛ فلا تقع التبعة فى العمل بأكمله على عاتق شخص واحد، ولا يشعر أحـد بالرضا للوصول إلى نتيجة حسنة. ولقد عبر عن هذا الاحســـاس فى شريطـه «الأزمان الحديثة». ولست أعلم كيف يعمل لحل هذه المشكلة بالنسبة للعالم، ولكنه وجد لها حلا بالنسبة لنفسه.

فشـارلى عندما يعمل فى إخراج شريط سينمائى نراه يعمل حتى يتم الحذاء كله. ولقد نلت من عهد قريب شرف القيـام بدور فى آخر شريط له، واسمه «مسيو فردو». وتمتعت فضلا عن ذلك بميزة أخرى، هى أنى راقبت هـذا الشريط منذ ابتدأ، وهو مجرد موضوع كتابى، إلى أن مر بفترة أعداد الأدوار، ثم بفترة الاخراج. فاذا كنت أعبر عن تقدير كبير لهذا الرجل العظيم الذى لا ينتهى نبوغه، فقد اتهم بأنى متملق. فقد صار من العادات الحديثة فى عالم الملاهى اليوم أن أى مظهر للتأثر يعد تملقاً. ولكنى أريد أن أقيد ملاحظاتى عن الطريقة التى يعمل بها

شارلى ، ولماذا أنا أعتقد أنه نابغة ، ولماذا أعتقد فوق ذلك أن الأشرطة التى يخرجها عظيمة.

لقد دون شارلى أولا موضوع قصة مسيو فردو بنفسه ؛ وظل يعمل مدى سنتين فى كتابة تفصيلاتها ؛ فكان يضع الحوار ويصحح ويضيف و يمحو . وفى آخر تلك الفترة أخذ يمرن بعض الممثلين على الأدوار ، وهو فى الوقت نفسه يحاول تحسين القصة . ثم أخذ يضع رسوماً للاثنين وخمسين منظراً من مناظر القصة ، مما أدهش الصناع الذين كانوا يعملون معه . وفى الوقت نفسه كان يكتب الموسيقى المناسبة للشريط ، وكان كذلك يختار الأدوار والملابس ، ويعد برامج العمل ويدير القسم الادارى .

وفى داخل الاستوديو نرى شارلى يبدى نشاطاً لا مثيل له ، وتحمساً لا يلبث أن يعدى الحاضرين . فهو أول من يحضر فى الصباح ، مرتديا ملابس دوره ، وواضعاً الأصباغ الملائمة. وبينما هو فى انتظار حضور الآخرين ، نراه يصعد إلى المساند الخشبية ، ويشير برفع ما لا ضرورة له ، إلى أن يصل إلى ما يبتغى .فاذا جاء الممثلون أدار المنظر ، ويحل مساعده فى مكانه ، على حين يذهب الممثل المدير إلى الآلة المصورة ليرى منها المنظر . ويقبل المصورون دائماً مقترحاته فى شأن الاضاءة والزوايا وغيرها،لأنها تنطوى دائماً على خيال غزير وحسن تصرف .

وفى أول يوم كنا نمثل فيه رفضت أن أشارك شارلى فى غدائه؛ فهو لا يأكل فى الظهر إلا واحدة من الطماطم.أما أنا فعبرت الشارع وتناولت غداء يناسب معدتى التى تقبل على الأكل كمعد الناس . ثم عدت بعد عشرين دقيقة فرأيت شارلى قد هضم الطماطم الذى أكله، وجلس على البيانو يؤلف موسيقى ريفية لمنظر صغير،نراه فيه يقطع الورود من أشجارها . فجلست، وظل هو يعزف من الألحان التى تخصص لكل آلة فى الأوركسترا بقدر ما يستطيع على البيانو ؛ ثم كان يغنى أو يشير إلى العازفين لآلات النفخ التى لا يستطيع عزف أدوارها بما يفعلون . ثم ينتقل إلى التقاط المناظر بعد الظهر . ولكنه قبل ذلك يرى ما صنع من أشرطة فى اليوم السابق ويفحصها بعناية ، وربما يعيد المنظر لكى يكون الشريط خيراً مما كان . وإذا كان هنالك بعض الوقت لملء الآلة المصورة بالأشرطة ، وهذا ما لا يفعله شارلى ، فانه يأخذ فى تسلية الحضور ببعض الرقصات أو التقليدات ، كأن يقلد

شرلوك هولمز تقليداً فكاهيا .

وتشابلن كمدير عظيم جدا . ولقد تحدث إلىّ عن تمثيل الدور الذى أقوم به ، وهو دور موريس الطبيب البيطرى للقرية ، وصديق مسيو فردو ، فلم يفسر لى الدور بأكثر من قوله : « هو نوع من الناس الثقلاء الذين إذا ماتكلموا ظنوا أنهم يحاضرون. » ولم أسمع شارلى يقول مرة : « يجب أن تقول العبارة هكذا . » أو « قلها بأسرع من ذلك أو بأقل سرعة. » أو غير ذلك من التفاهات الخارجية التى يهتم بها الممثلون عادة .

وليس معنى ذلك أن طريقته فى الادارة تسير على وتيرة واحدة ؛ فقد رأيته مع أحد الهواة يريه كل حركة ، وكل نبرة فى الصوت ، لأنه اختار هذا الشخص لا لقدرته التمثيلية ، وإنما لصفة خاصة أرادها شارلى ورآها فيه . فى تلك اللحظة يعلم أن أسرع طريقة للوصول إلى نتيجة فى تلك الحالة هى التقليد . وعندما رأيته يوجه طفلا عمره خمس سنوات ، تبينت لماذا كان شريطه المسمى « الطفل » عجيباً . فهو يجعل من العمل لعبة للطفل ، فيطل برأسه فجأة من وراء الآلة المصورة على الطفل ، ويأتى أنواعاً من الحركات لكى يظل الطفل طبيعيا .

أجل ! إن شارلى يصنع الحذاء بأكمله ، فيكون المجموع وحدة فنية ، لأن جميع الأجزاء تأتى من مصدر واحد ؛ وكل قرار لم يكن نتيجة تأثير وقتى ، بل نتيجة لعلاقته بالفكرة الأساسية . ولقد رأيت شارلى ذات يوم يمر وهو يرفع أعقاب السجائر لكى يكون المسرح نظيفاً ، ففكرت ولماذا لايفعل؟ فليس شىء صغيراً لديه ، إذ لا شىء كبير عليه .

شريط مسيو فردو

ظهر لشارلى تشابلن شريط حديث لم يجد من الاهتمام الكبير ما تجده أشرطته ، فكتب مستر هرمان ايزاكس ينتقده قائلا :

لست أعلم ما هو وجه الخطأ فى شريط «مسيو فردو». لقد كان فى هذا الشريط الأخير الذى أخرجه شارلى تشابلن شجاعة وخيال ، وفيه عنصر الهزل على ألطف صورة ، وفيه مشاعر عميقة ، كما يشعر بها فنان مرهف الحس نحو آلام العالم ، وعليم بالطرق والوسائل التى يعرب بها عن عدم

رضاه . لقد وضع شارلى تشابلن كل قلبه، والكثير من رأس ماله ، فى شريط «مسيو فردو »، وظل يعمل فى كتابة القصة مدى ثلاث سنوات، ويضع أدق التفصيلات على الورق دون أن يترك شيئاً للمصادفة .

ولكن هذه المصادفة قد حدثت . وبالرغم مما فى قصة «مسيو فردو » من المواقف المتعة ، فانها أخفقت فى الوصول إلى النجاح الكامل ، فما هو السبب؟

إن بطل تشابلن كاتب فى مصرف تعطل عن العمل ، فأخذ يقتل بعض النساء العجائز اللاتى يتصل بهن ، وذلك لكى يستطيع الانفاق على زوجة مريضة وطفل . وهو على ما اتخذه من مهنة غير مشروعة يمثل كل فضائل الطبقات المتوسطة ؛ فلا هو يدخن ولا يشرب الخمر ، ولا يستلذ برحلاته إلى فراش النساء الأخريات . وإذا كان يعيش فى عالم تحيا فيه الجرائم الكبرى وراء قناع من الفضائل الصغيرة ، فهو يظل عدة سنوات قبل أن تكتشف جرائمه . فاذا قبض عليه وقدم للمحاكمة ، دافع عن نفسه بما فى الأخلاق التى ترى زمن الحرب من متناقضات ، وهو يقول : « ألم يشجع العالم ذلك الذى يقتل بالجملة ؟ إننى إلى جانب الذين يقتلون بالجملة لا أعد إلا هاوياً . . . فقتل شخص واحد يجعل من القاتل مجرماً شريراً ، وقتل الملايين يجعل من القاتل بطلا فكأن العدد يحيطه بالقداسة . » ولاتتأثر المحكمة بهذا الدفاع ، ويساق مسيو فردو ايلقى حتفه .

فالمخرج الهزلى قد وصف قصته فى شريط هو سلسلة من الحركات التنوعية التى تدور حول فكرة القتل. فضحايا هذا القاتل للنساء كالقصة الأصلية من الحياة التى أوحت إليه موضوعه ، وهى قصة لندرو المجرم الفرنسى الذى كان يقتل النساء اللاتى يتصل بهن . هؤلاء الضحايا منتشرات فى سائر أنحاء فرنسا ، فهو يتنقل فى أسفاره حائراً بينهن لكى يجد الفرصة الملائمة ، مع زياراته القصيرة التى يقيم فيها بين أسفاره فى أحضان أسرته ، مما ينوع فى الحوادث الماثلة التى يحدث فيها القتل. ومن أبدع المواقف الهزلية فى هذا الشريط موقفه مع امرأة قوية — مارتا ريه — التى تأبى أن تقتل . وفى هذا الموقف راحة قليلة حين يجرى الاثنان أحدهما وراء الآخر، وكل يحاول بأسلوبه الفكه أن يغلب الآخر .

والواقع أن هذا الكاتب الطريد ،

الذى يتخذ عمل القتل وتوزيع الفوائد التى يجنيها ، محتفظاً فى ذلك بكل الوقار الذى كان يلازم عمله السابق، كان مادة كبيرة للضحك . وهذا ضرب من الافصاح بالاشارة ، التى يتفوق فيها تشابلن ، وهو يسدد ضرباته التى تضحك الجمهور بدقة الصانع الماهر ؛ وبذلك تجد النظارة يشعرون بمتعة التفرج عليه والتأثر بعمله .

على أنه بالرغم من كل مافى فكرة القصة من ظرف و بريق ، وما فيها من مواقف هزلية ، لم يبلغ شريط «مسيو فردو» الدرجة المعروفة فى النجاح . وليس السبب فى ذلك ،كما يقول البعض، هو كثرة ما فيها من موضوع أخلاقى ، بل لعل السبب هو عدم الوصول بهذا الموضوع الأخلاقى إلى غايته . ولقد أبدى شارلى تشابلن المغزى الذى يرمى إليه فى عبارة قصيرة فى الفصول الأخيرة ، حين يتكلم فردو بالنيابة عن مؤلفه . ولكن هذا المغزى لا يبدو واضحاً فى رسم شخصية فردو نفسه ؛ فلم يتضح هل القاتل شخصية هزلية ، أو هو رجل صغير دفعته الأقدار فى تيار الأخلاق المعقد فى زمنه ، أو هو رجل حانق على المجتمع الذى لفظه ؛ فهذا الغموض لابد من جلائه . فاننا إذاً كنا نضحك لفعال رجل هو عادة كريه ، كما هو شأن القاتل ، فيجب أن نعرف نوع الضحك الذى يثار فى نفوسنا : أهو ضحك أطلقت فيه النفس على سجيتها ، أم هو ضحك ممزوج بالدموع ، أم هو ضحك تشوبه السخرية ؟

مثل هذه المشكلة لم تعرض من قبل فى الأشرطة الكبيرة التى وضعها تشابلن فى الماضى ، وإن كانت تحتوى على الكثير من روح الاحتجاج، كما نرى فى هذا الشريط . ثم إن فكرة تشابلن عن الرجل الشرير كانت واضحة ، بحيث كانت احتجاجاته على عدم المساواة تبدو بارزة من شخصية الشرير نفسه ؛ فكنا نحس باخلاص ذلك المهرج فى سراويله الواسعة ، ونضحك من حركاته فى حين نؤمن بمشاعره ، ونمزج الدموع بضحكاتنا . أما مسيو فردو فلا نحس معه بشئ من الثبات ، بل هو على العكس يتركنا فى حيرة غير راضين .

من وراء البحار

مستقبل الاشتراكية

تهتم المجلات البارزة بالبحث فى الفرق بين الشيوعية والاشتراكية وبين الرأسمالية . ولقد نشرت مجلة « بارتيزان » الأمريكية الشهرية عدة بحوث فى مستقبل الاشتراكية لجماعة من الكتاب المعروفين . وكان البحث الأخير الذى اطلعنا عليه هو للكاتب الأمريكى آرثر شلزنجر وهو مدرس للتاريخ فى جامعة هارفرد ، ومؤلف كتاب صدر أخيراً ونال شهرة كبيرة عن عصر جاكسون . وهو يقول إن التجربة السوفييتية قد وضعت الجدل الذى قام منذ قرن حول الرأسمالية والاشتراكية فى ضوء جديد . فقبل الحرب العالمية الأولى كان الذين يحملون على الاشتراكية يتهمونها بعدم الكفاية ؛ والذين يحملون على الرأسمالية يتهمونها بمجافاتها لقواعد الأخلاق . ومعنى هذا أنهم يسلمون بأن الاشتراكية صالحة فى المبدأ ولكنها غير صالحة فى العمل . والرأسمالية صالحة فى العمل ولكنها غير صالحة فى المبدأ ، ونجد بعد الحرب الثانية إتجاهاً نحو عكس هذه الفكرة . فهنالك ميل إلى القول بعدم كفاية الرأسمالية ، ولكنها تسوغ لأنها الخط الذى تقوم عليه الحرية والديمقراطية . وهنالك ميل للقول بأن الكفاية فى الادارة الاشتراكية تؤدى بالضرورة إلى طرد الحرية . فأى النظامين أدى إلى أن يصير العامل مجرد آلة ، وقيد من حياة الطبقة العاملة ، وقضى على الحرية الشخصية والسياسية ؟

فى رأى الكاتب أن الكثير من النقد الذى يوجه إلى الاشتراكية والرأسمالية ، هو نقائص ليست قائمة بسبب نظام خاص للملكية بل بسبب النظام الصناعى وما يتبع الحالة الصناعية مهما يكن نظام الملكية . فالصناعة والحكومة هما طرفا الشر الأساسيان . فالكبرياء والجشع ولذة القوة ولذة الإخضاع ، هى الأسباب الأساسية لمتاعب العالم .

فالتنظيم من شأنه أن يضعف المسئولية الأخلاقية للشخص ، وكلما اتسع التنظيم وزاد تعقداً صار أداة

يتخذها الانسان المحافظ على الأخلاق، ليشبع من رغبته الطبيعية فى أن يأتى أعمالا لا تتفق مع الأخلاق .

ولذلك إذا نظرنا من هذه الوجهة، وجدنا أن الدولة الاشتراكية هى أسوأ من الدولة الرأسمالية ، لأنها أكثر سيطرة على مجهودات الفرد ، كما أنها لا حد لها فى قوتها . فالتنظيم مما يفسد الأمور ، والتنظيم الاجماعى مما يفسدها إفساداً إجماعياً . وتسوّغ الدولة الاشتراكية وجودها بحجة أن حصر السلطة ضرورى للخير . ولكنها لم تحل قط هذه المسألة وهى أن تركز السلطة لفعل الخير ، قد يؤدى إلى استعمالها للضرر ؛ لاسيما إذا أزيلت جميع المصاعب فى استعمالها . ومما يؤخذ على الاشتراكية السوفييتية بنوع خاص أنها وليدة العنف ، والعنف يولد أحقادا واعتداءات ، تؤدى إلى قلب الأحقاد العادية فى الهيئة الاجتماعية ، إلى ان تتخذ أشكالا مشوهة قبيحة . ومن الصعب ترك عادة العنف لاسيما إذا ظهر نجاحها فى الماضى . فالنخبة التى قامت بالثورة تعتقد دائماً ، اعتقاداً قائماً على التجربة ، أن التخلص من المعارضة أسهل لديها باطلاق النار منه بالمجادلة والاقناع .

ويرى الكاتب أنه لا الشيوعية بما فيها من استعداد ، ولا الرأسمالية بما فيها من عدم ثبات ، ولا الفاشية بما تقتبسه من الاثنتين ، تستطيع أن تجد حلا موفقاً لمشكلة المعيشة فى العالم الصناعى الحديث وفى الدولة الحديثة. فهل هنالك احتمال آخر ؟ وهل هنالك مستقبل لاشتراكية حرة غير شيوعية؟ وإذا بعدنا عن مجال السياسة الحاضر وتياراته ، فان الجواب الذى يبدو لنا هو أنه ما من سبب يحول دون وجود نظام اشتراكى ديمقراطى .

فاذا أريد للاشتراكية أن تحافظ على الديمقراطية فيجب أن تنشأ خطوة فخطوة ، بطريقة لا تقضى على العادات والقانون والثقة المتبادلة ؛ وهى التى تقوم عليها الحقوق الفردية . أى يكون التحول تدريجياً ويكون برلمانيا ، وتحترم فيه الحريات المدنية وما يفرضه القانون. ومثل هذه الاشتراكية بالطريقة التى ذكرت تبدو خيالية فى أعين أولئك المحبين للمواقف المسرحية من أشياع عقيدة لنين . ولكن روى أن ستالين نفسه قد أنبأ هارولد لاسكى حديثاً بأنه يظن أن ذلك مستطاع .

وكان أنصار فكرة الانقلاب الثورى فيما مضى ، يعارضون الفكرة التدريجية ، زاعمين أن الطبقات الحاكمة الرأسمالية تؤثر الالتجاء للعنف على

النزول عن المزايا التى تتمتع بها . ولكن الماركسيين فى هذه المسألة ، كما فعلوا فى مسائل أخرى ، قد غالوا فى الشجاعة السياسية للرأسماليين وفى إرادتهم . والواقع أن التجربة البريطانية تبعث ضوءاً على هذا الموضوع . فالرأسماليون فى تلك الدولة لم يحاولوا الاشتباك فى نضال من أجل حقوقهم . ثم إنه من المستطاع أن تتقدم الولايات المتحدة تدريجياً فى طريق الاشتراكية ، بوضع قوانين على المثال الذى سلكه الرئيس روزفلت . فالاشتراكية إذن يمكن أن تسير سيراً عملياً بتطبيقها تطبيقاً تدريجياً ؛ على أن يكون هذا التقدم التدريجى مما يحفظ النظام والقانون ، ومما يضمن حداً خاصا من الحرية ، فتوجد نظم حقيقية لتحقيق الديمقراطية . ولا يقوم بهذا العمل فى أثناء التحول رجال الطبقة العاملة ، وإنما يقوم به المحامون وأصحاب الأعمال وزعماء العمل والسياسيون ورجال الفكر .

ولكن المسألة ليست من البساطة كما تبدو فى ظاهرها . فهنالك عوامل كثيرة تعترض سبيل هذا التطور . ويمكن مناقشة هذه العوامل تحت ثلاث مسائل : أولها الرغبة فى القضاء على الرأسماليين ، وثانيها خيانة رجال الفكر ، وثالثها الروح المعارضة للثورة فى الاتحاد السوفييتى .

ويناقش الكاتب هذه المسائل الثلاث فيقول : إن الرأسماليين كانوا دائماً أكبر المنظمين للإنتاج ، وكانوا فى هذا العمل أكبر مستغلين للطبقات الفقيرة . ولكن ثقتهم فى أنفسهم وذكاؤهم وإقدامهم تتضاءل باصرار كلما بعدوا عن المصنع أو المصرف . فهم قد أنشأوا نخبة ميزتها المال ولا نخبة تتمتع بمزايا خاصة ؛ فهم ليسوا طبقة حاكمة نافعة فى مجال السياسة ، وهم رجال عمل فى مساوماتهم لا رجال حرب . وهم يبحثون عن السلامة قبل أن يبحثوا عن الشرف . وهم يفكرون بوصف أنهم طبقة لا أمة . ولما كانت قوتهم قائمة على استمرار تبادل قطع من الورق فانهم يخشون كل ما يغير من النظم الاقتصادية التى اصطلح عليها الجماعة . فهذه الطبقة تنقصها الغريزة والنشاط والشجاعة للحكم . ولعل ما حدث فى بريطانيا سنة ١٩٤٠ مما يتخذ مثالا لهذه الحالة . فان تشمبرلن كان يمثل عواطف رجال الأعمال من رغبة فى الهدوء وكراهية للعنف وخوف من الانقلاب الاجتماعى . ولكن غرائز تشرشل تمثل أرستقراطية إمبراطورية شجاعة نشيطة تحتقر التجارة بعض

الشئ ، قوتها لا تقوم على المال بل على الأرض والتقاليد والشعور بالوطنية .

فنرى إذن أن رجال المال محتاجون دائماً إلى حماية طبقات غير طبقتهم ؛ فهم على قول شمبتر « غير قادرين على أن يقودوا أمة فحسب ، بل هم غير قادرين أيضاً على الدفاع عن مصالح طبقتهم . و يمكن إجمال هذا بالقول إنهم يحتاجون إلى رئيس » . وفى انجلترا على الأقل رأينا طبقة المال تسلم أمورها إلى حكومة أرستقراطية كالحكومة السابقة ، أو حكومة عمال كالحكومة الحاضرة مما يدل على أن هذه الطبقة عاجزة عن القيام بالحكم .

وفيما يتعلق برجال الفكر فان هؤلاء ينادون دائماً بالحرية ، ولكنهم لايعملون شيئاً . فهم فى الواقع يجرون وراء أحلام غير محققة ، وهم بذلك يفقدون وضوحهم ومنطقهم واصرارهم على وقائع الأمور . وقد أخذ رجال الفكر يزيدون انغماساً فيما يثبت أساطيرهم وبذلك لم يجعلوا من طبقتهم من يتولى الزعامة .

فاذا قلنا إن عدم رغبة الرأسماليين فى الحياة وخيانة رجال الفكر ، مما يقف عقبة فى طريق الانتقال إلى الاشتراكية انتقالا هادئاً ، فان هنالك عقبة حقيقية يبدو فيها العزم والاصرار والذكاء ، وهى الدور الذى يقوم به الاتحاد السوفييتى . فهذا الاتحاد يرى بوضوح أن الرجعيين ليسوا هم ألد أعداء الشيوعية ، لأن طيش هؤلاء هو الذى سيؤدى إلى انحلال جماعتهم . ولكن العدو الحقيقى هو الديمقراطى الأصيل الذى يعمل لحل مشاكل العطلة بين العمال ومشاكل الفقر ، دون أن يستعبد الطبقات الفقيرة ودون أن يقيم حكومة يجعل منها شرطة على الناس .

فكانت موسكو تعرف أن بريطانيا لا تنافسها فى النضال من أجل أوربا مادام تشرشل متولياً زمام السلطة . ولكن انتصار حزب العمال فى سنة ١٩٤٥ مما بعث الأمل فى جميع شعوب أوربا الذين كانوا لايزالون أحراراً فى التعبير السياسى . فكأن فى هذا الحكم القائم فى انجلترا وسيلة للحصول على المزايا الاقتصادية التى توجد فى روسيا ، مع مزية الحرية السياسية . ولذلك أخذت روسيا توجه هجوماً كبيراً على الأحزاب الاشتراكية ، ووضعت سياسة من شأنها الضرب على النقط الضعيفة الاستراتيجية والمالية للامبراطورية البريطانية الآخذة فى الانهيار .

فما هى أغراض الحملة السوفييتية على الغرب ؟ لقد صدق شمبتر حين

قال : « إن الصعوبة فى روسيا ليست ناشئة من أنها اشتراكية بل من أنها روسيا . » فلو أن روسيا كانت تحت حكم القياصرة وعملت على تقدم الصناعة كما هى الآن ، لكانت تعمل للاتساع كما تعمل روسيا السوفييتية . ولكنها تكون عاجزة عن مضاعفة قوتها الوطنية بالسلاح السياسى الهائل وهو الشيوعية .

هذا هو الفارق . فروسيا القيصرية كان يمكن معالجتها كألمانيا الامبراطورية ، إذ تكون أغراضها محدودة بمقاومة الأمم الأخرى. ولكن النازية أمدت ألمانيا بسلاح مثالى قوى . والشيوعية أقوى كثيراً من النازية ؛ إذ أن فكرتها قابلة للتصدير . فباعتبار أنها عقيدة اجتماعية، يمكن أن تنفذ إلى أبعد ركن من أركان العالم ، وتجد أنصاراً حيثما وجد الظلم وانتشرت الفاقة .

فالأغراض الوطنية لروسيا محدودة ؛ ولكن الأغراض الدولية للشيوعية غير محدودة .

فما هو واجب الولايات المتحدة الآن أمام هذا الخطر ؟ إن أمامها مثالا لما يجب ألا يتبع ، فى سياسة بريطانيا التى سار عليها تشمبرلن عندما رأى تهديد ألمانيا لبلاده ، وهى حملة الاسترضاء . فالولايات المتحدة اليوم فى مثل ذلك الموقف تماماً ؛ على أن فى موقعها الجغرافى ما يسوغ أن تكون أكثر احتمالا لروسيا من بريطانيا بالقياس إلى ألمانيا فى ذلك الزمن . فالمشكلة التى يجب أن تعمل الولايات المتحدة لحلها هى أن تنظم توازن القوى فى العالم بحيث إذا عرضت قيادة السوفييت العامة فى أية لحظة مسألة الحرب على بساط البحث ، اضطرت إلى أن تقرر عدم الالتجاء إليها ؛ لأن الحرب العامة فيها مغامرة حربية كبرى لبلادها . وفى الوقت ذاته يجب ألا تتأثر الولايات المتحدة برغبة البعض فى القيام بحرب على السوفييت ؛ وألا تسمح للرجعيين فى الدول القائمة بين هاتين الدولتين الهامتين الكبيرتين باذكاء نار الحرب دفاعاً عن امتيازاتهم ؛ ولتذكر أن الفاشية قد اختفت ولكنها لم تمت نهائيا .

ويجب على الولايات المتحدة أن تمسك الميزان بين الاستعداد الكامل لدفع أى هجوم سوفييتى بعد حد خاص ، وبين العزم الكامل بألا تسمح داخل هذا الحد برغبات عدائية نحو السوفييت . وسترى أنه إذا ترك الوقت للاتحاد السوفييتى ، فلابد أن تهدأ حدته .

معهـــد دولى للمسرح

نشرت مجلة المسرح والفنـــون الأمريكية فى عدد يوليه ما يأتى :

اجتمع بباريس فى الأسبوع الأخير من شهر يوليه ، خبراء المسرح من جميع الأمم ، للنظر فى إنشاء معهـــد دولى للمسرح . وهذه الخطوة الموفقة الهامة فى عالم المسرح ، قد تمت بنـــاء على مقترحات التعاون الثقافى الدولى لهيئة الأمم المتحدة فى الصيف الماضى ، حين بذل المندوبون الانجليز والكنديون مجهوداً أدى إلى اعتبار المسرح جزءاً من برنامج الفنون والآداب وصار على قدم المساواة بالموسيقى والآداب والفنون الجميلة . ولما كانت بعض الأمم لم توقع على ميثاق التعاون الثقافى لهيئة الأمم المتحدة ، فقد تقرر أن خير الوسائل هو إنشاء معهد دولى للمسرح ، تشرف بوساطته هيئة دولية حقا على المسرح . ويبدأ هذا المعهد نشاطه بعد انتهـــاء اجتماعات باريس ، وسيكون برياسة اثنين هما مستر بريستلى ومسيو لوى جوفيه .

ولقد مثل المسرح الأمريكى رسميا بمندوبين وبعض الملاحظين ، كما فعلت الدول الأخرى . وكان المندوبان اللذان دعاهما مستر جوليان هاكسلى ومستر بريستلى ومسيو جوفيه ، هما ليليان هلمان التى مثلت رواياتها فى جميع أنحاء العالم مما جعلتها شخصية دولية هامة ، وروزموند جلدر وهى المندوبة التى عينها المسرح الوطنى الأمريكى والأكاديمية الأمريكية ، وهى تعمل سكرتيرة للأكاديمية ورئيسة لتحرير مجلة المسرح ، وهى المجلة التى ظلت تخدم فكرة المسرح الدولى فى الثلاثين سنة الأخيرة . وقد عهد إلى المندوبين أن يعملا لتأليف جمعية عالمية بين رجال المسرح من فنانين وصناع ، تكون قادرة على وضع برنامج إنشائى ثابت يؤدى إلى زيادة التفاهم العالمى .

ظهر حديثا

أبى شوقى للأستاذ حسين شوقى (مكتبة النهضة)

هذا الكتاب على صغره من أظرف الكتب التى ظهرت فى الأشهر الأخيرة ؛ فهو كتاب وضعه الأديب الأستاذ حسين شوقى الذى عرفه القراء فى قصصه الصغيرة التى تنشر بين حين وآخر فى أمهات المجلات الأدبية ، وبقصته الطريفة «يوميات فتاة عصرية» التى نشرتها له دار المعارف . ومن هذه القصص تعلم طريقته وأسلوبه فى عرض موضوعه ، أما المترجم له فهو والده المرحوم أحمد بك شوقى شاعر العرب فى القرن العشرين . فالكتاب بموضوعه وأسلوبه جدير بأن يجد مكاناً هاما فى عالم الأدب العربى ، لا سيما أن الابن لم يقصد من هذه الذكريات أن يشيد بمكانة أبيه ؛ فان هذه المكانة من الأدب الحديث معروفة ، وهى تكبر على مر الزمن .

لقد تبوأ شوقى مكان الصدارة فى الشعر العربى فى حياته ، وكان يظن الناس وقتئذ أنه أكبر الشعراء الأحياء، ولكنهم كانوا يظنون أن الشعر العربى لا يلبث حتى يجد منافساً لشوقى ؛ وأنه إذا كان أكبر رجال جيله فانه مع تطور الزمن والأذواق لا بد أن يظهر شعراء يتخذون طرقاً وأساليب جديدة فى الشعر ، بحيث لا يلبث هذا الشاعر الكبير أن يصير جزءاً من تاريخ الشعر .

ولكن ظهر الآن وبعد مرور خمسة عشر عاماً على وفاته أن شوقى من أولئك الشعراء الذين إذا ظهر منهم فى تاريخ أمتهم على طول هذا التاريخ واحد أو اثنان ، فهى أمة غنية بالشعر ، يجب أن تكون موضع الغبطة من الأمم الأخرى .

فلقد ووري شوقى الثرى منذ خمسة عشر عاماً ، فلم يملأ فراغه أحد ولم يدانيه أحد . وليس ذلك فحسب بل إنك إذا وجدت فى العالم العربى اليوم شعراً ، فان شوقى مصدره ومنبعه ، و إذا وجدت شعر العالم العربى قد اتخذ طرائق جديدة فان شوقى مصدر ذلك ومنبعه .

وبعد هذا الكلام قد تنتظر أن تجد فى هذا الكتاب الصغير ملحمة تتغنى بفضائل ذلك الأب على الشعر

العربى ، أو تجد فيه تمثالا حجريا مقاماً على قاعدة ضخمة لاظهار مجد هـذا الأب ، ولكنك لن تجد شيئاً من ذلك ، فمحال أن تجد فى ابن لشوقى من قلة الذوق الفنى ما يدفعه إلى أن يكتب كتاباً للاشادة بمجد أبيه . وأبناء هذا الشاعر لا بد أنهم يعلمون تمام العلم أن شوقى فى مجده ليس ملكاً لهم ، بل هو ملك للملايين من أبناء العرب الذين قرءوا وسيقرءون دواوينه والذين قرءوا وسيقرءون مسرحياته المنظومة على مر السنين وتعاقب الأجيال ، وإنما الرجل الذى كانوا يملكونه هو ذلك الأب العطوف الذى لم يكن ليستطيع أن يتجرد من روح الشعر ، والبعد عن واقع الأمور فى معاملته لهم وعطفه عليهم .

وهذه هى الصورة التى أراد الأستاذ حسين شوقى ، بذكرياته ، وبقصص داره ومعيشته ، ونفيه إلى الأندلس وعودته ، ثم سنوات حياته الأخيرة ومماته ، أن يهديها لنا . ولم يهدها سلسلة من التاريخ ولكن أهداها سلسلة من القصص كتبها فى أسلوبه الخاص الطريف الذى يجعل له بين كتاب القصة الحديثة صفة خاصة ؛ فهو أسلوب لا تجد جماله فى عبارات فخمة ضخمة ، ولا تجد جماله فى مجرد البساطة العارية ، وإنما تجد هذا الجمال فى إيجازه وفى نوع من التكسر فيه يدنيه كثيراً من أساليب كبار الكاتبات لا الكتاب . وهو أسلوب تجده ملائماً كل الملاءمة للموضوعات التى يختارها الأستاذ حسين شوقى ؛ فهو ملائم لتلك القصة التى كتبها على لسان فتاة عصرية ، وهو ملائم لهذه الذكريات عن أبيه التى روى فيها قصصاً لا تدل على المجد والعظمة ، وعلى ما كان فيه شوقى من أبهة العيش ، وإنما تدل على عطف الأب الشديد المتعلق بأبنائه ، والشاعر المرهف الحس الذى يزن الأمور بميزان الخيال أكثر مما يزنها بميزان العدل والواقع ، والسيد المترف الذى لا يهتم للمال بل يهتم لأن يكون كل ما حوله جميلا وسعيداً .

مصر والسيادة على السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى (دار الفكر العربى)

لعل مؤلف هذا الكتاب القيم بموضوعه لم يكن موفقاً فى اختيار اسمه إذا نظرنا إليه من الوجهة السياسية البحتة ؛ فان كلمة « السيادة » كريهة لدى المصريين وأبناء السودان سواء . وشعوب الأرض قاطبة لم تعد لتحتمل

أى نوع من سيادة أجنبية أو غير أجنبية عليها ، وإذا كان العالم الحديث قد أنشأ تلك الهيئات الدولية جاداً فى إنشائها ويريد لها حتما النجاح ، فيجب أن تمحى تلك الكلمة نهائياً من العرف القائم من الدول ، كما يجب أن يبعد حق الفتح من القانون الدولى ، فلا يعد سبباً بعد ذلك لترتيب حقوق لدولة على دولة .

ولعل الدول الاستعمارية الكبرى قد شعرت تماماً بهذه الكراهية الكمينة فى صدور بعض الأمم ، والظاهرة فى صيحات الأمم التى أخذت تتحرر ؛ لذلك بدأت تبحث عن وضع آخر . ونرجو مخلصين أن تنتبه الأمم الصغيرة إلى هذا الوضع فلا تقبله ولا تقره ، كما نرجو أن تنتبه الهيئات الدولية التى فرض أنها أنشئت لحماية دول من مطامع دول أخرى فلا تقره ، وهذا الوضع هو الذى أسموه المشاركة .

قد تكون هذه المشاركة فى الكل أو فى جزء من الحقوق التى هى من حق الدولة المستقلة — وهى تتم بمعاهدات قد تكون برضا الطرفين فى الظاهر ، ولكنها فى الباطن تخفى نوعاً مقنّعاً من تلك السيادة الكريهة التى عرفتها الأمم فى القرن التاسع عشر .

لم يكن هذا المؤلف إذن موفقاً فى اختيار عنوانه إذا نظرنا إليه من الوجهة السياسية ، ولكن النظر إليه من هذه الوجهة بعيد كل البعد عما قصد إليه المؤلف . والحقيقة أن المؤلف قصد إلى ما قاله فى صراحة فى أول كتابه من أنه يقصد « الوقوف على حقيقة ناحية واحدة من تلك العلاقات فى فترة معينة » . فهو يرغب فى أن يطلعنا على تاريخ العلاقة منذ « الفتح المصرى لبلاد السودان فى أوائل القرن التاسع عشر إلى أن عقد الوفاق الثنائى المشهور بين مصر وبريطانيا فى آخر القرن نفسه » .

فالكتاب إذن مجرد بحث تاريخى لفترة معينة من باحث تاريخى لا علاقة له بالسياسة . وهو فى هذا المجال إنما يبحث موضوعاً تخصص له واشتهر بالبحث فيه . فقد اهتم الدكتور محمد فؤاد شكرى منذ زمن طويل بدراسة السودان ، واطلع على وثائق كثيرة منشورة وغير منشورة ، وقطع سنين طوالا فى التوفر على هذا البحث حتى صار عمدة فى تاريخ السودان والرجل الذى يمكن أن يرجع إليه فى هذا الباب .

وسيجد القارئ فى هذا الكتاب القيم الذى هو خير ما ألف فى الشهور الأخيرة فى التاريخ علماً غزيراً عن هذه الفترة من التاريخ ، ولذة ومتعة فى قراءة هذا الكتاب .

ميزانية الدولة العراقية للأستاذ أحمد عبد الباقى (مكتبة المثنى ببغداد)

هذا الكتاب بحث قيم بموضوعه ومادته . أما الموضوع فهو اقتصادى مالى لأنه يتعلق بميزانية الدولة العراقية وتحضيرها وتحليلها ، ومثل هذه البحوث فى عالم الكتاب العربى قليل . فبينما تجد المطابع العربية تخرج الآلاف من الكتب الأدبية ، إذا بك لا تجد أمام هذه الآلاف التى تصدر فى كل سنة غير عشرات من الكتب التى تبحث فى أمور اجتماعية ، والتى تبحث من هذه العشرة فى الأمور المالية والاقتصادية أقل من القليل . ذلك لأننا فى هذا الشرق لم نعتد المباحث المتعبة المضنية ، ونعدل عنها إلى مباحث الأدب التى يستطيع كل إنسان أن يضرب فيها بسهم ، أصاب أو أخطأ ، فلا يحاسبه أحد . أما المسائل الاقتصادية فانها تحتاج للاقدام عليها إلى دراسة طويلة جافة ، ثم إلى بحث وبحث مستمر ، ثم إلى تأليف دقيق ، يرجع فيه المؤلف فى كل سطر إلى مرجع ، ليتحقق من أنه لم يأت بزلة ؛ لأن الزلل فى هذا الموضوع غير مستساغ ولا مغفور.

لذلك كان اهتمامنا بهذا الكتاب كبيرا وسرورنا له عظيما ، لا سيما أنه عالج مسألة غامضة لدينا نحن أبناء هذا القطر المصرى العربى. فليس من السهل أن نجد مؤلفاً موطأ نستقى منه المعلومات الصحيحة عن الميزانية العراقية ، وبذلك نقف على حياة ذلك القطر الشقيق الاقتصادية من أيسر سبيل .

والأستاذ الذى ألف هذا الكتاب عليم بموضوعه ، لا لأننا نعرف علمه من قبل ، بل لأننا استطعنا أن نتبين فضله من خلال المادة الغزيرة التى أبداها فى بحثه . ومثل هذا الكتاب لا يفيد المطلع المثقف فحسب ، بل هو مفيد كذلك للباحث فى حالة العراق الاجتماعية وفى تاريخها الحديث . وفى اعتقادنا أنه من أهم المراجع التى يمكن الرجوع إليها فى هذا الباب .

وإنا لنرجو أن يزيد عدد الكاتبين والباحثين فى هذه الموضوعات الصعبة على غير المختصين ؛ فان الاقتصاد هو الآن عصب الحياة فى الأمم الناهضة .

فن الحياة تأليف أندريه موروا وترجمة عبد المجيد أبو النجا

من ذا الذى لا يعرف أندريه موروا ! لقد أصبح اسمه معروفاً بما نقل له من كتب إلى اللغة العربية أكثر مما نقل لغيره من الكتاب الفرنسيين الذين قد يفوقونه فى حسن الأسلوب أو فى عمق التفكير . ولكن لأندريه موروا مزية لا يكاد كاتب من الكتاب المعاصرين يجاريه فيها . فهو على بساطة أسلوبه رجل أخاذ ، يعرف كيف يستولى على فؤاد القارئ ، وكيف يعرض موضوعاته . ولقد صار أكبر كاتب فرنسى يعرف كيف يترجم للشخصيات ، عظيمة كانت أو غير عظيمة . وتلك موهبة خاصة ليس أساسها المقدرة القصصية ولا الاطلاع التاريخى ، وإنما هو مزاج من بين هذين الأمرين ، يضاف إليه اهتمام بالشخصية التى يصورها بعد الاطلاع على كل آثارها ، واتصال روحى بها على بعد الزمن ، بحيث تبدو له كأنها تسير فى مسرح الحياة .

غير أنه فى هذا الكتاب يتخذ وجهة أخرى هى وجهة الترجمة لنفسه . فهل نجح فى هذه الترجمة ؟ إنه يترجم لنفسه بأن يزعم أنه يعلمنا فن الحياة ، فهو يبدأ بفن التفكير ثم فن الحب ثم فن العمل ثم فن الرياسة ثم فن الشيخوخة ، أى إنه يضرب على أوتار آلة حياة كاملة من وترها الصغير إلى وترها الغليظ حين تأخذ الحياة فى الأفول . وهو يزعم أنه رجل جرب الحياة . والحق أنه جرب الحياة فعلا ؛ فلقد عرف أثناء الحرب العالمية الأخيرة الهجرة والبعد عن الوطن والمعيشة فى أرض غريبة ، وكان لا يدرى أيعود يوماً ما إلى بلاده أم يقضى ما بقى من الحياة فى تلك الأرض . وموروا ، كما نرى من تراجمه ، رجل مرهف الشعور. وهو فى هذا الكتاب الذى ارتدى فيه ثوب الحكمة لا يزال نراه الرجل المرهف الحس الأديب أكثر مما نراه واعظاً . وقد لا نقتبس كثيراً ولا نستفيد كثيراً من هذا الكتاب . ولكن مما لا ريب فيه أننا سنجد فيه متعة وسنقضى فى قراءته ساعات لذيذة .

فلقد أسدى إذن الأستاذ عبدالمجيد أبو النجا يداً بنقله هذا الكتاب إلى اللغة العربية .

حسن محمود

فى مجلات الشرق

من سوريا

الحديث عدد ٧ و٨ (يوليو ـ أغسطس)

فى السياسة — فى هذا العدد من مجلة « الحديث » التى تظهر فى حلب مقال للأستاذ محمد زين حسن عنوانه «حركات التحرير فى أندونيسيا». وهذا المقال كتب بمناسبة الحرب الدائرة بين هولندة وأندونيسيا . ابتدأ الكاتب بعرض تاريخى لحركة التحرير التى قام بها الأندونيسيون منذ أوائل القرن التاسع عشر حين أعلن الهولنديون سيادتهم على البلاد ، ذاكراً أسماء الأبطال الذى خلدهم هذا الصراع العنيف الذى دام أكثر من مائة سنة . ولم يتعرض الكاتب لدراسة المعارك التى نشبت بين كل من الطرفين فحسب بل درس أيضاً الصراع السياسى الذى قام بين شعبى أندونيسيا وهولندا ، فذكر الأحزاب التى تكونت وما أصاب كلا منها من انتصار فى الميدان السياسى ، وكيف قابل المحتلون هذا الكفاح بالقسوة البالغة والعنف . ثم يذكر ترجمة قصيرة للزعيمين الأندونيسيين الدكتور أحمد سوكارنو ومحمد حتى وما كان لهما من جهاد فى سبيل استقلال وطنهما . وأخيراً يتكلم عن أندونيسيا أثناء الاحتلال اليابانى ثم عن إعلان استقلال البلاد حين استسلمت اليابان . ولكنه لم يذكر شيئاً عن النزاع الأخير الذى نشأ بين الشعبين ولا عن احتكامهما إلى مجلس الأمن ، بل ينهى مقاله بكلمات مليئة بالتفاؤل لم تحققها الروح الاستعمارية السائدة عند الشعب الهولندى .

فى الأدب — وليس فى المجلة دراسة أدبية بالمعنى الصحيح ، ولكن ثمة قصة تمت إلى الأدب بأكثر من سبب وهى «الأميرة جميلة الحمدانية» بقلم الأستاذ سعيد الدبوجى، كما يوجد أيضاً ملخص لقصص غربية نذكر منها « الرجل الذى قتل ظلا » للكاتب الأمريكى الأسود ريتشارد رايت ، و « امرأة كتبت التاريخ بقلبها »

للكاتب الانجليزي رالف أوبنهايم . ولا أريد أن أختم هذا العرض دون أن أذكر ترجمة الدكتور بشر فارس لقصيدة « ينبوع دم » من بودلير التي نشرتها المجلة في هذا العدد .

من لبنان

الأديب عدد ٩ (سبتمبر ١٩٤٧)

في الأدب — اقرأ في هذا العدد من مجلة « الأديب » مقالا بقلم عدنان الذهبي ، وهو في الحقيقة مقدمة لمسرحية ألفها كاتب المقال وأسماها « نشيد الأنشاد » . وعنوان المقال يجذب من القراء من يميل إلى دراسة المذاهب المختلفة في الأدب والفن وهو « في تعريف الرمزية » . ولن أتعرض في تلخيصي إلا للجزء الأول من المقال ، وهو الذي يبحث فيه الكاتب عن معنى الرمزية في حدود الميدان البلاغي فحسب .

يقول الكاتب إن الرمز هو : « شيء محسوس معتبر كاشارة إلى شيء معنوي لا يقع تحت الحواس . وهذا الاعتبار قائم على وجود مشابهة بين الشيئين قد أحست بها مخيلة الرامز » . وبعد أن ذكر لنا أمثالا عن الرمز أخذ يحاول أن يسوغ استعمال الرمز في الأدب ، فيقول : إننا مضطرون إلى الرمز لأن هناك عوائق سيكولوجية وأخلاقية واجتماعية تعوقنا عن التعبير المباشر ، ولأنه لا بد لنا في الفن من التأثير في الآخرين . وهذا التأثير لا يأتي إلا عن طريق إثارة المخيلة بالصور والتشبيهات .

ثم ينتقل الكاتب إلى نوع خاص من الرمزية ، وهو رمزية النعوت الحسية وأصول استعمالها . وهو في هذا الجزء يكتفي بالرجوع إلى آراء جورج دوما عن الرمزية . ثم يتكلم عن الشعور بالرمز أي كيف يشعر الرامزون برموزهم قبل أن يعبروا عنها ، ويدرس الكاتب هذه النقطة ويوفيها حقها حتى يصل إلى الأسلوب الرمزي . وهو لهذا يدرس أعماق نفوس الشعراء الرمزيين ليتبين فيها الحالة التي تجعلهم لا ينطقون إلا رامزين . وهو في بحثه هذا لا يرمي إلا إلى أن يتبين كيف ينشأ الأسلوب الرمزي مجرداً من كل أدب

ومن كل عصر؛ لأنه يقصد البحث عن الرمزية فى الميدان البلاغى فحسب. ثم يحلل الأسلوب الرمزى فيقول إن الشاعر الرمزى يرى أن كل شئ فى الطبيعة رمز، وهو حين يريد أن يعبر عما يرى يلجأ إلى أسلوب خاص له أدواته البلاغية الخاصة «وهى كل هذه التشبيهات والاستعارات والرموز المتلاحقة» فى البيت الواحد أو فى القصيدة كلها. ويضيف: «على الشاعر أيضاً أن يوفر لأسلوبه هذا قيما موسيقية تساعده على تلقين ما يريد تلقينه». وهذه الوسيلة الموسيقية إنما تساعد القارئ، على أن يتلقن بالموسيقى والرموز معاً ما خلف الرموز. وبعد أن عرض الكاتب الأساليب الرمزية المختلفة يدرس فى إيجاز المسرحية الرمزية فيقول: «إنها أسلوب أدبى يرمى بأدواته التعبيرية الخاصة إلى تصوير حالات معنوية — عاطفية كانت أو فكرية — فيها من القوة ما يجعلها تعيش على شكل أشخاص يحسون ويتكلمون.» وهكذا يختم الكاتب بحثه عن معنى الرمزية وينتقل بالحديث إلى مسرحيته.

فى الفلسفة — وفى العدد نفسه بحوث أخرى قيمة تتناول النواحى المختلفة للنشاط الفكرى، نذكر منها هذا البحث الموجز «القيم الأخلاقية بين سقراط ونيتشه» بقلم أنطون حمصى. والمقال ما هو إلا «محاولة فى فهم نقاط التلاقى والتضاد فى الفلسفتين». ويقسم الكاتب بحثه إلى أجزاء كل منها له عنوانه، فيعين بذلك القارئ على استيعاب آرائه. يحدثنا أولا عن الأخلاقية السقراطية، ثم يدرس نظرة سقراط للفن وهى نظرة عدائية على حد قول الكاتب. ويتبع فى دراسة نيتشه المنهج الذى اتبعه فى دراسة سقراط، فيدرس الأخلاقية عند نيتشه ثم نظرته إلى الفن. وأخيراً لا يجد إلا نقطة تلاق فى الفلسفتين وهى مهاجمة حكم الشعب واحتقار الطبقة الشعبية. أما نقط الخلاف فهى عديدة، منها تحبيذ نيتشه للأوتوقراطية وإيمانه بالفرد الممتاز، فى حين أن سقراط يهاجم الحكم الأرستوقراطى. أما موضع الخلاف الأساسى فهو أن سقراط كان متفائلا يؤمن أن اللذة هى الخير المطلق، على حين كان نيتشه يؤمن بالقوة وإرادة القوة وبأن الحياة تقوم على الألم.

صوت المرأة عدد ٨ و٩ (أغسطس ١٩٤٧)

إلى جانب المقالات الخاصة بالمرأة يمكنك أن تقرأ فى هذا العدد مقالات عدة بقلم سيدات وآنسات لبنانيات تدل على أن النهضة النسوية فى لبنان أصبحت ذات شأن . ومن هذه المقالات أذكر بحثين للآنسة ماغى زعيتر الأشقر ، أحدهما عن « شوبان » والآخر عن « فاجنر » وهما بحثان جديران بالقراءة والاهتمام وخاصة لمن لم يتسع له الوقت من قراء العربية ليطلع على حياة الفنانين الغربيين ومعرفة مميزات فنيهما .

فى الاجتماع — وأذكر أيضاً كلمة للسيدة إميلى فارس ابراهيم عنوانها : « معزوفة بالية » وهى معزوفة مكان المرأة فى المجتمع والحد من نشاطها فى الحياة العامة . وهى تعجب أن ثمة أناساً لايفتأون يرددون هذه المعزوفة فى حين أن العالم بأسره قد أباح للمرأة أن تدخل ميدان السياسة والأدب والفن وجعل لها مكاناً ذا شأن فى المجتمع . ثم تطلب الكاتبة من الكتاب والمفكرين إيجاد حل للتوفيق بين « مهام المرأة البيتية ، ومهامها الاجتماعية باعتبارها عنصراً فعالا فى جهاز الأمة » . وهى تطالب أن يعترف للمرأة بحقوقها السياسية ، وأن يعم التعليم فى لبنان ويصبح إجباريا حتى لا تتهم المرأة بالجهل وتقصى عن الحياة العامة .

من العراق

الجزيرة عدد ١٦ (أغسطس ١٩٤٧)

فى الأدب — والعدد السادس عشر من مجلة « الجزيرة » خاص بالقصة . ويصدر المحرر هذا العدد بكلمة جاء فيها : « فن القصص ، ذلك النوع الظريف فى أدب العرب لما تكتمل نواحيه اكتمالا يؤهله لبلوغ القمة بين بقية فنون الأدب ؛ ولكنه آخذ بسبب قوى من حيوية الاقتباس ومتطلع برغبة محققة إلى بلوغ الغاية . » وقد يكون المحرر على حق فيما قاله عن القصة فى الأدب العربى . ولكن هل هو على حق أيضاً إذ يحبذ الاقتباس ؟

ويبتدئ هذا العدد بمقال عنوانه « القصة فى الأدب العربى » بقلم الأستاذ غانم الدباغ يقول فى مستهله: إن القصة قديمة قدم الانسان ، وإن أول صورة أنتجها الابداع الفكرى كانت فى شكل قصة خالدة ، وهى حياة آدم وحواء ، وقصة الطوفان الخ ، ثم يستعرض القصة فى الأدب العربى فى مختلف العصور فيقول إن القصة كانت موجودة فى الجاهلية ولكن على شكل خاص . فما قصائد عنترة وامرئ القيس إلا قصص ، وإن القصة وجدت بعد ذلك فى القرآن الكريم مجالا أوسع واتجهت إلى نوع من التوجيه الخلقى والتهذيب الدينى . وما أشرف العصر الأموى على الانتهاء حتى أخذت القصة مجرى أقرب إلى الاستقلال ؛ ففى ذلك العهد اشتهرت قصص « مجنون ليلى » و « ليلى الأخيلية » و « قيس ولبنى » الخ . وجاء العصر العباسى مزدهراً بالترجمة ، فنقلت إلى العربية قصص مثل « كليلة ودمنة » . . . وألفت على نمطها قصص أخرى . وهكذا يتتبع كاتب المقال القصة فى جميع العصور دارساً الأنواع المختلفة للقصة العربية الخالصة حتى وصل إلى عصرنا هذا الذى تأثر فيه القصصيون بالتيارات الغربية فعالجوا القصة كما يعالجها الغربيون . وختم مقاله بذكر بعض أسماء مثل حافظ ابراهيم ومحمد حسين هيكل وطه حسين والعقاد وتيمور وتوفيق الحكيم .

ونلفت نظر القراء إلى استفتاء قامت به المجلة ترمى إلى استطلاع آراء بعض الأدباء . والاستفتاء مكون من سؤالين :

١ — ما رأيكم فى القصة العربية عامة والعراقية على الخصوص ؟

٢ — هل توجد قصة عراقية ؟ من هو القاص الأول ؟

ثم يلى المقالات تسع قصص منها مسرحية وقصة مترجمة . ونحن نحمد لمحرر « الجزيرة » هذا الاتجاه لما فيه من فائدة للقراء وتلوين فى أسلوب إصدار المجلات .

فى مجلات الغرب

من فرنسا

ريفى دى بارى *Revue de Paris* (عدد أغسطس ١٩٤٧)

فى المقال الافتتاحى من هذه المجلة تكلم مسيو بول رينو عن الحالة السياسية الدولية والحالة الداخلية فى فرنسا . ومن رأيه أن شهر يوليو أسفر عن جلاء الحالة ، وإن كانت الأزمة لا تزال مستحكمة . فلقد تولدت فى عالم السياسة الدولية كتلة الشرق بين الدول الأوربية ، كما وضحت كتلة الغرب . وكانت تشيكوسلوفاكيا تظن أنها تستطيع القيام بدور الاتصال بين الشرق والغرب ، فاذا بها تؤمر فتطيع ، واضطرت لأن تعلن انضمامها إلى مجموعة الدول الشرقية ، فيما يتعلق بمشروع مارشال ؛ وهكذا كان الانفصال كاملا . ويرى مسيو رينو أن حكومة السوفييت هى العاملة على هذا الانفصال . ويسائل لماذا وقفت هذا الموقف مما سمى مشروع مارشال؟ وهو فى رأيه ليس بمشروع ، لأنه دعا الأمم الأوربية إلى الاتفاق وأن يقدموا له مشروعاً . وهو يدافع عن فكرة الكتلة الغربية ويرى فى مساعيها فائدة لخدمة أوربا .

وهو يبحث عن موقف الحكومة الفرنسية فى الداخل ، وما يمكن أن تلقاه من معارضة الشيوعيين فيما يتعلق بمشروعاتها الاقتصادية . ويرى أن خلاص فرنسا يتم فى اليوم الذى يظهر فيه الفرنسيون ما لهم من صفات العمل والاجتهاد المثمر .

وفى هذا العدد مجموعة من رسائل طريفة لم تنشر من قبل ، كتبها بلزاك الكاتب الفرنسى الشهير للكونتيسة هانسكا البولونية ، وهى صديقته التى تزوج منها فيما بعد . وفى هذه الرسائل يشير إلى حالته المالية ، وكيف كان يعمل على تنظيم داره حتى تصير صالحة لسكنى تلك الحبيبة التى كان يود الاقتران بها .

وفى العدد قسم أول من قصة طويلة لأرمان هوج اسمها « الحادث » وهى تبدأ بمغامرة عجيبة وقعت لبطل

القصة ؛ ولا يمكن تبين نهايتها من هذا القسم بل يقرؤها القارئ في شوق وتطلع .

وفي العدد بحث شائق للباحث الاجتماعي مجويل كوفاروبياس عن الحب في جزيرة بالي من الجزر الأندونيسية ، وهو يهم جميع الذين يريدون أن يقفوا على أخلاق الشعوب وعاداتها .

وقد تابعت المجلة نشر مذكرات ليوناردو سيموني التي كتبها أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، وهو ملحق بسفارة إيطاليا في برلين . وهي تلقي ضوءاً على تطورات الأحوال في ألمانيا أثناء الحملة الروسية ، وما كان يشعر به الايطاليون من ذعر وعدم ثقة نحو حلفائهم .

وقد استعرض الكاتب رينيه بوى الحالة في تركيا وحياتها السياسية ، لا سيما في السنوات الأخيرة ، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية .

بارو *Paru* (عدد أغسطس ١٩٤٧)

في هذا العدد مقال للكاتب باترى عن الفن والحرية عند مسيو كايوا . وهو ينتقد اتجاه مسيو روجيه كايوا في الفن ، بمناسبة بحوث نشرها أخيراً ، ويريد فيها أن يكون الفن خاضعاً للهيئات الفنية في الدولة ، ويجب ألا يكون حراً مطلقاً يتبع خيال الفنان وأهواءه .

ويتكلم الكاتب أندريه بوران عن الأديب دلتي ،وهو يقتبس منه حديثاً عن نظرته وموقفه من الأدب. ولقد كتب الأديب باترى نقداً قيما لقصة البير كامو الأخيرة المسماة « الطاعون » .

وفي هذه المجلة التي تنقد الكتب الأخيرة عشرات من البحوث عن الكتب التي ظهرت أخيراً في الآداب والعلوم ، نذكر منها النقد الخاص بكتاب لستيفن زفايج الكاتب النمساوي نقل أخيراً إلى اللغة الفرنسية وهو عن موقف كستليون ومقاومته لكالفن. كما أن فيها بحثاً عن كتابين وضعا عن تاريخ الأمة الأمريكية : أحدهما لأندريه موروا، والآخر لجان كانو .

كاييه دى سيد *Cahiers du Sud* عدد ٢٨٣ (سنة ١٩٤٧)

هذه المجلة التى تصدر فى جنوب فرنسا ، ومركزها مرسيليا ، قد اشتهرت فى عالم الأدب الفرنسى . وفى هذا العدد نشرت طائفة من الشعر البرتغالى مترجمة بأقلام الأدباء الفرنسيين . وقد أتت بالأصل والترجمة متقابلين حتى يمكن الموازنة بينهما . ولا ريب فى أن الشعر ، أكثر من النثر ، يفقد كثيراً فى نقله من لغة إلى أخرى ؛ ووجود الأصل إلى جانب الترجمة مما يساعد الذين يعرفون قليلا من اللغة الأصلية ، فى أن يتذوقوا هذا الشعر دون أن يجدوا عقبة فى الرجوع إلى الترجمة .

وفى هذا العدد مقال هام عن الرجل المدنى لدى جان جاك روسو كتبه برنار جروت هويزن الكاتب الأوكرانى .

وكتب كريستيان بونس مقدمة لترجمته لهاملت، وفيها يزعم أن مترجمى هاملت ، أو مترجمى شكسبير بوجه عام ، لم يوفقوا لأنهم لم يخرجوا الجانب الحقيقى منه وهو جانب البراعة فى تصوير المأساة ؛ لأن المترجمين الفرنسيين إما يتخذون الأسلوب الكلاسيكى ، فى نقل بدائع هذا الشاعر الانجليزى العظيم إلى لغتهم ، وإما يتبعون الأسلوب الرومانتيكى ؛ وفى كلتا الحالتين لم يأتوا بروح الأصل . ونشرت المجلة فصلا من ترجمته لهاملت وهو يزعم فيها أنه أقرب إلى الأصل .

وكتب ليونيللو فيومى مقالا عن النساء الشاعرات فى الأدب الايطالى، وتكلم بنوع خاص عن الشاعرة أدانجرى التى توفيت فى السنة الماضية . ثم عن الشاعرة التى ظهرت حديثاً ، مدام فرناندا ريجاليافاسى ، التى نشرت أخيراً عدة مجموعات من أشعارها .

ومن المقالات الطريفة فى هذا العدد وصف لمحطة ليون بباريس، وهى المحطة التى يصل بها زائرو الجنوب إلى العاصمة الفرنسية .

لموند *Le Monde* (عدد أغسطس ١٩٤٧)

بحث الكاتب افينول احتمالات الموقف الدولى فى أوربا بعد مؤتمر موسكو .

وتكلم جنرال نيسل عن هنرى الرابع والوحدة الفرنسية .

وبحث جال ديكو فى المسألة الصينية وكيف أن الصين تبحث عن وحدتها، ولكن ما يؤسف له أن مجهوداتها تذهب هباء بسبب الحرب الأهلية . وهو يقول إن السواد الأعظم من أهل الصين يرغبون فى استتباب السلم ؛ وفى رأيه أن ذلك لا يكون إلا إذا تم الاتفاق بين واشنطون وموسكو؛ فتنافس هاتين الدولتين العظيمتين هو الذى يذكى نار الخلاف بين أهل الصين .

وقد نشرت السيدة هنرييت سيلارييه مذكراتها عن بودابست فى سنة ١٩٣٩ .

وفى العدد مقال قيم لبوتيكير فيه ذكريات عن ألفونس دوديه .

من انجلترا

العالم اليوم World Today (عددا يوليه وأغسطس ١٩٤٧)

استعرضت المجلة فى مقالها الافتتاحى حوادث العالم فى ذاك الشهر . فتكلمت عن الأزمة المجرية التى أدت إلى فرار رئيس الحكومة السابق مسيو ناجى ، ثم خضوع حكومة المجر لنفوذ اليساريين ، وبالأحرى للحكومة السوفييتية . واستعرضت المشكلة الاقتصادية الألمانية ، وما كان لاقتراح مارشال من تأثير فيها . وفى رأى المجلة أنه لا يمكن الحكم على الأمور الآن ، بل الواجب المسارعة إلى تخفيف المجاعة فى ألمانيا قبل أن ينتظر منها أى مجهود اقتصادى ، ولقد أثبتت الأحوال ذلك فى النصف الثانى من يونيه حين اضطرت المصانع فى جهة كولونيا إلى التوقف عن العمل لأن ثمانية عشر ألفاً من عمالها كانوا أضعف من أن يستمروا فى العمل بسبب جوعهم . كما استعرضت المجلة الحالة فى الهند وتقسيمها إلى دولتين وما ينتظر من موقف الامارات الهندية.

وفى هذا العدد بحث عن الحدود فى منطقة المحيط المتجمد الشمالى والدفاع عن هذه المنطقة ، وما تعمله الولايات المتحدة للدفاع عن تلك الجهات ، وما ترى فيها من أهمية حربية ، وإن كانت تلك الجهات لا تعد ذات شأن كبير ؛ إذ لا يخشى أن يكون الاحتكاك فيها بين الروس والأمريكيين مؤدياً للحرب .

وبحثت المجلة أيضاً موقف نقابات العمال فى فرنسا وعلاقتها باحياء البلاد . وهى ترى أنه بالرغم من الصعوبات الكثيرة التى تعترض فرنسا والاضراب والتهديد بها ، فان العمال الفرنسيين أبدوا بوجه عام تعقلا وشعوراً بالتبعات ، ورغبة شديدة فى النهوض ببلادهم . ولولا هذا الشعور لقامت فى فرنسا حركة إضراب شاملة، تشل حياتها الاقتصادية ، وهو ما لم يقع فى تلك البلاد .

وفى مقال آخر بحث عن التطورات السياسية فى النرويج وما ينتظر لتلك البلاد من تقدم .

وفيها بحثان هامان : أحدهما عن جزر المحيط الهادى التى وضعت فى عهدة أمريكا ، والآخر عن مشاكل السفن فى العالم .

واستعرضت المجلة فى عدد أغسطس سنة ١٩٤٧ فى أخبارها الشهرية موقف فرنسا من مشروع الجنرال مارشال ، بعد أن رفضت روسيا الاشتراك فى المؤتمر الخاص به ؛ فان فرنسا كانت حتى ذلك الوقت تحتفظ بالتوازن بين شرق أوربا وغربها ؛ وتعمل لأن تكون علاقاتها حسنة مع الطرفين ، ولكنها انحازت أخيراً انحيازاً ظاهراً إلى الكتلة الغربية . والشيوعيون الفرنسيون أنفسهم لم يظهروا معارضة فعالة لهذا المشروع .

وكان الموضوع الثانى لشهرية المجلة قانون الاستقلال الهندى وتقسيم الهند إلى دولتين ، والنص بصفة خاصة على أن هاتين الدولتين مستقلتان ، مما يشعر برفع السيطرة الخارجية عنهما .

وعرضت الشهرية أيضاً لمشروع معاهدة الصلح مع اليابان ، واهتمام أمريكا و بريطانيا بهذا الصلح .

وتكلمت المجلة عن مشروع مارشال وما ينتظر منه لأوربا ، وفيها أيضاً بحث عن أزمة الدولار فى أوربا وما ينتظر له من تطور .

وفى العدد مقال عن الصعوبات الاقتصادية التى تعانيها المجر فيما بعد الحرب . كما أن بها بحثاً طويلا عن الجزر الواقعة فى جنوب اليابان ، وهى جزر أوكنياوا ولوشو ، وما سيكون شكلها بعد الصلح مع اليابان ، وهل ستبقى فى يد الولايات المتحدة على اعتبار أنها موقع استراتيجى ، أو تضم إلى إحدى الدولتين اللتين كانتا تتنازعان السيادة عليها ، وهما الصين واليابان . كما تكلمت المجلة على أعمال إدارة التعمير والانشاء الدولية.

هوريزن Horizon (عددا يوليه وأغسطس ١٩٤٧)

يكاد هذا العدد يكون خاصا بالأدباء المعروفين من أسرة ستويل . ففيه بحث طويل كتبه كنيت كلارك عن تطور أسلوب الآنسة ايديث ستويل فى العهد الأخير ، وهو بحث قيم ،قارن فيه الكاتب بين أسلوبها السابق فى الشعر ، وأسلوبها الذى تطور فى الأيام الأخيرة . كما أن السير أوز برت ستويل نشر قسما من مذكراته ، يختص بعلاقته بأبيه تحت اسم «أب وابن» .

وفى العدد ثلاث قصائد لستيفن سبندر وداى لويس واديث ستويل . وفيه درس عميق لمارتن تيرنل عن الكاتب الفرنسى ستندال ؛ وهو أحد البحوث التى تنشر منذ زمن فى هذه المجلة تحت عنوان « القصاصون الذين يجمعون بين القصص والفلسفة » . ولم يتم هذا البحث فى هذا العدد ، وينتظر إتمامه فى العدد القادم .

ابتدأ عدد أغسطس سنة ١٩٤٧ من هذه المجلة بقطعة اكتشفت أخيراً لستندال الكاتب الفرنسى الشهير ، وفيها أحلامه وأمانيه .

وفى العدد بحث قيم للكاتب أرنولد توينبى عن روسيا وميراثها البيزنطى .

ووصف ادموند ولسون صيف سنة ١٩٤٥ وقد أمضاه بمدينة روما الخالدة .

وفى هذا العدد تكملة للمقال الهام الذى كتبه مارتن تيرنل عن ستندال ، وهى تتمة ما جاء فى العدد الماضى .

وتابع رينيه لايبوفتز بحثه عن التجديد والتقليد فى الموسيقى الحديثة ، وهو المقال الثالث الذى نشره فى هذا الموضوع من المجلة . والبحث فى المقال الحالى خاص بموسيقى ألبان بيرج .

ناشنال ريفيو National Review (عدد أغسطس ١٩٤٧)

فى حديث الشهر من هذه المجلة الانجليزية ذات النزعة المحافظة كلام عن رفض الروس مشروع مارشال . ومن الطبيعى أن تحمل هذه المجلة على الروس ، وتتكلم عن وجوب تنمية موارد الامبراطورية ، وأن ذلك خير من النظر إلى إعانة تأتى من أمريكا . وقد انتقدت فى هذا الحديث الشهرى

عدم دعوة أسبانيا إلى اجتماع الدول الأوربية . وعالج الكاتب مسائل جديدة داخلية في هذا المقال الشهرى، أراد أن يثبت في معالجتها أن حكومة العمال تسير بالبلاد الانجليزية من سيء إلى أسوأ .

وفي العدد مقال بعنوان تصدير الديمقراطية إلى ألمانيا . يقول كاتبه إن الحلفاء — وهو يعني البريطانيين والأمريكيين — مع اهتمامهم باطعام القسم الذي يحتلونه من ألمانيا ، لم يهملوا العناية بادخال الروح الديمقراطية في ألمانيا . ولذلك ساعدوا على إنشاء أحزاب سياسية ، وأعادوا بعض الكتب والموسيقى والأفلام التي كانت محرمة في عهد النازى . ومع ذلك فان الألمان لا يتنسمون نسيم الحرية ؛ لأن الأمريكان والانجليز يتدخلون في الحياة اليومية ، ويستعملون طرق الجستابو . ولذلك نجد الألمان يحذرون الاشتراك في الأحزاب السياسية . ويرى الألماني من واجبه أن يبتعد عن كل مظهر من مظاهر الاشتراك مع هذه الأحزاب .

وقد وازن أحد الكتاب بين التجنيد الاجبارى للجيش الانجليزى والتطوع ، وهو يرى أن انجلترا أقدمت على حربين عظيمتين وكانت عند بدء كل حرب غير مستعدة لها . وهو يرى أنه قد حان الوقت لأن تنتبه انجلترا لهذا الخطر .

وفي العدد بحوث أخرى عدة جديرة بالقراءة .

من أمريكا

ناشنال جيوجرافيك مجازين *National Geographic Magazine*

(عدد أغسطس ١٩٤٧)

تحتوى هذه المجلة التي تبلغ الغاية في الطباعة الأنيقة ، وفي الصور الجميلة الملونة وغير الملونة ، على وصف لأراضى نفاجو بأمريكا ، والنهر الذى يخترقها وهو المعروف باسم نهر الصحراء . وقد وصفت هذه الرحلة وصفاً شائقاً مصحوباً بصور عدة ملونة وغير ملونة ، وقد كتب هذا الوصف مستر ألفريد بيلى . كما أن في العدد مقالا عن المناطق الصخرية في جهات يوتا حيث تتخذ الصخور مناظر غريبة ، رسمت لها صور عدة بالألوان . وفيه أيضاً وصف لجهات

خليج بليموث بأمريكا والأرض المحيطة به ، وهى منطقة نزل فيها أول المهاجرين البريطانيين ، الذين فروا إلى تلك البلاد واستوطنوا الأرض الأمريكية .

وكتب مستر هارولد ادجرتون مقالا عن الطيور الأمريكية المعروفة باسم همنجبيردز . وفيه صور بديعة بالألوان أخذت للطائر فى طيرانه . كما أن فى العدد مقالا قيما عن مناظر فنلندا فيما بعد الحرب . ويصف الكاتب ما تعانيه بعض مناطق تلك البلاد من فاقة ، وما يبديه سكانها من شعور نحو أمريكا التى توالى إرسال الاعانات إليهم عن طريق الصليب الأحمر الأمريكى .

فنرى من مجموعة هذه المقالات أن العدد حافل وإن كان فى اتجاهه يهم الامريكيين أكثر مما يهم أبناء البلاد الأخرى .


مدرسة
الزوجات
يليها روبير و جنفييف
تأليف أندريه جيد
تعريب صبرى فهمى
فتاة فى نشوة الحب
ثم زوج فى يقظة العقل تتهم زوجها
دفاع الزوج عن نفسه
حكم الابنة على والديها
٣١٢ صفحة
الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)


رجل الأقدار
فى هذا الكتاب الفذ، لمؤلفه الفذ، يبدو نابليون عظيما فى رفعته، عظيما فى محنته، يثير الاهتمام اليوم، كما أثاره قبل اليوم، ويثيره بعد اليوم: شخصية ضخمة يتعدل فيها الرأى كل يوم.
فنابليون السائس، ونابليون القائد، ونابليون المفكر، قد كان إلى ذلك رباً من أرباب القلم، ومالكا قديراً لناصية الكلام.
فى هذا الكتاب يحدثنا نابليون عن نفسه، ويعيش فى حاضرنا كما عاش فى حاضره، ويعرض صور عصره حية متحركة.
نابليون الواسع العلم، المحدق بالعالم، المحيط بتاريخه، وهو ما يزال غض الإهاب، فى شرخ الشباب.
نابليون الذى وضع أذنه دائماً على قلب الجماهير شأن الطبيب الفاحص، لا المحب الواله، فعرف اتجاهها، وسيرها فى اتجاهه.
نابليون الذى تفوق فى أعماله الحربية بصفاته الذهنية، وكان سلاحه النظر، والحساب، والتصميم، والفصاحة، ومعرفة الناس.
نابليون الذى اعتز بلقب عضو المعهد أكثر مما اعتز بلقب الفاتح.
هل كان رجل جلاد، مبيداً للعباد، عاملا لشخصه، بانياً لمجده؟
اميل لودفيج
نابليون
دار الكاتب المصرى
ثمن الجزء ٤٥ والبريد ٣٦ مليمًا



سترى فى هذا الكتاب كيف جلا لودڤيج شخصيته ،
ومجَّد إنسانيته ، وقدم صورة منوعة بديعة لعبقريته .
ستقرأ قصة حقيقية لقاهر الثورة ، وماحى الفوضى ،
وزعيم التاريخ الحديث ، ورمز العبقرية العالمية ، وتلمس من
المؤلف تصويراً شعرياً ، ودقة تاريخية .
ستدرس رجل الأقدار مما كتب لودڤيج عنه ، وذكره
هو عن نفسه ، فى ترجمة مشرقة تبرز ملامح الأصل الألمانى ،
وعبارة رصينة توائم أسلوب المؤلف الألمعى ، بقلم مترجم
إيفيچينيا وإجمنت والصراط وأقاصيص أندرسن : لجوته ،
وسودرمان ، وهانس أندرسن .
نابليون
لإميل لودڤيج
ترجمه عن الألمانية
محمود ابراهيم الدسوقى
طبعة فاخرة مزينة بالصور فى جزءين



يحيى الخشاب
حكايات فارسيه
دار الكاتب المصرى
SCRIBE
حكايات فارسية
كتاب يحمل الى قراء العربية
عبيرا رقيقا حسن الموقع فى
النفس من هذه الحياة الفارسيه
الممتازة بما فيها من رقة
وفطنة وفكاهة
٢٠
البريد ١٦ مليما



هل توجد الروح؟
وكم تزن؟..
هل يمكن الاحتفاظ بها ؟
وهل يمكن أن تمتزج
بعد الموت روحان كانتا
مؤتلفتين أثناء الحياة؟
اندريه موروا
عضو المجمع اللغوى الفرنسى
وازن الأرواح
تعريب عبد الحليم محمود
٢٠
والبريد ٣٦
ستندال
دير پارم
دار الكاتب المصرى
ثمن الجزء ٣٠ قرشاً (بريد الجزأين ٤٠م)
هـ. ج. ولز
طعام الآلهة
وكيف جاء إلى الأرض
تعريب محمد بدران
دار الكاتب المصرى
٣٢٠ صفحة
الثمن ٣٠ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)



كتاب يعد فتحا جديدًا فى الأدب
أرض البشر
للكاتب الطيار انطوان دى سانت اكسوبرى
رائد من الرعيل الأول
للطيارين ينظر إلى الكون خلال
تجربته نظرة الشاعر الفيلسوف،
يصلنا بالآفاق الشاسعة
ويضعنا فى صميم الخطر
وفى صميم العمل
انطوان دى سانت اكسوبرى
أرض البشر
تعريب مصطفى كامل فوده
دار الكاتب المصرى
تعريب مصطفى كامل فوده
طبعة مزينة بالصور
٢٥ ص
والبريد ٢٠ مليمًا

المقامر

تاليف فيدور دستويفسكى

تعريب شكرى محمد عياد

قصة شاب ممتحن بداء القمار لقى من هذا الداء فى حياته شراً عظيما . وهى قصة عنيفة تستأثر بحاجة القارىء إلى الاستطلاع .

١٦٩ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

الحب الأول

تاليف إيڤان ترجنيف

تعريب محمود عبد المنعم مراد

قصة ساذجة تصور قلب شاب ناشىء يندفع إلى الحب فى غير احتياط ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه .

١٠٤ صفحة

الثمن ١٥ قرشاً (البريد ١٢ مليما)





آية فنية خالدة
للكاتب الشهير أوسكار وايلد
صورة دوريان جراى
صراع بين الإثم والضمير
صورة تهرم بينما صاحبها
محتفظ بشبابه
نقد للحياة الاجتماعية الإنجليزية
فى مزاج من الهزل والجد
٣٠ مـ
والبريد ٢٤ مليما
أوسكار وايلد
صورة دوريان جراى
تعريب لويس عوض
أوسكار وايلد
صورة دوريان جراى
دار الكاتب المصرى
أوسكار وايلد
شبح كانترفيل
تعريب لويس عوض
شبح كانترفيل
١٨ قرشا
والبريد ١٦ مليما
مظهر آخر لفن أوسكار وايلد
مغامرات شبح يجول فى أبهاء قصر عتيق
موازنة بين العقل الإنجليزى المحافظ والعقل الأمريكى المجدد.
قصة فكاهية مرحة



أغسطس ١٩٤٧
مجلد ٦ — عدد ٢٣
ڤولتير
زديج
حكاية
أو القضاء
ترجمة طه حسين
مجلة أدبية شهرية
رئيس التحرير : طه حسين
الكاتب المصري
الثمن بمصر : ١٠ قروش

تحت الطبع

سافونارولا

قصة الراهب الثائر والمصلح الديني والسياسي والاجتماعي
للدكتور حسن عثمان

الضحك

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون
تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم

غانية أطلنطا

قصة رائعة للكاتب الفرنسي بيير بنوا عضو المجمع اللغوي الفرنسي
تعريب رشدي كامل

عقدة الافاعي

قصه تحليلية لفرنسوا مورياك عضو المجمع اللغوي الفرنسي
تعريب نزيه الحكيم

قصة رجل مجهول

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف
تعريب محمود الشنيطي



مجلد ٦ — عدد ٣٤
سبتمبر ١٩٤٧
هيروشيما
الكاتب المصري
مجلة أدبية شهرية
رئيس التحرير : طه حسين
ثمنه بمصر ١٠ قروش